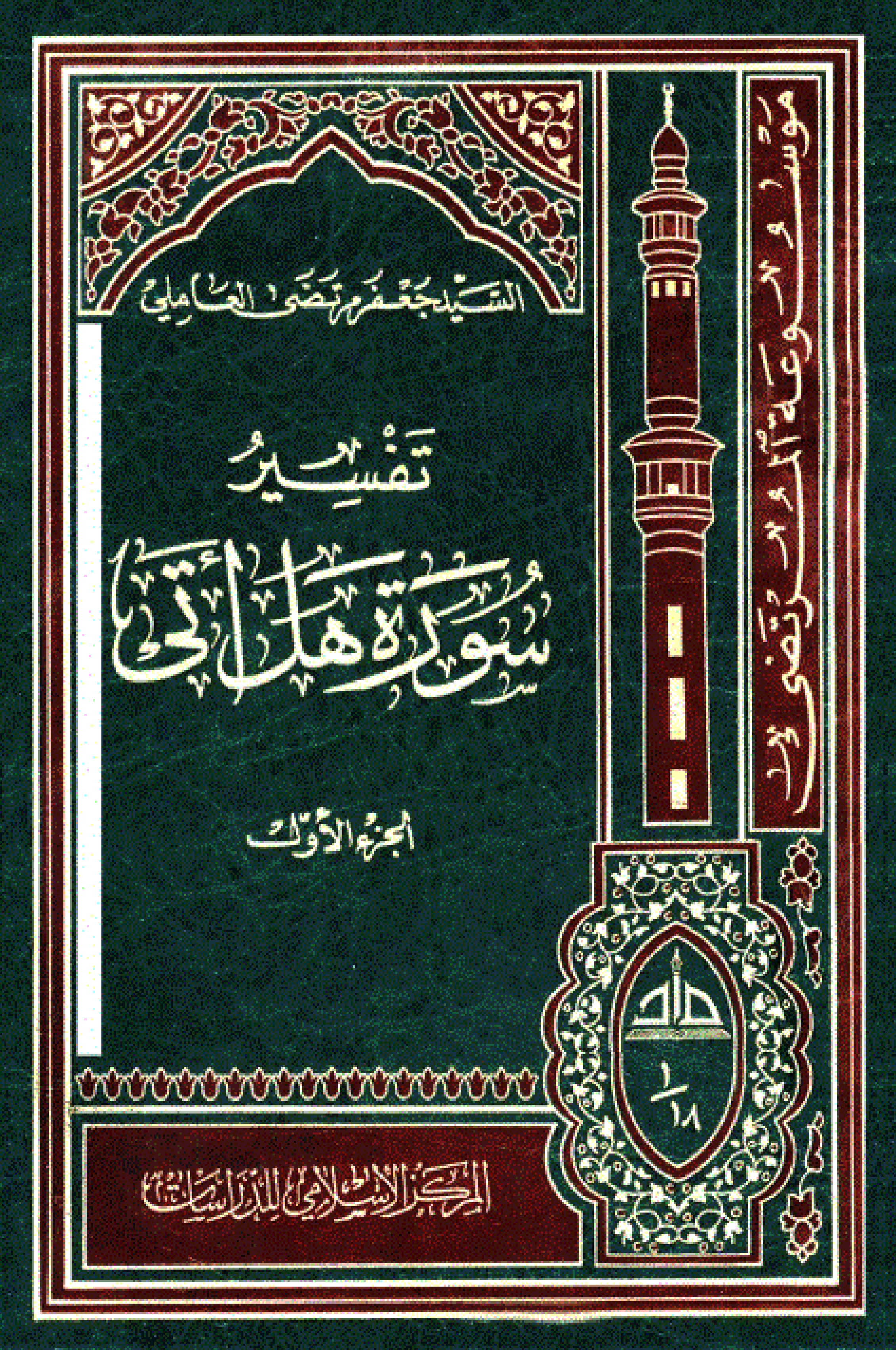

السيد جعفر مرتضى العاملي
تفسير
سورة هل أتى
الجزء الأول
١/١٨
المركز الإسلامي للدراسات

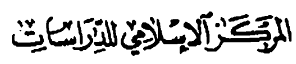
تفسير

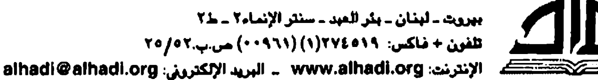
سورة هل أتى

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.







تفسير

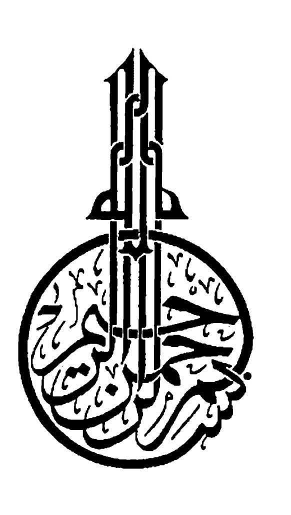
سورة هل أتى

السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء الأول



المركز الإسلامي للدراسات



تقديم:

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلقه، وأشرف بريته محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد..

فهذه خلاصة دروس من تفسير سورة **«هل أتى»**. وهي دروس أسبوعية كانت قبل سنوات قد خصصت لبعض المؤمنين الواعين من شبابنا حفظهم الله تعالى، وأيدهم.

وكان الأخ الكريم **«وفيق سعد»** قد اهتم بتسجيلها، ثم باستخراجها من أشرطة التسجيل، فجزاه الله خير جزاء وأوفاه.

وقد ظهرت لدى الأخوة رغبة ملحة في نشرها، رجاء أن ينفع الله تعالى بها، فاستجبت لرغبتهم، مقدراً لهم ثقتهم هذه، شاكراً لهم هذا الإخلاص، ومكبراً فيهم هذا الإيمان، وذلك الاندفاع الصادق لخدمة دينهم. وفقهم الله تعالى لكل خير وصلاح، وفتح في وجوههم أبواب النجاح والفلاح، إنه خير مأمول، وأكرم مسؤول.

وسيلاحظ القارئ الكريم: أننا نعتمد طريقة التفسير التجزيئي، بالإضافة إلى سعينا لاستخراج كوامن المعاني بأسلوب الاستدلال الاقتراحي، ثم بذل المحاولة للمقارنة، وتسجيل الملاحظة..

ونعني بالاستدلال الاقتراحي، أننا بعد أن نفترض بدائل للتعبير الوارد في الآية، نقارن بين الخصوصيات في البدائل، وبين خصوصيات المعنى الوارد، لنكتشف من ثم بعض جهات المعنى التي تجعل من اختيار التعبير الوارد في الآية هو المتعين، الذي لابد منه، ولا غنى عنه..

وإنما لم نعتمد التفسير الموضوعي لأننا قد اعتقدنا أن ذلك سابق لأوانه، إذ إنه يتوقف على حصحصة المعاني، واستخراجها، وجمعها، ثم المقارنة فيما بينها، ليمكن استخراج قواعد عامة وشمولية منها بصورة سليمة وقويمة..

ومن الواضح: أن القفز من هذه المرحلة إلى تلك لن يكون سوى مجازفة غير منطقية، ولا يعدو كونه اقتحاماً عشوائياً غير مبرر، وسيبقى يعيش الحرمان من الحد الأدنى من الوثوق بأية نتيجة يتوصل إليها، أو يهيأ لها، إلا إذا بقي المفسر يتردد بين المعاني القريبة، التي يتداولها الناس، والتي هي على درجة من الوضوح والبداهة..

وليقتصر الجهد من ثم على تبديل الأساليب، وإعادة تنظيم ورصف نفس الأفكار المتداولة، دون أي تصرف حقيقي فيها..

وأخيراً.. فإن رجائي الأكيد من القارئ الكريم هو أن يغض الطرف عن التقصير، وأن يتحفني بما يرى ضرورة للتنبيه عليه، وأن يلفت نظري إلى ما ينبغي لفت النظر إليه. وليتقبل مني عذري، وإليه أهدي خالص شكري.. والسلام عليه وعلى كل المؤمنين ورحمة الله وبركاته..

حرر بتاريخ: شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٣ هـ

عيثا الجبل ـ لبنان

جعفر مرتضى العاملي

سورة {هل أتى} المباركة:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً

(٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٣١)﴾.

«صدق الله العلي العظيم»

❁ ❁ ❁

تمهيد:

إننا قبل أن نشرع باستعراض المعاني التي نزعم أننا بأفهامنا القاصرة قد استفدناها من آيات هذه السورة المباركة..

نود التمهيد لذلك بذكر بعض الأمور التي ترتبط بهذه السورة، فنقول:

تسمية هذه السورة:

إنّ التشرف بقراءة الأحاديث التي رويت لنا عن أهل البيت عليهم السلام يعرفنا أنهم عليهم السلام يعبرون عن هذه السورة بسورة **«هل أتى»**.

وبما أن تسميات السور القرآنية ليست مزاجية، وإنما لها دلالات وإيحاءات تتجاوز موضوع التمييز بين سورة وأخرى، فإن تسمية هذه السورة بـ **«هل أتى»** تبقى مثيرة للانتباه، حيث جاءت على شكل استفهام، ينقطع عن متابعة بيان ما وقع في مورد السؤال، كما أظهرته التسمية لسورة أخرى بسورة **«براءة»**، أو تسمية سورة **«الأحزاب»** بـ **«الفاضحة»**، حيث يظهر من هذا: أن الهدف هو التركيز على معان ومفاهيم بعينها تستبطنها التسميات، وتشكل حافزاً للسامع أو القارئ يدفعه إلى نيل هدف بعينه، وإدراك غاية بخصوصها. وذلك بطريقة تشير للقارئ بضرورة متابعة الكلام، ليتمكن من فهم معنى تام ومقبول.

وتزيد تسمية هذه السورة بـ **«هل أتى»** على غيرها: أنها جاءت على شكل سؤال يجر وراءه سلسلة من الأسئلة، حيث تبقى كلمة **«هل أتى»**

تلحّ عليه بمعرفة ذلك الذي يُسأل عن إتيانه: ما هو؟! وما حقيقته؟! ولماذا يُسأل عنه؟! ومن المخاطَب؟! وهل المخاطب هو نفس المسؤول؟! ومن المجيب؟!

وفي الإنسان فضول، خصوصاً في مثل هذه الحالات، حيث يلتقي فضوله فيها مع حب المعرفة والعلم، ومع حب اكتشاف المجهول..

فهي إذن تسمية.. أريد لها أن تعطي الحافز للمعرفة، وتدفع كل سامع أو قارئ للمتابعة.. فيتحرك لمواصلة التحري، برغبة وجهوزية تامة، الأمر الذي يؤهله لأن يلاحظ خصوصيات وتفاصيل، لم يكن ليلتفت إليها لو ترك على حالةٍ من الاسترخاء والركود، بل إن السؤال نفسه سوف يحرجه ويثيره، ويجعله أمام مسؤولية البحث عن الإجابة.

أما تسمية هذه السورة بسورة **«الدهر»** و **«الإنسان»**، فهي قاصرة عن إفادة ذلك كله، إذ إن السامع لن يجد في نفسه الحافز للبحث والتقصي، ولن يشعر أنّه مسؤول عن شيء، بل سيكون قادراً على حسم خياره، فيقرر الإحجام أو الإقدام. ويكون إحجامه أو إقدامه مرتبطاً بحوافز ودواعٍ أخرى، ومنها عدم وجود الداعي للإقدام..

ولأجل هذا.. فنحن نرى أن علينا أن نلتزم بخصوص التسمية الواردة عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ولا نتعداها.

أما لماذا أريد أن يكون لاسم هذه السورة هذا الإيحاء، فقد يكون هو التأكيد على الاهتمام الإلهي بتعريف الناس بحقائق إيمانية أساسية، ربما تكثر الصوارف لهم عن متابعة مسيرة التعرف عليها.. لارتباطها بأهل البيت عليهم السلام الذين سوف تكثر العداوات لهم من قبل أهل الدنيا.. وطلاب اللبانات..

ثواب وآثار قراءة سورة «هل أتى»..

١ـ في مجمع البيان: قال أبو جعفر [عليه السلام]: من قرأ سورة هل أتى في كل غداة خميس، زوجه الله من الحور العين مئة عذراء، وأربعة آلاف ثيب. وكان مع محمد [صلى الله عليه وآله].

وفي كتاب ثواب الأعمال، بإسناده عن أبي جعفر [عليه السلام] مثله، غير أنه قال: ثمان مئة عذراء..

٢ـ أُبَي بن كعب، عن النبي [صلى الله عليه وآله] قال: ومن قرأ سورة **«هل أتى»** كان جزاؤه على الله جنة وحريراً.

٣ـ في أمالي الطوسي، بإسناده إلى علي بن عمر العطار، قال: دخلت على أبي الحسن العسكري [عليه السلام] يوم الثلاثاء، فقال: لم أرك أمس!

قال: كرهت الحركة في يوم الإثنين.

قال: يا علي، من أحبَّ أن يقيه الله شرَّ يوم الإثنين فليقرأ في أول ركعة من صلاة الغداة: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾**.

ثم قرأ أبو الحسن [عليه السلام]: **﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾**[1].

٤ـ روي عن النبي [صلى الله عليه وآله] أنه قال: من قرأ هذه السورة كان جزاؤه على الله جنة وحريراً. ومن أدمن قراءتها قويت نفسه الضعيفة. ومن كتبها وشرب ماءها نفعت وجع الفؤاد، وصح جسمه، وبرئ من مرضه.

---

(١) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٤٦٧.

٥ـ قال رسول الله [صلى الله عليه وآله]: من قرأها أجزاه الله الجنة، وما تهوى نفسه على كل الأمور. ومن كتبها في إناء وشرب ماءها نفعت شرٌّ وجع الفؤاد، ونفع بها الجسد.

٦ـ قال الصادق [عليه السلام]: قراءتها تقوّي النفس وتشد، وإن ضعف في قراءتها كتبت ومحيت وشربها، منعت من النفس (كذا) ويزول ضعفها عنه بإذن الله تعالى[1].

٧ـ محمد بن الحسن، بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن ابن أبي عمير، عن أبي مسعود الطائي، عن أبي عبدالله [عليه السلام]: أن رسول الله [صلى الله عليه وآله] كان يقرأ في آخر صلاة الليل ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾[2].

سبب نزول هذه السورة:

وقد حفلت الروايات الكثيرة، بأن سبب نزول سورة «هَلْ أَتَى»: هو أن الحسنين عليهما السلام مرضا، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله وبعض من أصحابه. وجعل علي على نفسه، وكذلك الزهراء، والحسنان عليهم السلام، وفضة رحمها الله: إذا عافاهما الله أن يصوموا ثلاثة أيام شكراً لله تعالى.

فألبسهما الله سبحانه عافيةً، فأصبحوا صياماً، وليس عندهم طعام، فحصل علي عليه السلام على ثلاثة أصوع من شعير، جاء بها للزهراء

---

(١) تفسير البرهان ج ٤ ص ٤٠٩ و ٤١٠ وراجع تفسير نور الثقلين ج٥ ص٤٦٧.

(٢) وسائل الشيعة (ط دار إحياء التراث العربي) ج٤ ص٧٩٦ وج٣ ص٤٠ عن التهذيب للشيخ ج١ ص١٧٠ وعن عيون أخبار الرضا ص٣٠٨.

عليها السلام مقابل أن تغزل جزة صوف..

فغزلت ثلث الصوف، وطحنت صاعاً من الشعير، وخبزت منه خمسة أقراص بعددهم. فصلى علي عليه السلام مع النبي صلى الله عليه وآله، ثم أتى منزله، ووضع الطعام، فأول لقمة كسرها علي عليه السلام إذا مسكين قد وقف على الباب، وطلب أن يطعموه، فوضع علي عليه السلام اللقمة من يده.. ودفعوا ما على الخوان إلى المسكين، وأصبحوا صياماً لم يذوقوا إلا الماء القراح.

وفي اليوم التالي تكرَّرت القضية برمتها، حيث جاءهم يتيم هذه المرة، وذلك بمجرد أن كسر الإمام علي عليه السلام اللقمة، فأعطوه ما على الخوان، وباتوا جياعاً لم يذوقوا إلا الماء القراح.

وهكذا جرى أيضاً في اليوم الثالث، حيث جاءهم أسير من أُسراء المشْركين، وقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، تأسروننا، وتشدوننا، ولا تطعموننا.

فوضع علي اللقمة من يده، وأعطوه ما على الخوان. وباتوا جياعاً. وأصبحوا مفطرين، وليس عندهم شيء.

وأقبل علي عليه السلام بالحسن والحسين عليهما السلام نحو رسول الله [صلى الله عليه وآله]، وهما يرتعشان كالفراخ من شدة الجوع.

فقال [صلى الله عليه وآله]: يا أبا الحسن: أشد ما يسوؤني ما أرى بكم، انطلق إلى ابنتي فاطمة.

فانطلقوا، وهي في محرابها، قد لصق بطنها بظهرها من شدة الجوع، وغارت عيناها..

فلما رآها رسول الله [صلى الله عليه وآله] ضمها إليه، وقال: واغوثاه،

بالله أنتم منذ ثلاث فيما أرى؟

فهبط جبرئيل، فقال: يا محمد، خذ ما هيأ الله لك في أهل بيتك.

فقال: وما آخذ يا جبرئيل؟.

قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ﴾[١].

وذكرت بعض النصوص: أن هذه السورة قد نزلت في الخامس والعشرين من ذي الحجة[٢].

وهناك تفاصيل وخصوصيات مختلفة وردت في الروايات، لا مجال لتقصيها وتتبعها.. لأن المقصود هنا مجرد الإشارة..

لماذا أعطوا جميع الطعام؟!

وقد يتساءل البعض عن سبب إعطاء جميع الطعام للسائل، مع أنه كان يكفيه بعضه، ويكتفي الباقون بما بقي منه..

وستأتي الإجابة على هذا السؤال، حيث سيظهر أن المقصود لم يكن هو مجرد إشباع ذلك السائل، بل المقصود هو إعطاؤه ما يجد معه الأمن والسكينة لأطول فترة ممكنة، ليجد الفرصة للتحرك باتجاه الخروج من الحالة التي هو فيها إلى ما هو أفضل..

السورة مدنية:

إن من المعلوم: أن هذه السورة مدنية، ولكن بعض الذين في

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٤٧٤ و ٤٧٧ عن الأمالي للشيخ الصدوق والبرهان (تفسير) ج ٤ ص ٤١٢ و ٤١٣.

(٢) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٤٧٣ عن مناقب آل أبي طالب..

قلوبهم زيغ يحاولون ادّعاء أنها من السور المكية، ولعل منشأ ذلك هو البغض والحسد لأهل البيت [عليهم السلام]، الذين نزلت هذه السورة فيهم، لأنّ نزول السورة في مكة، يبطل - بزعمهم - الروايات الكثيرة جداً، والمروية بطرق مختلفة عند السنة والشيعة، والتي تؤكد نزولها فيهم [عليهم السلام].

ولكن الله تعالى يقول: **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ..﴾**[1].

مستند أهل الزيغ:

لعل أول من ادعى نزول السورة في مكة هو ابن الزبير[2]. الذي كان قد حارب علياً [عليه السلام]. وكان معروفاً بانحرافه عنه، وبغضه له..

أما ما روي من ذلك عن ابن عباس[3]، فيشك في صحته، إذ إن الرواية قد وردت عنه بخلاف ذلك أيضاً.. كما سيأتي.

ثم جاءنا أخيراً من حاول أن يستدل لذلك، ويجمع له المؤيدات والشواهد، **فهو يقول:**

«في بعض الروايات: أن هذه السورة مدنية.. ولكنها مكية، ومكيتها ظاهرة جداً، في موضوعها وفي سياقها، وفي سماتها كلها. لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها.

بل نحن نلمح من سياقها: أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي..

---

(١) سورة الصف الآية ٨.

(٢) الدر المنثور ج٦ ص٢٩٧ عن ابن مردويه.

(٣) المصدر السابق عن النحاس.

تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة، وصور العذاب الغليظ، كما يشي به توجيه الرسول [صلى الله عليه وآله] إلى الصبر لحكم ربه، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور، مما كان ينزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة، مع إمهال المشركين، وتثبيت الرسول [صلى الله عليه وآله] على الحق الذي نزل عليه، وعدم الميل إلى ما يدهنون به.. كما جاء في سورة القلم، وفي سورة المزمل، وفي سورة المدثر، مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة.

واحتمال أن هذه السورة مدنية ـ في نظرنا ـ هو احتمال ضعيف جداً، يمكن عدم اعتباره»[1] انتهى..

ونقول:

أولاً: لقد فند السيد الطباطبائي [رحمه الله] هذه المزاعم. فقال ما ملخصه: إنّ صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة، وصور العذاب الغليظ لا تختص بالسور المكية، بل هي موجودة في السور المدنية أيضاً. ـ مثل سورتي الرحمن، والحج ـ بصورة أكثر مما ورد في سورة هل أتى.

ثانياً: وأما ما ذكره من أمر النبي [صلى الله عليه وآله] بالصبر، وأن لا يطيع آثماً أو كفوراً، وأن لا يداهنهم، وأن يثبت على ما نزل عليه من الحق. فهو في نهايات هذه السورة. فلتكن نهاياتها مكية ـ لو صح أن هذا الأمر يوجب مكية الآيات ـ لأن النزول كان تدريجياً.

ولو سلم أن السورة قد نزلت دفعة واحدة، فإننا نقول: إن الأمر بالصبر لا يختص بالسور المكية، فإنه تعالى يقول في سورة الكهف في

---

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٧٧ ط دار الشروق سنة ١٤٠٢ هـ

الآية ٢٨: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾.. وقد روي أن هذه الآية مدنية. وهي متحدة المعنى مع قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[1]، مع شدة التشابه في السياق في الموردين.

وما كان يلقاه النبي من أذى المنافقين وغيرهم من الجفاة وضعفاء الإيمان، لم يكن بأهون من أذى المشركين بمكة.

ولا دليل أيضاً على انحصار الآثم والكفور في مشركي مكة. بل إن بعض المسلمين كان يكسب الآثام، كما صرحت به الآيات. (انتهى كلام العلامة الطباطبائي)..[2].

ثالثاً: إن المعيار في مكية السورة ومدنيتها هو النقل والرواية، لا القياسات والاستحسانات. فإن كان ثمة من رواية تدّعي أنّ السورة مكيّة، فلا بد من محاكمتها كرواية، وملاحظة ما فيها من نقاط ضعف وقوة على هذا الأساس..

وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق..

وعلى كل حال.. فإن ثمة العديد من الأدلة على عدم صحة الرواية التي ذكرت: أن عبد الله بن الزبير قد اعتبر هذه السورة مكية، بالإضافة إلى أن ابن الزبير متهم في ما يرويه، خصوصاً إذا كان في سياق إنكار فضائل علي [عليه السلام] وآله الطاهرين. فإنه هو المحارب لأمير

---

(١) سورة القلم الآية٤٨.

(٢) تفسير الميزان ج٢٠ ص١٣٥ / ١٣٦ وراجع: سورة النور الآية ١١ وسورة النساء الآية ١١٢.

المؤمنين والمعلن بالتنقص له، ولأهل بيته الطاهرين، حتى إنه ترك الصلاة على النبي في أربعين صلاة جمعة، بحجة: أن له [صلى الله عليه وآله] أهيل سوء يخاف أن يتلعوا بأعناقهم، أو نحو ذلك.

وكذلك الحال بالنسبة للرواية بذلك عن ابن عباس، الذي كان في زمنه [صلى الله عليه وآله] صغيراً لا عبرة بما يرويه في ذلك السن.. خصوصاً وأنها معارضة بمثلها عنه، كما سنرى.

رابعاً: لقد روي عن الإمام علي [عليه السلام]: أن السورة مدنية[1].

وكذلك روي عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن[2] فراجع..

خامساً: قد ذكرت الروايات الكثيرة المروية من طرق أهل البيت [عليهم السلام] وغيرهم: أن السورة قد نزلت في مناسبة مرض الحسنين [عليهما السلام]، وصيام علي والزهراء، والحسنين [عليهم السلام] ثلاثة أيام، وصدقتهم بطعامهم في هذه الأيام الثلاثة المتوالية.

والحسنان [عليهما السلام] إنما ولدا في المدينة كما هو معلوم.

سادساً: إن آيات السورة ذكرت إطعام الطعام للأسير، ولم يكن في مكة أسرى..

إلا أن يقال: إن الكلام قد جاء في الآية على سبيل الافتراض، لا على سبيل الحقيقة.

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين ج٥ ص٤٦٨ وتفسير الميزان ج٢٠ ص١٣٣ كلاهما عن مجمع البيان.

(٢) راجع الدر المنثور ج٦ ص٢٩٧ عن البيهقي، وابن مردويه، وتفسير الميزان ج٢٠ ص١٣١ و١٣٢ عن الدر المنثور، وعن الإتقان أيضاً عن البيهقي في الدلائل، وعن ابن الضريس.

ولكنه احتمال ضعيف يخالف سياق آيات السورة.. كما أنه يخالف الروايات التي تحدثت عن سبب نزولها.

وأما احتمال أن يكون الأسير أسيراً عند قريش، فهو بعيد أيضاً، إذ لم نعرف عن قريش أنها كان لديها أسرى من حروب خاضتها.

سابعاً: وحتى لو كانت هذه السورة مكية، فإن ذلك لا يضر في صحة رواية نزول السورة في أهل البيت [عليهم السلام]، فقد أثبتنا أن السورة كانت تنزل أولاً.. ثم وبعد مضي مدة من الزمن تحصل الأحداث التي ترتبط آيات تلك السورة بها، فينزل جبرئيل بتلك الآيات مرة ثانية..[1].

---

(١) فراجع كتابنا: مختصر مفيد ج٤ ص٤٥ ـ ٨٣

الفصل الأول:

الخلق.. والهداية..

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً}

قال تعالى:

بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»:

إننا نعتقد وفقاً لما ورد في الروايات المباركة الواردة عن أهل بيت العصمة [عليهم السلام] أن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جزء وآية من كل سورة،[1] باستثناء سورة «براءة»..

وقد حاولنا تفسير مفردات هذه الآية المباركة، أعني آية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في تفسير سورة «الفاتحة»، وقد عرضنا هناك ما لعله يكون مفيداً، ورأيناه سديداً.. ولكي لا يلزم التكرار، فإننا نحيل القارىء الكريم إلى ذلك الكتاب، ملتمسين منه العذر، والعذر عند كرام الناس مقبول إن شاء الله تعالى.

ولنشرع في بيان ما فهمناه من سائر آيات سورة «هل أتى»، فنقول:

«هَلْ» للإنكار أو التقرير:

تبدأ آيات هذه السورة المباركة بعد آية: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

---

(١) وقد ذكرنا بحثاً وافياً بيناً حول هذا الموضوع في كتابنا حقائق هامة حول القرآن ص٣٨٢ حتى ص ٣٨٩.

بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

فبدأ تعالى بكلمة: «هَلْ» فقيل: إن كلمة **«هل»** هنا بمعنى **«قد»**، أي قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.. وذلك قبل أن يخلقه الله.. أو قبل أن تنفخ فيه الروح.. أو حينما كان لا يزال نطفة.

وقيل: هي استفهامية، جوابها الإثبات، أي نعم قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.

فلا فرق من حيث النتيجة بين هذا القول وبين سابقه.

ونقول:

لعل الصحيح هو ذلك وعكسه معاً.. أي أنه بالنسبة لهذه النشأة الإنسانية قد أتى عليه زمان لم يكن شيئاً مذكوراً، كما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء يوم عرفة: ابتدأتني بنعمك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً، خلقتني من التراب، ثم أسكنتني الأصلاب الخ..

وهو من جهة أخرى مذكور عند الله في جميع نشآته.. أي أن **«هل»** إستفهامية، لكن المقصود من الاستفهام، الانكار على من يزعم أنه قد أتى على الإنسان زمان لم يكن مذكوراً فيه.. وإظهار أنه قد أخطأ بزعمه هذا..

ويكون نفس الإنكار مؤذناً بالإجابة، فلا يحتاج إلى التصريح بها، أو يقصد به التقرير، وتسجيل الاعتراف ممن يحتمل في حقه الإنكار، أو ممن يكون إقراره حجة على غيره.. فيُسأل هذا السؤال ليقرّ بالحقيقة، ويقول: لا، لم يأت على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، بل كان مذكوراً في كل حين وزمان.

وعلى كل حال، فإن جواب إنكار الإثبات هو النفي، وجواب إنكار النفي هو الإثبات.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ[1]﴾؟

فالجواب: لا.

وكقوله تعالى: ﴿ءأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ..﴾.

فالجواب: لا، لم أفعل ذلك.

والثاني: كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾[2]؟!

فجواب هذا التقرير، ـ الذي دخلت فيه همزة الاستفهام على النفي بـ «لم» ـ هو الإثبات، فيقال: بلى، قد جعلت له عينين.

ولازم التقرير المبدوء بكلمة «لم» هو الإقرار بما دخل عليه حرف النفي، كما ظهر من قوله في الجواب: نعم جعلت له عينين.. فالنتيجة جاءت عكس ما دخل عليه الاستفهام، فإن دخل على النفي أجيب بالإثبات، وإن دخل على الإثبات أجيب بالنفي.

ومعنى الآية: أن هذا الإنسان، منذ بدء وجوده ما زال مذكوراً عند الله، في مختلف مراحل وجوده، من خلال استمرار الرعاية والعطاء الإلهي له.. فهو تعالى لم يزل يرعاه ويربيه، وينميه، ويحافظ عليه، وييسِّر أموره.

فالآية لا تتحدث عن الإنسان قبل أن يُخلق.. حتى يقال: إن كلمة

---

(١) سورة الزمر الآية ٩.

(٢) سورة البلد الآية ٨.

هل: بمعنى قد. أو يقال: إنها استفهام، جوابه الإثبات.. فإنه قبل أن يخلق لم يكن شيئاً أصلاً، فضلاً عن أن يكون شيئاً مذكوراً.

هذا بالإضافة إلى أن ذلك لا يختص بهذا الإنسان، بل جميع المخلوقات كذلك. فإن عدم ذكرها إنما هو لعدم وجودها.

إلا أن يقال: إن المراد التذكير بنعمة الخلق والذكر معاً.

ونقول في جوابه: إنه كلام لا محصل له، إذ لا معنى لقولك، إنك قبل أن تخلق لم تكن شيئاً مذكوراً. بل اللازم أن يقال: لم تكن شيئاً أصلاً. وهذا معناه أن تصير القضية سالبة بانتفاء موضوعها.. فهو من قبيل قولك: إن لم يكن لك ولد ذكر فلا تختنه، أو فلا تلبسه قميصاً. وهي ليست سوى قضية لفظية صورية من دون أي معنى، وليس لها فائدة، لأن الحديث ليس عن وجود الإنسان التخيلي الافتراضي، بل هو تعالى يريد أن يمتن على هذا الإنسان، ويذكره بنعمه الجليلة، وأياديه الجميلة. وهذا يناسب أن يسأله عن أنه هل مر عليه حين، لم يكن الله سبحانه يمده بالنعم، ويتعاهده بالرعاية.. فيكون الجواب: لا، بل الإنسان دائماً محل العناية والرعاية الإلهية..

هل البسيطة وهل المركبة:

وقد بدأت السورة بصيغة سؤال: ﴿هَلْ أَتَى﴾.. والسؤال يثير في الإنسان، الرغبة في المتابعة والمراقبة الدقيقة. فإذا كان السؤال موجهاً إليه مباشرة، فإن ذلك سيزيده تحفزاً، ويقظة، وتنبهاً، وسيجعله أمام مسؤولية لا بد من التصدي لها. ويتأكد الاهتمام بالسؤال إذا كان السائل هو الله، الخالق، العالم بالسر وما يخفى، لأنه يعلم أنه ليس استفهاماً حقيقياً، بل إما تقريري أو إنكاري، فبأي شيء يطلب منه أن يقر أمام الله؟ وأي

شيء ينكره الله عليه، ويريد ردعه عنه؟

وماذا يريد الله سبحانه من وراء هذا التقرير، أو ذلك الإنكار؟!..

لماذا اختار كلمة: «أتى»؟:

وقد يسأل سائل: لماذا قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ**﴾ ولم يقل: هل مر على الإنسان.

ونجيب:

أولاً: إن كلمة: ﴿**هَلْ أَتَى**﴾ تشير إلى أن السؤال إنما هو عن الإنسان، أو عن الشيء الموجود والثابت، وأنه هل أتى عليه في الماضي البعيد والمستمر حتى ساعتنا هذه، لحظةٌ أو زمان لم يكن شيئاً مذكوراً؟!.

فكلمة ﴿**أَتَى**﴾ تشير إلى هذا التحول المستمر آناً فآناً، من السابق إلى اللاحق، مع وجود الإنسان في جميع هذه الآنات.

ولو أنه قال: هل مر على الإنسان. فإن مفاده أن ما جعل موضوعاً للكلام قد مر عليه هذا الأمر، ولكن هل هذا الموضوع ـ وهو الإنسان ـ موجود الآن، أو ليس بموجود، بل هو قد زال وانقضى، فهذا ما لا يدل عليه الكلام، فالقدر المتيقن هو مرور هذا الأمر على الشيء الذي جعل موضوعاً في الكلام في وقت سابق..

ولكنك إذا بدلت كلمة: «مرّ»، بكلمة «**أتى**»، فإن الكلام يدل على ثبات ووجود هذا الإنسان في جميع الآنات التي تسأل عنها، فهو نظير قولك فلان أتى عليه مئة سنة، فالحديث عنه إنما هو في حال كونه لا يزال موجوداً، وحياً يرزق..

ثانياً: إنك حين تأتي بالاسم الظاهر، وتجعله محوراً للكلام، فلا بد أن تأتي بضميره الآتي بعده بصيغة الغائب. فلاحظ قوله: ﴿**لَمْ يَكُنْ**﴾

و﴿نَبْتَلِيهِ﴾ و﴿هَدَيْنَاهُ﴾ فهذه الغيبة في مقام الذكر والخطاب، قد توحي للإنسانَ الغافل بتوافق الخصوصية اللفظية، وهي الغيبة عن مقام الخطاب والذكر، مع الخصوصية الخارجية، وهي الغيبة في الواقع.

فاذا جاء التعبير بكلمة «مر»، فقد يتأكد هذا الإيحاء الذي ظهر في الأمرين السابقين أيضاً لدى الإنسان الغافل، الذي قد ينساق مع هذا التخيل ليفهم الكلام على أنه حديث عن مخلوق سابق..

أما كلمة ﴿أَتَى﴾، فقد أزالت كل شبهة في ذلك، وأفهمت: أن موضوع الحديث هو طبيعي هذا الموجود في كل زمان. وليس الحديث عن إنسان مضى..

ثالثاً: ولنفرض أن المراد الحديث عن فترة ما قبل خلق الإنسان.. فذلك لا يفرض أن يكون المراد بـ ﴿هَلْ﴾ هو الإثبات.. أو التقرير الذي جوابه الإثبات.. إذ إنه حتى قبل أن يوجد الإنسان، فإنه كان مذكوراً عند الله مذ كان في علمه تعالى. فكل هذا الوجود، بما فيه، قد خلق من أجله، وليكون في خدمته..

وقد خلق الله روح النبي [صلى الله عليه وآله]، وأرواح أهل بيته [عليهم السلام]، وجعلهم بعرشه محدقين، وأشهدهم خلق كل شيء.. ثم أرسل الأنبياء من لدن آدم [عليه السلام] وإلى الخاتم [صلى الله عليه وآله] من أجل هذا الإنسان، وليكونوا له نموذجاً وقادة، وهداة، وأسوة، وقدوة، وأنزل الكتب السماوية، وفرض تعلم العلم، وأوجب تعليمه، ليكون ذلك للبشر منار هداية، وسبيل نجاة..

ثم إنه حين يقترب وقت إفاضة الوجود الفعلي على الإنسان، ليكون حياً، مدركاً، فاعلاً، مختاراً، فإنك تجد أوامر الله تلاحقه، وترشده إلى أن

يختار والدته الصالحة من أفضل الأصول، وأطهرها، ويرشده أيضاً إلى كل ما يسهم في إبعاد الأبوين عن كل ما من شأنه أن يلحق أي ضرر في النطفة في ابتداء تكوينه.. ويبين له حتى حالات المقاربة الصحيحة، التي تنتهي بزرع نطفته في رحم أمه، حيث يحرص على منع أبويه مما له أدنى تأثير على روحه، ونفسه وجسده، حتى في احتمالاته البعيدة..

فراجع آداب العلاقة بين الزوجين في توجيهات النبي [صلى الله عليه وآله] والأئمة [عليهم السلام]، حتى قبل أن تتكون نطفته، وبعد تكوينها، ثم صيرورته علقة، ثم مضغة، إلى آخر مسيرته في عالم الجنينية، ثم ولادته، وتربيته، ورعايته التامة إلى أن يموت..

إنه في هذه المراحل كلها موضع رعاية الله سبحانه وعنايته، وهو مذكور عنده، ويفهمه أن بناء الكون، وتسييره وتدبيره، يجري وفق الضوابط التي تهيء أفضل المناخات، لإيصاله إلى درجات الفوز والسعادة..

وذلك يعرفنا بعمق معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾.

«عَلَى الإِنْسَانِ»:

والتعبير بكلمة: ﴿عَلَى﴾ يشير إلى أن الزمان شيء عارض على الذات الإنسانية، وأن له ملابسة لهذه الذات، متصرم عنها..

ولكن، هل يريد ـ فقط ـ أن يفهمنا مجرد ملابسة الزمن للموجودات المادية، وعروضه لها، وارتباطها به؟! أم أن هناك حقيقة أهم وأعظم، يريد لفت النظر إليها؟!..

الحق هو هذا الأخير، فإنه جعل محور الكلام هو الإنسان المستمر

في وجوده من الماضي إلى الحاضر، وجعل الإنسان الموضوع لكلامه أيضاً وليس البشر ـ ربما ـ ليفيد أنه لا يقصر نظره على وجوده الجسماني المادي. بل هو ينظر إليه، بما له من خصائص إنسانية، من روح ونفس، وبما له من مشاعر، وقوى، وملكات، وأحاسيس.

إنه يريد أن يفهمنا: أن بقاء هذا الإنسان الباقي والمستمر، الذي يذكره الله بالنعم، ليس بسبب وجود طاقة البقاء في داخل ذاته وحقيقته، وذلك لأنه موجود ملابس للزمان، والزمان مهيمن عليه، وهو يفرض عليه التصرم والزوال، فحدوثه المتجدد إنما هو من خلال محدثه وموجده، وهو الله سبحانه..

وبذلك يتضح لنا السبب في أنه لم يعبر بكلمة بشر، الذي يمر عبر مراحل: فيكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يكسو الله العظام لحماً. بل عبر بكلمة إنسان! حيث تبدأ مرحلة أخرى أرقى من هذه المراحل كلها، قد عبر الله عنها بقوله: **﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾**.. وهي مرحلة نفخ الروح التي تؤهله لأن يجد خصائصه الإنسانية وفقاً للسنن الإلهية في ذلك.

وبذلك يتضح أيضاً لماذا أدخل الزمان في الحديث عن حياة الإنسان، فإنه مفيد في بيان هيمنته وتأثيره في واقعه الإنساني.

«الإِنسَانِ»:

إن الإنسان بما هو إنسان، موضع عنايته تعالى، وليس الحديث عن حالات أفراده: كزيد، وبكر، من كبر وصغر، ولا عما يطرأ عليه من موت أو حياة، ونحو ذلك. وهذا معناه: أن الكلام الوارد يصدق على من خُلقَ حين نزول الآيات، وعلى غيره..

أما الآية الثانية، وهي قوله: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾**،

فقد لاحظت الخصوصيات الفردية في الإنسان.. فإنه هو الذي يُخْلَق، ويكون نطفة، وتمر بمراحل، وهو الذي يصير له سمع وبصر، وتمييز، وغير ذلك.

ولأجل هذا الاختلاف، كان لابد من تكرار كلمة الإنسان في الآيتين، فلم يقل «خلقناه»..

سؤال.. وجوابه:

وقد يقال: لماذا لا نقول: إن الحديث القرآني جارٍ وفق مصطلحات العرفاء في معنى الإنسان..

ويجاب: بأن ذلك لا يصح، فقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً..**﴾[1]، وقال: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾[2]، أي أنه تعالى يتحدث بلغة البشر بما هم بشر، فرضت حاجاتهم عليهم لغة يتخاطبون بها، لا بمصطلحات وضعها أرباب هذا العلم أو ذاك. وإلا، فإن ذلك السؤال يستتبع سؤالاً آخر هو: لماذا لا يتحدث الله تعالى بمصطلحات الفلاسفة، أو المتكلمين، أو الفقهاء، أو أصحاب أي علم آخر؟!..

على أن اللغة إنما يحتاجها الناس من حيث هم بشر.. وهي موضوعة في الأصل لمعانٍ حسية، أو قريبة من الحس.. وهي المعاني التي نعرفها بآثارها، كالكرم والشجاعة والعدالة، والحسد.. والعقل.. والغضب والفرح وما إلى ذلك.. وهناك معانٍ أبعد من هذه، وهي نتاج تفكير عميق، ودقة ملاحظة، فيحتاج للتعبير عنها إلى التوسل ببعض

---

(١) سورة يوسف الآية ٢.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٢.

التراكيب، أو إلى بعض المجازات، أو الكنايات..

وفي كليهما استعمل الله تعالى مصطلحات الإنسان بما هو إنسان.. لا الأصولي، ولا النحوي، ولا الفيلسوف.. ولأجل ذلك تجد أن المجازات والأمثال ونحوها موجودة لدى البشر جميعاً. وهي شديدة التقارب. لكونها تعبر عن حالاته البشرية والفطرية.

كما أنك حين تريد أن تخاطب الناس، فلا بد أن تخاطبهم باللغة التي تفرضها فطرتهم وإنسانيتهم، ولا تخاطبهم بلغة فئة خاصة، قد لا يعرف الكثيرون عن مصطلحاتها الشيء الكثير، فلا مجال لمخاطبتهم بلغة أهل العرفان مثلاً، أو أية فئة خاصة أخرى.. ولأجل ذلك، كانت اللغة المعتمدة هي اللغة العامة التي تعتبر من المشتركات الإنسانية، ما دامت تعتمد الألفاظ المعبرة عن المعاني الفطرية..

وقد أراد الإسلام أن تكون لغته هي ذلك المشترك الإنساني العام، فاختار اللغة العربية، لتكون لغة الصلاة، والتسبيح، والقرآن، وغير ذلك.. لأن الإنساني هو اللغة وليس هو المصطلح، ولأجل ذلك تشابهت المجازات، والأمثال، والاستعارات، حتى كأنك تظن أنها أخذت من لغتك، والحقيقة هي أنها إنما كانت كذلك، لأنها نتاج حركة الفطرة، والعقل، والمشاعر في الحياة، وهذه الأشياء واحدة لدى البشر جميعاً، فجاءت المعاني متشابهة، وإن اختلفت الحروف، والأصوات التي اختيرت لحمل تلك المعاني.. لأن اللغة بمعنى الحروف والأصوات قد فرضت على الإنسان في مرحلة اللاوعي، أما المعاني فليست كذلك.

ولأجل ذلك تجد أن الكل يصف الشجاع بأنه أسد.. ويكني عن الكثرة بالبحر، وعن السعة بالصحراء.. و.. والخ.. وإن اختلفت الحروف التي عبرت عن الأسد، وعن البحر، من لغة إلى أخرى.

عودة إلى كلمة «الإِنسَانَ»:

ونعود لتوضيح ما نرمي إليه هنا، فنقول:

لو أن كلمة ﴿الإِنسَانَ﴾ في الآية استبدلت بكلمة «البشر» لانصرف الذهن إلى الإنسان المتجسد في الأفراد، كزيد، وبكر، ولدخل في وهم السامع: أن الحديث هو عن هذا الوجود المادي للإنسان. فهو من حيث جسميته له بشرة بادية.. ولا بد أن يتحصص ويتشخص في مكان، ويتقيد بزمان.. ولا بد أن له حالات وأطواراً، من قيام وقعود، وصحة ومرض.. وكبر وصغر، ولحم، ودم، وعظم، وعضلات، ويشبع، ويجوع..

فيمكن أن يكون الحديث عن بشريته، بمعنى تكوين جسمه، وعن عوارض الأمراض، وعن خريطة عروقه وشرايينه، وعن عظامه، وحالاتها وأمراضها، أو عن كونه حياً، له روح، ونفس، ومشاعر، وأحاسيس. فما هي حقيقة تلك الروح أو النفس، وما هي حالاتها، وكيف تتأثر وتؤثر.. إلخ، أو عن مدى تأثيره بغيره، أو عن علاقته بربه، وبمجتمعه ومحيطه، ونشاطه السياسي، وعلاقاته الاجتماعية، أو عن النظم والأجهزة، والمؤسسات، والسياسات التي يحتاجها.. أو عن مكوناته الإنسانية، بما له من ملكات، ومزايا، كالشجاعة، والكرم، والعدالة، وغير ذلك.

مع أن ذلك كله ليس هو محط النظر الأساس في هذه الآية المباركة، وإن كان غير بعيد عن أجواء الحديث، بل المقصود هو تناول طبيعة الإنسان، وحقيقته، بما له من مزايا إنسانية.. من دون أي تركيز على خصوصية بعينها من كل ذلك الذي ذكرناه آنفاً، أي أن السؤال هو عن الإنسان مطلقاً في أي مرتبة من مراتب وجوده، وفي أية حالة كان، وبأية صفة اتصف، وعلى أي مزية حصل... لا من حيث كونه موجوداً مادياً وحسب، بل من حيث كونه حاصلاً على مزاياه الإنسانية كلها، أو في طور الحصول عليها كلها، أو بعضها،

في أي مستوى كانت تلك الميزات. ومن دون أن يتوقف عند أي من مراتبها أو حالاتها..

فهو بما أنه موجود إنساني، مورد الاهتمام، لا بما هو موجود مادي، فخصائصه الإنسانية محل رعاية الله سبحانه.. فهو إذن مقصود ومرعي، في أية حالة، ومع كل مزية، في حال فقده لها، وفي حال حصوله عليها على حد سواء.

أما الإنسان في الآية التالية، فيقصد به ذلك المعنى الأول، أي من حيث هو بشر، ولذلك أعاد التصريح بكلمة ﴿**الإِنْسَانِ**﴾، ولم يكتف بذكره بواسطة إرجاع ضميره إليه..

الإنسان في أحسن تقويم:

وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿**نَذِيراً لِلْبَشَرِ**﴾[1] ولم يقل: نذيراً للإنسان، لأنه لا يستحق وسام الاستحقاق الإنساني ما لم يستجب للنذير، وللهداية الإلهية، إذ بدون ذلك يكون كالأنعام، بل أضل سبيلاً، إذ إن: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾[2]، أي لا يدركون بها المعاني الواقعية. ولا يتفاعلون معها بالمشاعر القلبية، من خوف ورجاء، ونحو ذلك.

و﴿**لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾[3] لأن المطلوب هو النفوذ إلى الأسرار والحقائق، لا النظرة المادية السطحية.

فهم إذن فاقدون لما يستحقون به وصف الإنسانية الذي أعلن عنه

---

(١) سورة المدثر الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

في سورة التين، حين قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1].

وفي سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾[2].

فالإنسان الذي يجمع صفات الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، وبالصبر، يبقى على صفة الكمال الإنساني، ولا يخسر شيئاً منه، ويبقى في أحسن تقويم، ولا يرد إلى أسفل سافلين.

وفي هذه السورة أيضاً، أعني سورة ﴿هَلْ أَتَى﴾: قد جعل الله الإنسان سميعاً بصيراً، فإذا فقد هذه السميعية والبصيرية، وأصبح له عينان لا يبصر بهما، وأذنان لا يسمع بهما، بسبب كفره، فإنه يحجب عن نفسه نور الهدى، وفقاً للسنّة الإلهية القائمة في البشر.

﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3].

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[4].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾[5].

---

(١) سورة التين الآيتان ٤/٦.

(٢) سورة العصر.

(٣) سورة المطففين الآية ١٤.

(٤) سورة البقرة الآية ٧.

(٥) سورة البقرة الآية ١٨.

﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٢].

نعم، إن ذلك كله يُعطي أن الله سبحانه قد أفاض على الإنسان وجوداً إنسانياً كامل الخصائص والمزايا. لكنَّ الإنسان هو الذي ينحطُّ عن درجات إنسانيته وعن تقويمه الأحسن، ويبدأ بخسران مزاياه، وخصائصه الإنسانية، بسبب أعماله بالتدريج. وقد ينتهي به الأمر إلى أن يخسرها جميعها، فيصبح كالأنعام، بل أضل.

أما المؤمن الصالح، فهو يحفظ ذلك كله بكل وجوده، ولا يفرط فيه، رغم كل ما يواجهه من مصاعب وأخطار.. ولو أنّه أخفق في بعض الحالات، فإنّه سيحاول أن يستعيد ما فقده، ويرمّم ما خرّبه، ويسد الثغرة والخلل العارض بسبب تلك النزوة العارضة.

ولعل هذا هو الذي عناه الله بكلمة: «**الإِنْسَان**» في قوله: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ**..﴾.. وبيّن أنّه حين يتعرّض للنشوء وللوجود.. فإنّه سيكون في جميع مراحل وجوده، وفي كل مستويات نشأته وحالاتها، مذكوراً عند الله سبحانه، ومحلاً لألطافه وعناياته..

«حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ»:

وقد يسأل سائل: لمَ لم يقل: هل أتى على الإنسان حين، أو وقت، لم يكن شيئاً مذكوراً؟!. فما هو وجه الحاجة لكلمة: «**مِنَ الدَّهْرِ**» يا ترى؟!

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٤.

(٢) سورة التين الآيتان ٥/٦.

ويمكن أن يُجاب: بأن الحين هو الآن والجزء الزمني الصغير، والدهر هو مجموع تلك الأجزاء واللحظات الزمنية الممتدة والمستمرة في التعاقب والتكثّر والامتداد. فكلمة الدهر تشمل أجزاء وآنات الزمان السابق والحاضر، واللاحق. وقد أريد في الآية الاستفهام عن كل الآنات التي كان للإنسان ـ بما هو إنسان ـ حضور فيها، ويلاحظها المجيب في إجابته جزءاً بعد جزء، وآناً بعد آن.

وما ذلك إلا لأن الإنسان إنما يبدأ بالشعور والإدراك الفعلي منذ ولادته، وربما قبل ذلك، حيث يطوي مراحل استعداده لهذه الولادة ويستمر هذا الشعور إلى حين موته.. حيث تبدأ حياته البرزخية.. غاية الأمر: أن شعوره ـ بعد اكتمال وتبلور خصائصه ـ بما هو خارج دائرة ما بين الولادة والوفاة يبقى غير واضح المعالم له، بل هو أقرب إلى التخيل والافتراض منهُ إلى الإحساس الحقيقي، والرؤية الواضحة.. مع أن مراتب وجوده ومراحله قد تكون أبعد من ذلك بكثير..

مع استثناء أولئك الصفوة الذين كان ابتداء خلق أرواحهم وحلولها في الأشباح قبل خلق الخلق، بدهور، وهم أهل البيت [عليهم السلام].. وقد كانوا مورد العناية الإلهية في كل تلك الدهور.

فالتصريح في الآية المباركة بكلمة ﴿مِنَ الدَّهْرِ﴾ يراد به التأكيد على رؤية حركة الإنسان في عامود الزمان المستمر في الامتداد والجريان، لاستغراق آناته كلها.. لكي لا يخيل للإنسان: اقتصار الرعاية الإلهية على فترة نشأته المادية الفعلية، بل هي رعاية شاملة لكل عوالمه التي مرّ فيها، ولجميع منازله، ومراتبه الوجودية، حتى حينما كان لا يزال في علم الله، ثم ما تلى ذلك من انتقاله من عالم إلى عالم، ومن منزلة إلى أخرى، وسيستمر ذلك إلى أن يستقر في الدار الآخرة..

واللافت: أن الإنسان إنما ينظر إلى إحدى مراتب وجوده، والتي هي الحياة الدنيا، وبها يشعر، ولا يلتفت إلى امتدادات وجوده الإنساني، التي قد تكون أهم، وأثبت، وأسمى، وأرسخ، فـ **﴿إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** وفيها يكشف الغطاء، ويصبح البصر حديداً.

«شَيْئاً»:

وقد كان يمكن أن يقول: **﴿لَمْ يَكُنْ مَذْكُوراً﴾**، ولكنه تعالى أراد بهذا الاستفهام التقريري أو الإنكاري، أن يثبت الذكر للإنسان أو ينفيه عنه بما هو شيء. وشيئيته تساوق تشبثه بالوجود الخارجي، في بعض أطواره، وأدواره..

وبذلك يكون الحديث عن شيء واقع.. وليس حديثاً عن أمر افتراضي، كالسالبة بانتفاء الموضوع التي لا فائدة منها ولا عائدة، حسبما أسلفناه.. ولا هو حديث عن بعض مراتب الوجود التي لا ترتبط بشيئيته ولا بتحققه في الواقع الخارجي العيني.. بل تكون نسبتها إليه نسبة عرضية، مجازية، لا حقيقية.. كالوجود اللفظي، والكتبي، والذهني، فإن ذكر الإنسان على هذا النحو في هذه الأدوار، ليس ذكراً حقيقياً له، وليس ذلك من الأمور التي يصح امتنان الله سبحانه بها عليه، كما هو سياق الآيات الكريمة.

«مَذْكُوراً»:

هل المراد: بالذكر هو أن يخبر عنه ويذكره أمام الآخرين؟..

أو المراد: كونه ذا قيمة وله أهمية في نفسه؟..

أو المراد بذكره الاهتمام بشأنه.. بشكل دائم ومستمر؟!. بغض النظر عن كونه ذا قيمة في نفسه، أو غير ذي قيمة!

ظاهر الآيات أن المراد هو الاهتمام بشأنه ورعايته، بما يتناسب مع شأنه وحاله، ومقامه، ويتناسب مع شأن الذاكر، من كيفيات الذكر ومفرداته ومستوياته.. لأن مجرد ذكر الإنسان في المحافل، ليس مما يصح الامتنان به من رب العالمين، ما لم يكن من الثناء الجميل المظهر لميزاته من حيث هو مؤمن.. كما ورد في الدعاء: **«وكم من ثناء جميل لست أهلاً له نشرته»**.. إذ إن أهل السوء والانحراف ليس فيهم ما يصلح للثناء..

كما أن كون هذا الشيء ذا قيمة ليس مما يمتن به، إلا إذا كان له دور ووظيفة يؤديها، فتتحدد قيمته وأهميته من خلال ذلك، فإن الذهب مثلاً، إذا لم يكن له مورد يستفاد فيه منه، فإنه لا ينفع ولا يجدي، ولا يصح الامتنان بوجوده على أحد..

فالامتنان من الله إنما يناسب حالة الاهتمام والاعتناء بشأنه، ورفده بالعطايا والنعم التي يحتاجها.

ومجرد ذكر الشيء في المجالس، لا يلازم الاهتمام، والعناية والرعاية.. لأن الاهتمام قد يتعلق بفرضية لا وجود لها، يراد لها أن تتحقق، فيسعى الإنسان لتحديد حدودها، والارتقاء بها بيانياً إلى حيث تصبح قابلة للتلمس لمجرد حب المعرفة، والاكتشاف، ولو لم يكن لها أية قيمة أو شأن يذكر عنده..

وقد يهتم بشيء موجود، لكنه غير واضح المعالم، فيسعى لتحديد معالمه، ومشخصاته، ومعرفة مواصفاته، لكي يخرجه من حالة الغموض ولأجل أن يحسن التحرز منه، والتوقي من مخاطره..

وكلا هذين الأمرين لا يصح نسبتهما في هذا المورد بالذات إلى الله سبحانه.

فينحصر الأمر بأن يكون المراد بالذكر في الآية هو متابعة رعاية واقع الشيء بكل خصائصه ومزاياه، وكمالاته الوجودية، فذكره ليس بالسعي لتوضيح، معالمه، ووضع حدود وجوده.. بل برعايته وبجعله شيئاً له أهلية الرقي المستمر والحضور الدائم.. وذلك إنما يكون بإفاضة كل ما يحتاج إليه من مزايا وكمالات وألطاف تناسب وجوده..

الامتنان الإلهي.. هداية، ورعاية:

ولعلك تقول: لقد نهى الله عن المن على الآخرين، فقال: ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ..﴾[1]، وقال: ﴿قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾[2]..

ثم يقول: ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾. فكيف ينهاهم سبحانه عن المنّ، ثم يمنّ هو عليهم؟!..

ونقول في الجواب:

بما أن الله سبحانه هو الرب الهادي، وهو الخالق والمالك، والمنعم المتفضل، فامتنانه تعالى كمال، وهداية، ورعاية، وربوبية.

وأما امتنان الناس على غيرهم، فهو نقص، وعجز، وهوان..

وذلك لأن امتنانه تعالى علينا لم يرد في سياق الادعاء، ولا هو بهدف التحقير والإذلال. كما أنه ليس ناشئاً عن عجب أو رياء، أو غرور، أو أي عيب آخر.. كما هو الحال في الامتنان الصادر عن البشر.

وإنما الامتنان منه تعالى قد جاء ليعيد الإنسان إلى حالة التوازن، ويفتح عينيه على واقعه، وهو للتذكير بالنعمة على سبيل إظهار حيثيات

---

(١) سورة المدثر الآية ٦.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٧.

رفع الحاجة وسد الخلل بها، من مصدر التفضّل والعطاء. فهو جارٍ في سياق تعريف الإنسان بنفسه، وبخالقه، بهدف سوقه نحو الكمال.

فالامتنان إنما هو بداعي اللطف به، ومن منطلق الحب، والرعاية والهداية، والتربية له، والإحسان إليه، فهو نعمة أخرى له عليه، لا بدّ للإنسان من شكره عليها.

إنه بهذا الامتنان يذكره بعجزه، ونقيصته، وحاجته.. ليضعه على الطريق الصحيح، حيث يشعر بعجزه أمام قدرته تعالى وبضعفه أمام قوته تعالى، وبفقره أمام غناه، وبجهله أمام علمه، وبنقصه أمام كماله.

فيبعده بذلك عن حالة العجب، والرياء والغرور، ليكون بذلك أبعد عن الشرك، الذي هو أخفى فيه من دبيب النمل، كما جاء في الروايات الشريفة.. لأنّ هذه العاهات: العجب والرياء والغرور، تجعله يشعر باستغنائه عن الله تعالى، وتدفع به إلى الاعتقاد بأن ما لديه من خصائص ومزايا وكمالات، إنما هو من الأمور الذاتية له، تماماً كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[1]. فهو يشعر أنه ليس بحاجة إلى الله سبحانه، لأن لديه القدرات التي تمكّنه من التأثير في الأشياء. فلماذا يخضع لله، ويجهد نفسه في عبادته، ويأخذ نفسه بتنفيذ أوامره ونواهيه؟!

ولا شك في أن هذه حالة من الشرك الكامن في عمق ذاته، وهي من أهم أسباب رده إلى أسفل سافلين، وأن يكون في خسر مستمر..

فالامتنان من الله هداية وتفضّل يعيد الإنسان إلى الارتباط بمصدر الفيض الحقيقي.. فيصحو بعد غفلة، ويعلمه بضعفه بعد جهل، ويوحّد

---

(١) سورة القصص الآية ٧٨.

الله بعد شرك.. ويؤمن به بعد كفر. ويتجه نحو شكر الله سبحانه بعد كفران، ونحو عبادته بما يستحقه سبحانه، بعد تمرد وعصيان.. ويتوسل إليه بأحب الخلق إليه، ولله الحجة البالغة في كل حين وزمان..وصدق الله العلي العظيم حيث يقول: ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾..

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني:

{إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً} .

قال تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.

في هذه الآية المباركة دلالات هامة، وإشارات دقيقة، لا بد من الوقوف على ما يتيسر الوقوف عليه منها، فنقول:

«إِنَّا خَلَقْنَا»:

إن أول ما يواجهنا في هذه الآية المباركة، هو أنه تعالى قد بدأها بالإشارة إلى نفسه بصيغة الجمع، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾.. ولم يقل: أنا خلقت، أو لقد خلقت. فهل هناك من خصوصية اقتضت ذلك؟!

وما الفرق بين الموارد التي يذكر الله سبحانه فيها نفسه بصيغة الجمع، والموارد التي يأتي فيها بصيغة المفرد؟!..

وللإجابة على ذلك نقول:

هناك آيات تكلّم الله سبحانه فيها عن نفسه بصيغة المفرد، نذكر منها ما يلي:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[1].

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾[2].

---

(١) سورة طه الآية ١٤.

(٢) سورة طه الآية ٨٢

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٢].

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٤].

﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ﴾[٥].

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٦].

ومما ورد بصيغة الجمع، نذكر منها:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٧].

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[٨].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾[٩].

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٢) سورة المؤمنون الآية ١١١.

(٣) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٥) سورة البقرة الآية ٣١.

(٦) سورة البقرة الآية ٣٣.

(٧) سورة الحجر الآية ٩.

(٨) سورة الحجر الآية ٢٢.

(٩) سورة عبس الآية ٢٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾[١].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٢].

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾[٣].

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[٤].

﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾[٥].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا﴾[٦].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾[٧].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾[٨].

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى..﴾[٩].

والآيات كثيرة..

فنلاحظ: أنه تعالى حين ذكر العبادة، أو تحدث عن إثبات مقام

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢.

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٨.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٢٧.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٣١.

(٥) سورة المؤمنون الآية ٤٩.

(٦) سورة المؤمنون الآية ٥٠.

(٧) سورة المؤمنون الآية ٥٥.

(٨) سورة المؤمنون الآية ٧٧.

(٩) سورة طه الآية ٥٥.

الألوهية ونفي التأثير لغيره سبحانه، وعن الوحدانية، ونفي الشرك والشريك، والصاحبة، والولد، نلاحظ: أنه في مثل هذه الموارد قد جاء بصيغة المفرد، لأن المقام مقام تحديد، فهو يقول: ﴿لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾[١].

ويقول: ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَ لِيَعْبُدُون﴾[٢].

ويقول: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٣].

ويقول: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[٤].

ويقول: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٥].

ولكنه حين يريد أن يثبت مقام القدرة والاختيار، والعطاء، والفيض الإلهي في موارد الرحمة، والنعمة، والرزق والتدبير، وجميع الموارد التي يريد أن يخاطب الإنسان فيها من موقع الكبرياء، والعظمة.. والعزة، والقدرة، والربوبية وشؤونها، التي تتجلى في العناية والرعاية، والتدبير، فإنه تعالى في جميع تلك الموارد يتكلم عن نفسه بكلتا الصيغتين.

وذلك لأن الأمور التي تدخل في هذا السياق على قسمين:

أحدهما: ما لا بد من التدخل الإلهي المباشر فيه، ولا مجال لتوسيط أية جهة في إنجازه، وينحصر التأثير به تعالى، كالمغفرة، والجزاء الآتي

---

(١) سورة الحج الآية ٢٦.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٣) سورة يس الآية ٦١.

(٤) سورة طه الآية ١٤.

(٥) سورة الأنبياء الآية ٩٢.

على سبيل الكرامة الإلهية[1]، وجعل الخليفة في الأرض، والاختصاص بعلم الغيب، ونحو ذلك..

فجاءت الآيات في هذا القسم بصيغة المفرد، فقد:

قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ**﴾[2].

وقال: ﴿**إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا**﴾[3].

وقال: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[4].

وقال: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[5].

وقال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[6].

وقال: ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾[7].

---

(١) وقد قيدنا بذلك لنشير إلى أنه إذا كان المراد هو إعطاء الجزاء المقرر، من دون الإشارة إلى خصوصية الكرامة الإلهية، أو الإشارة إلى مشاركة الملائكة وغيرهم في إيصال الجزاء إليه، فيدخل ذلك في القسم الآتي، حيث لا مانع من الإتيان بصيغة الجمع، كقوله تعالى: ﴿**سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾.. وقوله: ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾..

(٢) سورة طه الآية ٨٢

(٣) سورة المؤمنون الآية ١١١.

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٥) سورة ص الآيتان ٧٢/٧١.

(٦) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٧) سورة المؤمنون الآية ٩٢.

الثاني: ما يمكن فيه توسيط وسائط من الملائكة أو غيرهم، ممن أذن الله لهم في التصرف، أو عن طريق تسبيب أسباب، وإجراء سنن إلهية.. وقد تحدث الله عن نفسه في هذا القسم بصيغة الجمع.. كما أنه قد تحدث بصيغة الجمع في مقامات إظهار العزة والهيبة والجبروت. وجاء أيضاً بضمير الجمع حين كان الغرض الإشارة إلى مقام العزة والعظمة الإلهية، أو أريد الإشارة إلى مشاركة الملائكة في كتابة الأعمال عن قرب ومعاينة، فهو يقول: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[١]..

قال تعالى: **﴿ءأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[٣].

وقال تعالى: **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾**[٤].

وقال تعالى: **﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً﴾**[٥].

وقال تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾**[٦].

وقال تعالى: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾**[٧].

---

(١) سورة ق الآية ١٦.

(٢) سورة الواقعة الآية ٦٤.

(٣) سورة الحجر الآية ٩.

(٤) سورة الحجر الآية ٢٢.

(٥) سورة الأنبياء الآية ٦٩.

(٦) سورة المؤمنون الآية ١٢.

(٧) سورة المؤمنون الآية ١٣.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾[1].

وعن مريم قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا..﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾[3].

ويلاحظ في هذه الآية الأخيرة: أنه تعالى قد جمع فيها كلا الأمرين: حيث لوحظت فيها تارةً قدرة الله سبحانه على الخلق..

ويلاحظ فيها تارة أخرى تهيئة وسائل إظهار هذه الآية للآخرين، وجعلها وسيلة هداية لهم ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[4] حيث بينت أن الله تعالى قد يحيي الميت، ولكن بتوسط إرادة النبي عيسى [عليه السلام] أو غيره، بمعنى أن الله قد تعهد بالإحياء حين تتعلق إرادة النبي عيسى [عليه السلام] به، فإرادة النبي عيسى واقعة في سلسلة العلل التي إذا وجدت جاء الفيض الإلهي وحصلت الحياة.

ونظائر هذا التوسيط كثيرة، فإن إنزال الذكر، يكون بوسائط منها جبرائيل [عليه السلام]، كما أن إنزال الماء، مما يتدخل فيه الملائكة، بعد أن يحمله السحاب أيضاً، ويمر بمراحل معروفة.

والزراعة تتم بواسطة إنزال المطر على التراب، ثم يتفاعل التراب مع البذور، فيحصل النبات، ويكون الحمل بعد مقاربة الرجل زوجته..

ولكن المشيئة الإلهية تبقى هي الحاكمة، ولأجل ذلك قد ينزل

---

(1) سورة مريم الآية 9.

(2) سورة مريم الآية 17.

(3) سورة مريم الآية 21.

(4) سورة مريم الآية 21.

المطر ولا ينبت شيء، وقد تضرم النار، ويمنعها الله من الإحراق، وقد يقارب الإنسان زوجته، ثم لا يحصل الحمل، لأن الله تعالى لم يأذن في ذلك كله.. فناسب التعبير عن الذات الإلهية في مثل هذه الموارد بصيغة الجمع.. إظهاراً للعزة الإلهية من جهة، وإظهاراً لما للأسباب التي جعلها الله سبحانه من دور في هذا النظام الكوني العتيد، من جهة أخرى..

وفيما يرتبط بالآية المباركة التي هي موضع البحث نقول:

إنه قد لوحظ فيها طريقة نشوء الإنسان، وأنه من نطفة أمشاج، في إشارة إلى أنه جار وفق سنة طبيعية، ودور إعدادي، وتهيئته بصورة تجعله قابلاً للفيوضات الإلهية في مراحل تكونه الإنساني الذي يؤهله للاختبار، الذي ينشأ عنه صيرورته سميعاً بصيراً.

«خَلَقْنَا»:

ونصل إلى قوله تعالى ﴿خَلَقْنَا﴾، فنقول: إن الخلق قد يستعمل ويراد به إبداع الشيء من العدم.. ولعل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[1] وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾[2] قد جاء بهذا المعنى..

ولكن الفرق بين الخلق والإبداع، الوارد في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3].. هو أن الإبداع يلحظ فيه مجرد خروج الشيء من العدم، أما الخلق فيلاحظ خروجه من العدم بما له من مادة وهيئة.

---

(١) سورة مريم الآية ٩، وراجع نفس السورة الآية ٦٧.

(٢) سورة الأعراف الآية ١١.

(٣) سورة البقرة الآية ١١٧.

فالخصوصية الوجودية ملحوظة في الخلق.

وقد يستعمل الخلق ويراد به التصوير، وإعطاء الهيئات، والأشكال. وفي هذا السياق هناك آيات كثيرة تحدثت عن مراحل الخلق التكوينية وتطوراته، والتشكلات التي مرت بذلك المخلوق..

وهذه الآية التي هي مورد البحث، من هذا القبيل، حيث ذكرت بداية خلق الإنسان حين يكون نطفة، ثم تتلاقح مع البويضة. وقد تعدت كلمة: «**خَلَقْنَا**» بواسطة كلمة: «**مِنْ**» التي يقال لها «**من**» النشوية، أي التي تشير إلى المنشأ والمبدأ فقال: ﴿**مِنْ نُطْفَةٍ**﴾.. وهي من قبيل كلمة «**مِنْ**» في قوله تعالى عن النبي عيسى [عليه السلام]: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ**﴾[1] وهي نفسها الواردة في قوله تعالى: ﴿**مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ**﴾[2] فالمراد: أن المبدأ والمنشأ، هو السلالة، والنطفة، والطين..

ففي الآية المباركة التي تحدثت عن خلق الطير، يقول النبي عيسى [عليه السلام]: إنه يجعل ويخلق لهذا الطين الذي هو موجود، صورة تشبه الطير، ثم ينفخ في هذا المجعول فيصير طيراً..

فالنبي عيسى [عليه السلام] لم يقل: أجعل لكم من الطين مثل الطير، لأن جعل الهيئة للطير لا تعني وجود الطير نفسه، ليصح أن يقال: إن هذا الذي عملته هو مثل الطير..

كما أنه [عليه السلام] لم يقل: أنا أنفخ الطيرية وأوجدها في تلك

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٢.

الهيئة، بل قال: إنه بعد نفخه فيه توجد حقيقة الطير بإذن الله.

فإرادة الله سبحانه، هي سبب وجود حقيقة الطير، ونفخة النبي عيسى [عليه السلام] لها أثر في تحريك السبب لإيجاد المسبب.

فالذي تعلق به الخلق والتصوير هو الهيئة المماثلة لهيئة الطير..

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[(١)].

تحدثت الآيات الشريفة عن انتقال وتطور من حالة إلى حالة، ومن كيفية وصورة إلى أخرى أرقى منها وأكمل.. أي أنه يبين لنا طريقة الخلق، لا الإبداع والخروج من العدم، الذي يقابله البقاء في العدم.

وفي خلاصة توضيحية نقول:

إنه حينما يأتي بكلمة «خَلَق» فتارة يريد بها الإبداع للشيء من العدم ـ ولكن على هيئة خاصة ـ مثل قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[(٢)].

ومثله ما جاء لبيان مراحل النشوء والتشكلات في نطاق الإبداع الكيفي والإبداع من العدم أيضاً، كآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾[(٣)] وأمثالها..

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢/١٦.

(٢) سورة لقمان الآية ٩.

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٢.

وتارة يتعلق الخلق بالهيئة فقط، كما في قوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ..﴾[١] وكذا الآيات التي أشارت إلى تطورات الخلق في مراحله كقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[٢] ونحوها. حيث تظهر أن الخلق قد أتى بصورة تدريجية، وفقاً لما تفرضه الحكمة في التطوير المناسب لحاله، واستعداداته التي تتنامى، فتحتاج إلى الصور التي تناسبها في كل حال من تلك الأحوال..

وقد ألمحت آية أخرى إلى أن التخليق هو إيجاد هذه الأشكال والهيئات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ﴾[٣].

ثم اعتبر تعالى نفخ الروح في الإنسان إنشاءً لخلق آخر فقال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[٤].

وحين يتعلق الخلق بالهيئات، فإن ذلك لا ينحصر بالله سبحانه، ولأجل ذلك نسب الله الخلق للنبي عيسى [عليه السلام] في سورة آل عمران، كما أنه تعالى في سورة المؤمنين بعد ذكر مراحل نشوء الإنسان، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٥]. في إشارة إلى أن الله هو أحسن المصورين، الذين يتصدون لإعطاء الهيئات.

وفي هذا إشارة إلى أن الخلق بمعنى التصوير يصح إطلاقه على الله

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٢) سورة السجدة الآية ٧.

(٣) سورة الحج الآية ٥.

(٤) سورة المؤمنون الآية ١٤.

(٥) سورة المؤمنون الآية ١٤.

تعالى وعلى غيره..

غير أن الله تعالى يتصرف في الكيفية من خلال اقتضاء التصرف في المادة له. فخالقية الله أعمق من خالقية غيره، لأنه تعالى يتصرف في الذات والحقيقة بنحو يقتضي التبدل في الكيفيات، وأما غيره فلا قدرة له إلا على التصرف في الهيئات.

«الإِنسَانَ»:

وقد اتضح مما تقدم، السبب في أنه تعالى لم يقل: إنا خلقناه ليكون بذلك قد أشار إلى الإنسان الذي تقدم ذكره بضميره العائد إليه، بل عاد فصرح بكلمة: «الإِنْسَانَ» فإن ذلك إنما هو لاختلاف الجهة التي يريد التركيز عليها في الموردين.

حيث إنه مرة يتحدث عن الإنسان بالحمل الأولي، الذاتي، أي عن حقيقته وذاته، فيثبت أن هذا الإنسان ما زال في رعاية الله في كل آن وحين، بغض النظر عن خصوصيات أفراده، وعن كيفية النشوء والتدرج في الخلق لهم..

ومرة يتحدث عن الإنسان بالحمل الشائع، أي بما هو حاك عن أفراده، بما لهم من نشوء وتكوين مادي، وبما هم لحم، ودم، وعظام، وشكل وروح ونفس، ومشاعر، وأحاسيس، وقوى، وملكات، وهذا المعنى هو الذي أريد الحديث عنه في هذه الآية الثانية..

ولكنه حديث عن خصوص التنشئة الإلهية التي تسبق اختيار الإنسان، وتحلّيه بصفات الشعور الإنساني، ووصوله إلى مرتبة الشاكر والكفور..

دور الإنسان في صنع خصائصه:

ولتوضيح ما نرمي إليه نقول:

إن من الضروري أن نجيب في البداية على سؤال يراود ذهن الكثيرين، وهو:

ما ذنب ذوي العاهات؟:

ما ذنب ذوي العاهات؟ وهل خلقهم مشوهين ينسجم مع عدل الله، ورحمته، ورأفته؟!..

ونجيب:

إننا باختصار شديد، نقول:

إن الله حين خلق الكون والحياة، قد أوجده خاضعاً لنواميس، وتهيمن عليه نظم وقوانين، لولاها لم يمكن بناء الحياة، ولم يكن لدى الإنسان أي طموح، أو تخطيط، أو سعي لتطوير الحياة، بالاعتماد على ضمانات تجعل ذلك السعي وسيلة إلى تحقيق مفردات ذلك الطموح..

ولاشك في أن للأشياء بالنسبة إلى ما سواها تأثيراً وتأثراً بها. وقد تكون هذه التأثيرات على درجة عالية من الخفاء بالنسبة لنا. وكمثال على ذلك نذكر أنه لو كان هناك اثنان يجلسان في غرفة واحدة، فإن نفس وقوع نظر أحدهما على ألوان وأشكال تختلف ـ ولو جزئياً ـ عما يقع عليه نظر الآخر ـ سيترك آثاراً على نفس وروح أحدهما تختلف عن الآثار التي سوف تكون لدى الآخر. كما أن ما يفكر به الإنسان وما يأكله، ويشربه، ويلبسه، والكلمات التي يسمعها، والأصوات التي تمر على سمعه، وكذلك الروائح والملموسات وغير ذلك، إن لكل ذلك وسواه تأثيراته الإيجابية، أو السلبية، على روح، وعقل، ومشاعر، وانفعالات الناس..

ولأجل ذلك كثر تعرض أهل بيت العصمة [عليهم السلام] لإرشاد الناس إلى المنافع والمضار. ورسم الشارع المقدس للناس مفردات تعاملهم مع كل ما يحيط بهم بصورة تفصيلية. وكان فيها ما ألزمهم بمراعاته، وفيها ما ندبهم إليه، وما حرمه عليهم، وما كرهه لهم.. وتلك هي أقوال النبي الأكرم والأئمة الطاهرين خير شاهد على ذلك، فإنهم لا يقولون شيئاً من عند أنفسهم، بل كل ذلك بوحي إلهي، وبيان، وتوفيق وتسديد رباني..

وقد خلق الله تعالى النبي آدم [عليه السلام]، وهو أول إنسان على هذه الأرض ليكون النموذج الأكمل والأتم، الذي استحق أن يعطى خمسة وعشرين حرفاً من الاسم الأعظم، كما ورد في الروايات، وأعطاه جميع الهدايات التي يحتاجها البشر ليوصلوا الكون إلى كماله الأتم. فكانت الهداية التكوينية، والإلهامية، والغريزية، والفطرية، والحسية، والعقلية، والشرعية، فأعطاه أيضاً الاختيار والإرادة، لأن ذلك من موجبات كماله، ولما امتد النسل في ذريته عليه السلام، بدأت تظهر منهم المخالفات المؤثرة في تشويه خلقه وخلقه، ولو أنه استفاد هدايات الله تعالى، ولم يبادر إلى اختيار المخالفة، والتعدي، فإنه سوف لن يوجد مشوه ولا مجرم، بل لم يوجد من الجمادات والحيوانات والنباتات إلا ما هو تام الخلقة وصحيحها.. ولكنه لما اختار التعدي وشرع في الفساد، والإفساد.. بدأت التشوهات الخلقية، والخُلقية تظهر في روحه ومشاعره، وجسده، وأخلاقه، ونفسه، وفي الموجودات المحيطة به، من نبات، وحيوان، وجماد. فإنه حتى الأنفاس لها تأثيرها الإيجابي في الحيوان والنبات وكل شيء. وقد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.. وقتل قابيل هابيل، وبدأت وراثة العاهات

والتشوهات، ولا تزال..

وهذا معناه: أن الله تعالى ليس مسؤولاً عن هذه العاهات، بل المسؤول هم الآخرون.

غير أنه سبحانه قد وضع عقوبات صارمة على من خالف. كما أنه لم يحمِّل صاحب العاهة مسؤوليات المعافى.. وعوضه في الدنيا ما يمكن تعويضه.. وإن كان من أهل الإيمان، والعمل الصالح، فإنه لا يحرمه في الآخرة من فضله، ولا بد أن تشمله رحماته الغامرة، والتي أهَّل نفسه للاستفادة منها، ومكَّنه من طلبها واستنزالها..

وإذا أردنا أن نقترب قليلاً من مورد الكلام في الآية المباركة، فإننا نقول:

الفطرة.. والإنسان:

إن الله سبحانه حين يزود الإنسان بالفطرة، فإنه يعطيه إياها صافية من الشوائب، بريئة من العيوب، فيستقبلها كيانه، الذي قد تكون فيه تشوهات تمنع من استقباله للفطرة بصورة سليمة وقويمة..

ولعل هذه التشوهات نشأت من خلل عارض على آلية تكوين النطفة، كأن تكون قد تكونت من حرام، أو في ظروف نفسية غير مواتية، أو في حالات وبأساليب حذَّر الشارع منها.. أو من خلال وراثة خصائص غير سليمة، من خلال عدوان الآخرين على نواميس الخلق والفطرة، وفقاً للمروي عنهم [عليهم السلام]: اختاروا لنطفكم، فإن الخال أحد الضجيعين..

أو لغير ذلك من أسباب..

وعلى كل حال، فإن الكيان الذي تنشأ فيه الفطرة، إنما هو بمثابة

المرآة التي تستقبل الصورة، فإنها قد لا تكون على درجة مرضية من الصفاء، وقد تعاني من بعض التلوثات، أو الندوب والتعرجات التي تمنع من استقبالها بصورة سليمة..

غير أن هذه الفطرة، تستمر في الكمون.. إلى أن يملك الإنسان قراره واختياره، بعد أن زوده الله بالهدايات، ومنها: العقل، ليكون مرشداً وهادياً له.. ثم يوجه إليه الخطاب الإلهي، ويصبح مكلفاً بإصلاح نفسه، وتصفيتها لتتمكن الفطرة من ممارسة دورها، حتى لا تعيقها تلك التشوهات، ولا تعمي عليها طريقها هاتيك التلوثات. فإنه بجلاء هذه المرآة تصبح الفطرة قادرة على التألق، وعلى التعبير عن نفسها بصورة أتم وأبهى..

وحيث يكون الله سبحانه قد هيأ لهذا الإنسان القدرة على التصرف في كل اتجاه، وأعطاه الاختيار والإرادة، فقد يبادر هذا الإنسان باختياره إلى الاعتداء على فطرته وتشويهها، وإلحاق الأضرار الفادحة بها، بل والقضاء على منجزاتها، وإبطال كل جهودها ومصادرة دورها، ومنعها من التأثير في صنع خصائصه، وإفساح المجال لتأثير ما عداها بها، وإخضاعها لإرادات الآخرين.. وقد ورد عن النبي [صلى الله عليه وآله]: كل مولود يولد على الفطرة إنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه، أو يمجّسانه[1].

وبذلك يكون قد تسبب في حجب الفيض الإلهي عنه، حيث يوكل إلى نفسه، وتحل به الكارثة..

---

(١) منتهى المطلب ج٢ ص٩٣٢، والحدائق الناضرة ج١ ص٤٢٥، وراجع: المجموع للنووي ج٩ ص٣٢٦ والمبسوط للسرخسي ج١٠ ص٦٢ والمغني لابن قدامة ج١٠ ص٤٧٣.

«مِنْ نُطْفَةٍ»:

قد تقدم أن كلمة «مِنْ» الواردة هنا هي «من» النشوية، أي لتشير إلى أن نشأة الإنسان وبداية تكوينه تبدأ من نطفة.

وليس المراد أن الإنسان بعض من النطفة، أو من جنس النطفة، لتكون كلمة «من» تبعيضية، أو جنسية..

«نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ»:

النطفة هي الماء القليل.. ثم أطلق على ماء الرجل أو الحيوان الذي يتولد منه مثله. وقد أشارت كلمة أمشاج إلى أن لهذه النطفة اختلاطاً وامتزاجاً متكرراً في عمق ذاتها، وكذلك مع غيرها، كبويضة المرأة، التي تكون لها أيضاً أمشاجية، واختلاط، وامتزاج ذاتي مع نطفة الرجل، وقد يكون ذلك في عرض واحد، وقد يكون في ضمن امتزاجات ممتدة عبر مراحل الخلق: العلقة، ثم المضغة: مخلقة، أو غير مخلقة، ثم العظام، ثم كسوتها لحماً، ثم بعث الروح في هذا الموجود، ليصبح خلقاً آخر..

وهي امتزاجات لا تقتصر على النواحي المادية، بل هي تمتد لتشمل النواحي والخصائص المشاعرية، والإدراكية، وغيرها، ثم تستمر في سيرها في عملية ابتلاء واختبار، ينقل الإنسان من مرحلة إلى مرحلة أرقى منها، ليصبح بعد ذلك سميعاً بصيراً..

إعراب كلمة «أَمْشَاجٍ»:

واختلفوا في إعراب كلمة أمشاج، فزعم الزمخشري: أنها وصف مفرد لموصوف مفرد، فإن الصفة تتبع الموصوف في الإفراد والتثنية والجمع..

لكن غير الزمخشري قال: إن العرب قد تصف المفرد بالجمع مثل:

ثوب أسمال..

ونقول:

أما بالنسبة لوصف المفرد بالجمع، فقد قيل: إن هذا شاذ فلا يقال مثلاً: رجل أبطال، أو امرأة أخيار.

أما كلمة أمشاج: فقد تكون اسم جنس له واحد من لفظه، فيكون معناه الجمع، وإن كان لفظه مفرداً، ولعل هذا هو السبب في أنهم قالوا: إن واحده مشيج، ولم يقولوا: مفرده مشيج.. فلا مانع إذن من إعرابه وصفاً لكلمة نطفة..

كما لا مانع من إعرابه بدلاً، كما ذكره البعض.. ويكون تفسيره بكلمة أطوار، قد جاء على سبيل استخراج معناه، لا لأجل أنه جمع وله مفرد، بل لأنه مفرد معناه الجمع..

«أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ»:

الأمشاج واحده مشيج. وهو الخلط.

وقد فسر الأمشاج بأخلاط من ماء الرجل وماء المرأة، عن ابن عباس، وغيره.

وقال قتادة: معنى أمشاج أي أطوار: طوراً نطفة، وطوراً مضغة، وطوراً عظماً إلى أن صار إنساناً ليختبره بهذه الصفات.

ونقول:

إن كلمة أمشاج قد جاءت وصفاً لكلمة نطفة.. مما يشير إلى أن الأمشاجية موجودة أولاً وبالذات، في ذات النطفة، ولا ينافي ذلك عروض أمشاجية أخرى لها من خلال تلاقح نطفة الرجل ببويضة المرأة، كما ربما يقال..

كما أن الابتلاء قد رتب على الأمشاجية، لتكون هي مقدمة لـه، فـلا بد أن تكون هذه النطفة، بملاحظة أمشاجيتها، لها قابلية الابتلاء والاختبار المباشر، بحيث يكون هذا الابتلاء ناشئاً من واقع تلك النطفة المختلطـة، وهو الذي نشأ عنه كون الإنسان سميعاً بصيراً، ثم يكون أهلاً لأن يهديـه الله السبيل، إما شاكراً وإما كفوراً..

وواضح: أن ذلك لا يتحقق من مجرد اختلاط نطفة الرجل ببويضـة المرأة.. فإن هذا النوع من التلقيح لا ينحصر بالإنسان.. بل هـو أمشـاجية تفترق عن أمشاجية النطفـة الحيوانيـة، فـي أن ذات النطفـة تحمـل فـي داخلها مزايا، وكمالات، وخصائص، وصفات إنسانية بالقوة. وقد اخـتلط بعضها ببعض أكثر من مرة سواء كانت الاختلاطات عرضية للعديـد مـن الخصائص الموجودة في النطفة، أم طولية في نطاق تحولاتها إلـى علقـة حاوية لتلك الخصائص، ثم إلى مضغة إلخ..

فإن هذه الاختلاطات لتلـك العناصـر الخاصـة بـالتكوين الإنسـاني عرضاً وطولاً تؤثر جميعها في جعل الإنسـان صـالحاً لأن يكـون مـورداً للاختبارات، ثم أن يجعله الله مختاراً، يسـتجيب لتلـك الاختبـارات مـن موقع اختياره، ثم تكون نتيجة ذلك هي أن يصـبح هـذا الإنسـان شـديد السمع، حديد البصر جداً ﴿نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾..

لا بد من إجابة:

وتبقى أسئلة في الآية المباركة تحتاج إلى إجابة، مثـل السـؤال عـن السبب في أنه تعالى لم يقل: سامعاً مبصراً، بل قال: ﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾؟!..

والسؤال عن سبب تقديم السمع على البصر؟!..

ولماذا فرعهما على الابتلاء؟!..

ولماذا عبر بالجعل؟

ولماذا كان هذا الجعل منه تعالى، فلم يقل: فكان سميعاً بصيراً؟!..

ولماذا السمع والبصر دون غيرهما من الحواس؟!..

أو لماذا لم يقل: جعلناه عاقلاً، أو جعلناه ذا شعور وإدراك؟!. مع أن العقل من أعظم نعم الله على الإنسان..

كما أنه حين ذكر هدايته السبيل، لم يقل: إما شاكراً، وإما كافراً، بل جاء بصيغة المبالغة، فقال: إما شاكراً، وإما كفوراً؟!..

وأشار أيضاً إلى الشكر والكفر، لا إلى الهداية والضلال؟!..

وكل ذلك سيتضح إن شاء الله فيما يأتي من مطالب..

الأمشاجية للمزايا الإنسانية، لا المادية:

ثم إننا نستطيع أن نؤكد ما ذكرناه ببيان آخر، هو كما يلي:

أولاً: إنهم يقولون: إن نطفة الرجل تهاجم بويضة المرأة في القرار المكين، وتمتزج بها، ثم تبدأ بالنمو والتطور في مراحل الخلق **﴿خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾**. وفي هذه الأطوار قد يبتلى ببعض البلاءات التي تفرض عليه وراثياً، بفعل السنن الإلهية الحاكمة، وتكون النتيجة هي إرث أمراض وعاهات، وإرث مواصفات جسمانية، أو حيوانية، كاللون والشكل، والطول.. وإرث بعض الحالات النفسانية كقلة الحياء، أو نحو ذلك.. وقد لا يعرض له شيء من ذلك، بل يبقى يسير في مراحل النشأة بصورة طبيعية، وفقاً للسنن الإلهية الحاكمة، في هذه الأحوال أيضاً..

وليس ذلك كله هو المقصود بقوله في هذه الآية **﴿نَبْتَلِيهِ﴾**، لأن احتمال انتقال تلك الحالات والابتلاءات، مساوق لاحتمال عدم عروضها للإنسان، لأن الآية قد فرضت حصول الابتلاء المصاحب للخلق

والتكوين، على نحو لا بد معه من حصول السميعية والبصيرية التي هي من مظاهر الإدراك والشعور والوعي العميق، والفهم للدقائق..

فهذه الحتمية، وذلك الترديد في الحصول تعطينا أن هذه الأمشاجية ليست من ذلك النوع الآنف الذكر، بل هي من نوع آخر.

ثانياً: إن هذا النوع من البلاء والابتلاء، يترتب عليه صيرورة الإنسان سميعاً بصيراً، كما دلت عليه فاء التفريع في قوله: ﴿**فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾.. وليس ما ذكر آنفاً مما يترتب عليه ذلك، لعدم وجود سنخية بينَ تلك الابتلاءات وبين هذه النتيجة..

كما أنه ليس المراد أن هذا الابتلاء قد أوجب أن يجعل الله له حاسة السمع والبصر، إذ لو كان كذلك لقال: «**فجعلناه سامعاً مبصراً**»..

بل المراد: أنه قد جعل له رهافة السمع وشدته، وقوة البصر وحدته، بعد الفراغ عن أصل وجود تلك الحاسة لديه.. والرهافة إنما هي من أوصاف حاسة السمع والبصر في مجال العمل.. ولكن لا لمجرد آليتهما التي تربط بين الإنسان، وبين الأشياء، ثم تغيب عنه، ليتدبر أمره معها، بل من حيث دورهما في عمق إدراكه للحقائق، وشدة حساسيته تجاهها وتجاه كل حالاتها وخصائصها..

فاتضح: أن النشأة للمزايا والكمالات المادية الحيوانية، الكامنة في النطفة من حيث تكوينها الذاتي التي اكتسبتها النطفة عن طريق الوراثة، وهي مرحلة يشارك فيها الإنسان غيره من الحيوانات ـ إن هذه النشأة ـ ليست هي المقصودة في هذه الآية، بل المقصود هو أن تلك النطفة تحمل في داخلها مزايا أخرى، تختص بإنسانية الإنسان، ومنها تتكون فطرته الإنسانية، فهذه النطفة، بهذا اللحاظ، هي التي اختلطت، وتفاعلت،

وانتقلت من مرحلة إلى مرحلة، حتى جاء دور النشوء الأكبر، الذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

فانفصل بذلك عن غيره من الحيوان، ليتدرج في الحصول على خصائصه وميزاته، من حيث هو إنسان، مريد، مختار، عاقل، مفكر إلخ..

وهذا بالذات ما ترتب عليه الابتلاء والاختبار الذي نشأت عنه السميعية والبصيرية..

آدم أبو البشر:

وقد يسأل سائل: هل كان خلق النبي آدم [عليه السلام] أيضاً من نطفة أمشاج؟!.. أم أنه مستثنى من هذه الآية؟!، لأنها تتكلم عن الإنسان المولود من النطفة، والنبي آدم إنما خلق من تراب!!..

ويجاب عن ذلك: بأن الأمشاج تعني الاختلاطات المختلفة، ويراد بالنطفة الماء القليل، أو كل ما هو قليل..

وهذا الأمر يمكن تصوره أيضاً بالنسبة للنبي آدم عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.. فإنه خلق من شيء قليل، وفيه اختلاطات تستبطن مزايا.. تؤهل هذا المخلوق للابتلاء، الذي تنتج عنهُ السميعية والبصيرية.

«الابتلاء»:

وقد قلنا: إن محور الكلام في الآية الكريمة هو الإنسان بما له من صفة إنسانية، لا البشر، ولا خصوصيات الحيوانية في الإنسان، وذلك لأن الإنسان هو الذي يصح ابتلاؤه واختباره.

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤.

فالأمشاجية في الإنسان أكمل منها في الحيوان، من حيث إن فوق الصفات التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، صفات أخرى تختص بالإنسان، هي التي أهّلته للابتلاء، وهي التي تنشأ عنها السميعية والبصيرية، والإرادة، والاختيار، ولأجلها ظهرت حاجته إلى الهدايات على أنواعها، مما يعني أنها أمشاجية لمزايا إنسانية، وحيوانية ترتقي إلى مستوى التأثير في إنسانيته إلى حد إبطالها، أو حفظها وتكاملها. فبعد خلق الإنسان من النطفة الأمشاج الجامعة لتلك المزايا ويصير أمامنا إنسان ماثل للعيان، تبدأ عملية الابتلاء له..

ولعل عملية الابتلاء تبدأ حين يبدأ الإنسان بالسعي لاستجماع خصائصه ومزاياه الإنسانية، والحصول على كمالاته بإرادته، واختياره، بما له من فطرة هادية، وعقل راشد ومرشد، فيواجه في داخله غرائزه، ومنها حب المال، والجنس، والأنا، ونحوها من النوازع التي تدعوه إلى الإغراق والإفراط إلى حد السير في غير ذلك الاتجاه.

ولحالات الجسد تأثيرها على حالات الروح والنفس، فيكون الاحتكاك والصراع فيما بين هذين.. ويكون للعقل وللفطرة دور الهادي والمرشد..

وينشأ عن ذلك التصدي تمييز بين الأمور، وإدراك لدقائق القضايا، وحصول على معارف وخبرات جديدة..

ويصبح الإنسان بعد أن تبلورت في شخصيته مزاياها بأبهى وأجلى مظاهرها، وبعد أن صفت وزكت، وطهرت، سميعاً بصيراً، ثاقب النظر، عميق الفكر، عارفاً بالحسن والقبيح، مميزاً للخطأ من الصحيح.. واقفاً على مواضع الخلل والنقص، والحاجة والعجز في داخل ذاته، وفي قدراته..

ويفترض فيه أن يتعامل مع الأمور من موقع المتطلب لما هو أصوب، والساعي لما هو أزكى وأطيب، ولما هو أتم وأكمل في الإنسانية، ملبياً لنداء عقله وفطرته، قبل أن يلبي أية دعوة أخرى، غرائزية كانت أو غيرها..

وهذا معناه: أن عليه أن يدرك مزايا الأشياء، ويعرف مدى ما تسهم به في معالجة مواضع النقص، والعجز، والخلل، التي يواجهها.

ولكنه قد يشذ عن الطريق، ويتخذ سبيل الاستجابة لأهوائه وغرائزه، زاعماً أن ما تدعوه إليه هو ما يحقق الكمال له، مستخدماً في ذلك يده، ورجله، وعينيه، وسائر ما أعطاه الله إياه من قوى ظاهرية وباطنية، ليستخدمه في الوصول إلى الخير والصلاح والهدى، فيتوصل به إلى الشرور والآثام، ويقهرها على الاستجابة له، فتطيعه رغماً عنها، وتقوم بما تقوم به، وهي تسبح الله وتلعن من قهرها، وتسجل ذلك عليه، لتشهد به في يوم القيامة، فينتهي به الأمر، بسبب الكفر والطغيان، إلى فقدانه لمزاياه الإنسانية، حتى يصير كالأنعام، بل أضل سبيلاً.

فظهر: أن السميعية والبصيرية قد جاءت على شكل نتيجة طبيعية لذلك الابتلاء، فقال تعالى: **﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً..﴾**.

وظهر أيضاً: أن الابتلاء ليس بمعنى الابتلاء بالمصائب والرزايا في دائرة الجسد، بل هو ابتلاء في دائرة المسؤولية، ينتج عنه كمال، ووعي، ورهافة إحساس، وسميعية، وبصيرية، وبلورة مزايا، ونشوء خصائص عن هذا السبيل.

فإذا كلفك بالصدق مثلاً، فإنه يشير بذلك إلى نقاط الضعف التي لو أثيرت، فإنها ستذهب ببعض سعادتك، وتصدك بعض الصدود عن

هدفك.. ثم هو يدلك بذلك على ما يُتلافى به هذا الضعف، ويُتدارك به ذلك الخلل، لتستقيم حياتك، وتَطَّرد حركتك بقوة وثبات، نحو تحقيق طموحاتك، وأنت تدرك حجمك ومستواك، وتعرف مواضع الضعف والقوة، والنقص والكمال في عمق وجودك..

نبتليه!! بماذا؟!!:

وكلمة «نبتليه» جملة في موقع الحال: أي أن هذا الخلق قد صاحبه ابتلاء نتج عنه في نهاية المطاف السميعية والبصيرية مع ملاحظة:

أولاً: إن ابتلاء كل مرحلة إنما هو بما يناسبها.

ثانياً: إن الابتلاء قد بدأ من النشأة الطينية، ثم النشأة الحيوانية، ثم النشأة الإنسانية.

وبعبارة أخرى: هناك نظرتان للابتلاء الذي أشارت إليه الآية المباركة..

النظرة الأولى:

إن للابتلاء مراحل مختلفة، ولكل مرحلة مستوى ونوع يناسبها.. ثم تكون له نتائج، تختلف وتتفاوت أيضاً..

فهناك ابتلاء يؤهل لمقام النبوة، أو لمقام أولي العزم من الأنبياء، أو لمقام أدنى من ذلك بدرجات تكثر وتقل..

ولكن مما لا شك فيه أن ثمة مرحلة من الابتلاء يمر بها البشر جميعاً بنسبة واحدة، وهي التي تؤهلهم للخطاب الإلهي والتكليف بالأحكام.

النظرة الثانية:

ثم إن الابتلاء من حيث ترتبه على خلق الإنسان من نطفة أمشاج، قد جاء ليثير كوامن الإنسان، في صراط نموه وتكامله المتمثل في حصوله على خصوصياته ومزاياه الإنسانية، وفي ترميم وإصلاح ما وجده مشوهاً أو منقوصاً، وفي الحفاظ على حالة السلامة فيه بعد إصلاحه..

ويتجلى هذا الابتلاء تارة في مواجهة الإنسان بالمغريات المحرمة، وبالمصائب والبلايا، فإن هذه المصائب والبلايا إذا أحسن الإنسان الاستفادة منها، هي من أسباب تكاثر النعم، بل هي بنفسها نِعَم، من حيث أنها من أسباب تكامل الإنسان، ومن موجبات صقل شخصيته.

ثم يتجلى تارة أخرى في مواجهة الإنسان بالنعم نفسها، لتكون هي مادة الابتلاء والاختبار له؛ فيعطيه الله القوة والجمال والمال، والغرائز، ثم يعطيه العقل، والفطرة الهادية إلى الكمال. بالإضافة إلى الهدايات التشريعية، التي يحتاجها، من حيث إن إعطاء تلك النعم له قد جعله بحاجة إلى هدايات تناسبها، ولينظر، أيشكر أم يكفر.

وقد روي: أن أول ما ابتلى الله به عباده هو نعمة خلقهم، حيث يفرض عليهم أن يحسنوا التصرف بأنفسهم، وأن يشكروا الله المتفضل عليهم بهذا الخلق، ثم الاستفادة منه في دائرة تكامل خصائصهم الإنسانية والروحية، وحتى الجسدية، وحفظها.

والمناسب لسياق الآيات هنا هو إرادة الابتلاء بالنعم، لا الابتلاء بالمصائب والبلايا.. فإن الآيات تحدثت عن الشكر للنعمة، والكفر بها. فقال تعالى: **﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾**..

الاختبار والاختيار:

ويأتي في الدرجة التالية حالة المواجهة والصراع بين الخصوصيات للأفراد والجماعات، وهو الأمر الذي تفرضه حاجات الحياة، وحركتها المستمرة..

غير أن السؤال الذي يحتاج إلى إجابة صريحة وصحيحة هو: هل أن الابتلاء والاختبار الذي ذكر في هذه الآية المباركة، يأتي في دائرة اختيار الإنسان؟ أم أنه يحصل خارج دائرة اختيار الإنسان؟! بمعنى أن الاختبار والابتلاء أمر تكويني وتصرف إلهي قاهر للإنسان، ومفروض عليه تماماً كما يختبر الإنسان المعادن ويجري عليها تجاربه، لكي تأتيه النتائج من خلالها، من دون أن يكون لتلك المعادن أي دور في القبول أو الرد..

والجواب:

أن الاختبار إنما هو في دائرة اختيار الإنسان، ومن خلال رفضه وقبوله وممارسته، وعلى أساس ذلك ومن خلاله تتكون خصائصه وتتنامى وتتكامل ميزاته.. مما يعني أن الاختلاط والأمشاجية في النطفة، لا يعني الجبرية، ولا يسلب الاختيار[1]، ونقصد بها نطفة الرجل وبويضة

---

(١) فإن ما يزعمون أنه أسباب شر في الإنسان، وهي غرائزه، وملكاته، وميوله، ما هي إلا أسباب الخير له وفيه.. بل هي نعم كبرى عليه، ومن أهم أسباب حفظ وجوده، وبناء حياته.. إذا أحسن الاستفادة منها، ولم يستعملها في غير السبيل الصحيح..

فإذا أعطاك طبيبك دواءً، وأسأت استعماله، وجلب لك الضرر، فذلك ليس ذنب الدواء، ولا هو ذنب الطبيب، بل الطبيب ناصح متفضّل، والدواء نافع ولازم. والمذنب هو من أساء استعماله. ولم يدر لنصائح الطبيب باله..

المرأة، التي تحمل بدورها خصائص تتشارك، فيتشاركان في أمشاجية مؤثرة، في صنع خصائص الكيان الإنساني، لأن الأمشاجية هي تصرف يوقظ مقتضيات الغرائز، وتتبلور من خلاله الحالات النفسية والروحية، والصفات المختلفة للإنسان..

فالتنشئة تحصل في خضم صراع الخصوصيات. وهي لا توجب سلب الاختيار، وإنما هي توجب تأكيده. ولذا قال تعالى: **﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾**..

وإنما قلنا: لا يصح الاختبار إلا للمختار، لأن الإنسان يتنامى بصورة تدريجية، وفي هذه النشأة تستيقظ غرائزه التي أنعم الله عليه بها لتقوم بها حياته، كغريزة حب التملك، وحب الذات، والغريزة الجنسية وغير ذلك، وتنمو قواه الجسدية، وتصير لديه حالات، وصفات مختلفة، كالخوف والكرم والشجاعة والجبن، وما إلى ذلك..

وتحصل صراعات، وتتصادم خصوصيات الأفراد فيما بينها داخلياً، ثم مع خصوصيات الجماعات. ويحتاج إلى الهدايات لتحدد له كيف ومتى يتحتم عليه التنازل عن الخصوصية الفردية لصالح القواسم المشتركة فيما بينه وبين الآخرين، ليكون المحور هو الله، وليكون الذي يتحرك في الحياة هو الإنسان الإلهي لا الفرد، المحكوم بالأنا، وبغير ذلك من الغرائز. فيمنّ الله عليه بما يحتاجه من هدايات، ويكون له الخيار والاختيار بين الكفر أو الشكر، ويكون عليه أن يحسن الاختيار لمكونات شخصيته الإنسانية، فيختار أن يكون شجاعاً لا بخيلاً، وأن يكون ودوداً لا حسوداً، من خلال الهداية الإلهية في تحديد موارد الإقدام والإحجام التي تستند إلى نظرة واقعية إلهية عميقة ومؤثرة..

فإذا وقع في المحذور، واستخدم غرائزه بالطريقة الخاطئة، فإنها

ستكون مفسدة لحياته، فغريزة الجنس الضرورية لحياته، ليس له أن يمارسها بالطريقة المحرّمة ـ كالزنى مثلاً ـ وغريزة حب الذات، ضرورية لاندفاع الإنسان لنيل الكمالات، فإذا تجاوز الأمر ذلك، فأصبحت الذات معبوده وإلهه، كانت الآثار سلبية ومدمرة..

فهي كالدواء الذي يُفرط الإنسان في تناول جرعاته، فإنه بدل أن يكون نافعاً، سيكون ضاراً، بل مهلكاً له أحياناً.

هذا كله بالنسبة للخصوصيات التي تحدّث عنها في قوله: نطفة أمشاج.

وأمّا الخصوصيات الموروثة، التي لها ارتباط بالروح والنفس، أو التي يكتسبها بالتربية، أو بالتعامل الاجتماعي، فهي، وإن كانت تجعله أميل إلى هذا الجانب أو ذاك.. ولكنها لا تبرر انسياقه مع ميوله، إذ إنه لا يفقد معها عامل الاختيار والإرادة، ولا تبرؤه من مسؤولياته الوجدانية والعقلية، والشرعية أيضاً، وتفرض عليه أن يقوم بمهمة إزالة التلوثات التي لحقت بمرآة نفسه، وإعادة الرونق والصفاء لها، وليكون ذلك من أسباب كماله، ومن أسباب نيله للمزايا، ورفع درجته، وزيادة كرامته وسؤدده، وليصبح من ثم من عباده المكرمين، المخلصين.

وسوف يجد أن ما يملكه من مزايا وهبات وملكات، سيكون له دور في ترميم، وتقوية المزايا الأخرى، ليصل من ثم إلى حالة التوازن والاعتدال.

ولو أنه أهمل ذلك، فإنه لن يكون معذوراً في التعدي على الحرمات، لأن مجرد ميله إليها لا يجعله مجبراً على الارتطام بها..

ولو أنه فعل ذلك، فإنه سيواجه آثار المعاصي في الدنيا وفي

الآخرة، بما في ذلك آثارها على النفس والروح، والقلب، والفكر، والحياة كلها، وقد أشارت الروايات إلى أن بعض المعاصي يوجب القسوة في القلب، وبعضها يوجب الزيغ، وبعضها يوجب ذهاب حب أهل البيت [عليهم السلام].. وغير ذلك.

والتكليف الإلهي أيضاً هداية ونعمة، ولكنه في نفس الوقت ابتلاء له أثره في تكامل الإنسان.. وفي ترشيد وتوجيه طموحه، وهو حركة، وغنى، ونماء، وصفاء، إذ ليس الإنسان بمثابة لوحة فنية معلقة على جدار.. بل هو مخلوق له.. قلب، وحياة، وإرادة واختيار، وهي معه تعمل وتؤثر حتى آخر لحظة من حياته.. وكم رأينا من إنسان ينحرف بعد عشرات السنين من الاستقامة، أو يستقيم ويهتدي بعد عشرات السنين من الانحراف، وكلاهما بقرار واختيار.

«فَجَعَلْنَاهُ»:

إن هناك فرقاً بين كلمة: «**جعل**»، وكلمة: «**خلق**»، إذ إننا إذا تتبعنا الآيات القرآنية، فسنرى: أن كلمة «**خَلَقَ**» مثلاً ترد أحياناً على نفس الشيء مباشرة، فيقال: خلق السماء، وخلق الأرض مثلاً.. ثم إنه وبعد ورود الخلق عليه يصبح محوراً لأمور أخرى، تضاف إليه، أو تنشأ منه، أو تحل فيه وتطرأ عليه، وترد أحياناً أخرى لبيان عروض الهيئات والحالات على الأمر الموجود..

أما كلمة «**جَعَلَ**» فتتعلق أولاً بالأمر الطارئ على أمر آخر، كالسميعية والبصيرية الطارئة على الإنسان، بعد أن تفرضه كمحور ثابت ومرتكز. فكلمة «**جَعَلَ**» تضيف إلى هذا المرتكز أمراً آخر، أو تحوله من حالة إلى حالة أخرى، أو توجد فيه حالة ما، أو نحو ذلك..

ونجد لهذا و ذاك، شواهد في الآيات المباركة..

فأما بالنسبة لكلمة «جَعَلَ»، فلاحظ الآيات التالية:

١ـ ﴿جَعَلَ منْهُمُ الْقرَدَةَ والْخَنَازيرَ﴾[١].

٢ـ ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفْئدةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

٣ـ ﴿هُوَ الَّذي مَدَّ الأرْض وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسيَ وأنْهَاراً﴾[٣].

٤ـ ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَره غشَاوَةً﴾[٤].

٥ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْن * ولسَاناً وَشَفَتَيْن﴾[٥].

٦ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ منْ سُلاَلَة منْ مَاء مَهين﴾[٦].

٧ـ ﴿ولَوْ شَاء الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً﴾[٧].

وغير ذلك كثير..

وأما بالنسبة لكلمة «خَلَقَ» فلاحظ الآيات التالية:

١ـ ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ منْ تُرَاب ثُمَّ منْ نُطْفَة ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾[٨].

---

(١) سورة الانعام الآية ٩٦.

(٢) سورة النحل الآية ٧٨.

(٣) سورة الرعد الآية ٣٠.

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣.

(٥) سورة البلد الآيتان ٩/٨.

(٦) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٧) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٨) سورة فاطر الآية ١١.

٢ـ ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾[1].

٣ـ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾[2].

٤ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.

كما أن الجعل قد أطلق على التوليد لشيء من شيء، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾.

وأطلق على التحويل من شيء إلى شيء كقوله: ﴿جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾..

وأطلق على تشكيل الشيء نفسه، وإعطائه صورته، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾.. وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾..

وأطلق على إضافة خصوصية لشيء ما، كقوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً..﴾[3].

وقد جاء التعبير بجعلناه بصيغة جمع المتكلمين في إشارة إلى مقام العزة والعظمة الإلهية من جهة، وليعرفنا: أن تضافر الأسباب وتكاملها وفقاً للسنن الإلهية الجارية، لا يعني أن يصبح الإنسان سميعاً بصيراً استناداً إلى تلك الأسباب وحسب، بل دور تلك الأسباب هو أن تؤهله ليصبح محلاً وقابلاً للفيض الإلهي. فالله هو الذي يجعله كذلك، بعد اكتمال أسبابه، مع قدرته على حجب الفيض عنه، حتى مع اكتمال تلك الأسباب..

---

(١) سورة المرسلات الآية ٢١.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٤.

(٣) سورة مريم الآيتان ٣٠/٣١.

فالابتلاء المصاحب للتكليف والمسؤولية يجعل الإنسان مستعداً لإفاضة المزيد من الإدراك، والفهم، والوعي، والسميعية والبصيرية عليه. ولذا قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ ولم يقل: فيصير سميعاً بصيراً.

تقديم كلمة سميع على بصير:

وبالمراجعة إلى الآيات القرآنية يتضح: أن ديدن القرآن قد جرى على تقديم السمع والسميعية على البصر والبصيرية..

فلعل من أسباب ذلك:

أن درجات الإحساس بالأشياء تختلف وتتفاوت، باختلاف صاحب الحاسة، وباختلاف الحاسة نفسها، وباختلاف المحسوس أيضاً، نوعاً، وكماً، وكيفاً.

ولتوضيح ذلك نقول:

إن الإبصار يتم بارتسام صورة لشيء مّا، ثم يتم إرسال هذه الصورة إلى القوة المدركة، لتمييز ألوانها، وأشكالها، وأحجامها، ونحو ذلك..

أما السمع، فهو يحصل بصورة أكثر تعقيداً، وذلك لأن احتكاك المسموعات يحدث ارتجاجات، يصل مداها إلى قوى الإدراك التي تقوم بالتمييز بين حالات ومستويات وميزات ذلك الصوت، الذي نشأ عن ذلك الاحتكاك من خلال ملاحظة حالات وخصوصيات تلك الارتجاجات..

فإذا كان البصر يعكس صورة، ثم تتلقفها قوة الإدراك، وتضعها على المشرحة، وتميز بين حالاتها، وألوانها، وأشكالها..

فإن السمع ليس كذلك، بل إن الصوت يصل أولاً إلى مناطق الإحساس، ويتفاعل معها، وتتفاعل معه.. ويثيرها، ويؤثر فيها.. ثم تتلقفها

قوى الإدراك والتميز عن هذا الطريق. وتتولى هذه القوة بيان الحدود والحالات والخصوصيات التي تميز ذلك الصوت، عما عداه، ويدرك كثيراً من الأمور المرتبطة بذلك الصوت فيدرك آثاره، ويدرك أيضاً أن ما يسمعه هو صوت طفل، أو صوت رجل، أو امرأة، وأن صاحب هذا الصوت خائف، أو مستبشر، وأنه قريب أو بعيد، وأنه في هوة بعيدة، أو على رأس جبل.. وأن مصدره هو هذه الجهة أو تلك..

كما أن بعض الأصوات حتى حينما تكون على درجة من الخفوت، قد لايستطيع الإنسان أن يتحملها، ويشعر: أن قلبه يتقطع بسببها، بل قد تصل حاله ـ لو استمرت ـ إلى درجة الانهيار.. كما أن بعض الأصوات تستفزه بصورة لا شعورية، أو تؤثر على مشاعره، فيتمايل طرباً لها، وقد يقوم بحركات لا شعورية، انسياقاً مع أنغامها المثيرة للطرب، والمحركة لأحاسيسه. وقد توجب تلك الأصوات كآبته، أو خوفه، أو الانبساط والتراخي، والاستسلام، إلى آخر ما هناك..

والصوت الذي تسمعه إذا كان آتياً من بعيد، فإنه يتلاشى بصورة حقيقية. لكن ما تبصره في المبصرات لا يتلاشى.. حتى وإن رأيته صغير الحجم كالطائرة التي تراها وهي في علوها الشاهق..

والبصر قد يقرِّب لك البعيد، ويبعِّد لك القريب، ويريك الكبير صغيراً، والصغير كبيراً.. كما أن هذا البصر قد يخطىء في المبصرات، بخلاف السمع، فإنه أكثر دقة في إدراكه للمسموعات.. شاهدنا على ذلك:

أنك لو وضعت عصا نصفها في الماء، ونصفها في خارجه، فسترى أنها عوجاء، كالمكسورة. كما أنك قد تجد أنها مرتفعة عن المستوى الذي يفترض أن تكون فيه..

وإذا نظرت إلى حيوانات البحر، كالسمك مثلاً، فإنك ترى السمكة في مكان، مع أنها في واقع الأمر ليست فيه.. فهي تبدو قريبة إلى سطح الماء مع أنها بعيدة عنه..

وفي حر الشمس ترى السراب الذي يبدو لك، وكأنه مستنقع ماء، حتى إنك لترى ظلال الأشجار وغيرها من الأجسام في ذلك السراب..

وأما فيما يرتبط باختلاف درجات الإحساس من شخص لآخر.. فنوضحه بالمثالين التاليين:

الأول: لو دخل رجلان، أحدهما مرهف الحس، يرسم بريشته أبدع الصور وأجملها، والآخر إنسان عادي، إلى حديقة غناء، من أجمل ما خلق الله.. فستجد اختلافاً كبيراً في تلذذهما بتلك الحديقة، تبعاً لما يدركانه من جمالياتها، فإن الفنان سيكون أعرف بجمالياتها، وأشد ابتهاجاً بها، لأنه يدرك بصورة أعمق حالات التناسق، ودقائق الصنع، وبدائع التراكيب ذات الإيحاء التي تلامس شغاف القلب، وتغمر النفس والروح بالرضى والبهجة، وسيدرك الكثير من ميزات تلك الصورة العامة التي تتماوج جمالاً بارعاً، وأخاذاً، ورائعاً..

ولنفترض: أن طفلاً تردى من شاهق أمام عيني أمه، وعمه، ورجل غريب، ورجل جلاد يتولى تعذيب الأبرياء من السجناء في حكومة أهل الطغيان..

فإن الصورة الذهنية لما يعانيه هذا الطفل واحدة عند كل هؤلاء. ولكن مما لا ريب فيه: أن انفعالهم، وتحسسهم لما يعانيه ذلك الطفل من آلام، لن يكون في مستوى واحد.. بل سيكون إحساس الأم بالألم أعظم من إحساس العم، وإحساس العم به سيكون أشد من إحساس الرجل

الغريب.. وسيكون أقلهم إحساساً بآلامه ذلك الجلاد القاسي.

وببيان آخر نقول:

إن المحسوس قد يكون هو نفسه في داخل ذاتك، كالألم، والجوع، والفرح، والخوف، والحزن، والعطش وغير ذلك..

وقد يكون في غيرك، كمريض تراه، وتسمع أنينه وشكواه.. فلا شك في أن علمك وإحساسك بالألم الموجود في داخلك أعمق وأقوى من علمك وإحساسك بألم غيرك، وأنت تراه يتألم..

وإحساسك بألم من هو أمامك قد يكون أعمق، وأقوى من إحساسك بألم رجل غائب عنك، وينقل لك خبره، كما أن علمنا بالآخرة الغائبة عنا فعلاً، يكون أضعف من علم الأنبياء والأوصياء بها.. حتى إن أمير المؤمنين [عليه السلام] يقول: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً.

وقد أشار الله إلى أننا لا نعلم حقيقة الآخرة فقال: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[1]..

وحين تتساقط الحجب المانعة من الإدراك، ويصبح النظر حديداً. كما قال تعالى: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[2].. يصبح الإدراك أشد والتفاعل مع المدركَات أعمق..

والمعاصي أيضاً تحجب الإنسان عن فهم معاني القرآن الكريم، والتكبر والغرور يقللان من مستوى إدراك الواقع، والإحساس به.

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦٤.

(٢) سورة ق الآية ٢٢.

«سَمِيعاً بَصِيراً»، بصيغة المبالغة:

وسبب التعبير بـ ﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾ هو:

١ـ إن الهدايات الإلهية تحتاج إلى السميعية، والبصيرية العميقتين، ولا يكفي فيها مجرد السمع والبصر..

وعلى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾[2].

وقال: ﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾[3].

وسبب ذلك أن هناك آيات ومعجزات وكرامات تحتاج إلى إدراك عميق، وإلى ضمير حي، ووجدان طاهر، يستطيع أن يحول تلك الإدراكات إلى محفزات وبواعث، توقظ الفطرة، وتجعلها تتفاعل وتنشدّ إليها، وتلتذ وتسعد بها.

ولأجل ذلك نلاحظ أن الخطاب الإلهي المرتبط بالأمور العقائدية، كالتوحيد مثلاً، يحول الأمر العقائدي إلى أمر واقعي، وحياتي تنشد إليه الفطرة، وتستعيده كقوة محركة في داخل وجودها..

وبما أن الهدايات كلها، ومنها العقلية والتشريعية، لا بد أن تنتهي إلى

---

(١) سورة الملك الآية ١٠.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

(٣) سورة البقرة الآية ٧.

الهداية الفطرية، فإنه تعالى لم يتحدث للإنسان عن التوحيد مثلاً، وعن صفات الله، وعن الآخرة، وعن.. وعن.. بالطريقة الفلسفية أو النظرية المجردة، فلم يستدل له بالدور أو التسلسل، أو بغير ذلك من مصطلحات.

بل اتخذ في حديثه عن الآخرة أسلوب: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[2].

ومن الواضح: أن الليل والنهار، والماء، والزرع، والنار، ونحو ذلك هي من صميم حياة الإنسان ـ ولها ارتباط مباشر ترتبط بحركته، ونشاطه، وعمله، ونومه، وراحته، وأكله وشربه، ونحو ذلك..

وحتى حين قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[3] فإنه

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٣ / ٧٢.

(٢) سورة القصص الآيتان ٧١ / ٧٢.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢.

إنما أثار أمام الإنسان موضوع الفساد الذي يخشاه «الإنسان».

وقال تعالى أيضاً، فيما يرتبط بالتوحيد: ﴿وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجاً لتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذَلكَ لآيَات لقَوْم يَتَفَكَّرُونَ * وَمنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَوَات وَالأَرْض وَاخْتلاَفُ أَلْسنَتكُمْ وَأَلْوَانكُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَات للْعَالمينَ * وَمنْ آيَاته مَنَامُكُمْ بِاللَّيْل وَالنَّهَار وَابْتغَاؤُكُمْ منْ فَضْله إنَّ في ذَلكَ لآيَات لقَوْم يَسْمَعُونَ * وَمنْ آيَاته يُريكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ منَ السَّمَاء مَاءً فَيُحْيي به الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتهَا إنَّ في ذَلكَ لآيَات لقَوْم يَعْقلُونَ﴾[1].

وقال: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى الإبل كَيْفَ خُلقَتْ﴾[2].

وقال: ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لتَسْكُنُوا فيه وَالنَّهَارَ مُبْصراً﴾[3].

فهو تعالى يقدم لنا التوحيد على أساس أن نومنا وأكلنا وشربنا وكل مفردات حياتنا وسعادتنا، مرتبط به.

وهذا هو الأسلوب الذي يفهمه البشر كلهم، ويريد الله من خلاله أن يستدرجهم إلى الهدى جميعاً.

أما الأسلوب الفلسفي، أو أي أسلوب آخر، فهو خاص بفئة من الناس، لا يصلح لأن يخاطب به جميع الناس.

تماماً كما هو الحال في قضية «عاشوراء»، فإنها مفهومة للبشر جميعاً، لكن صلح الإمام الحسن [عليه السلام] إنما يفهمه فريق من

---

(١) سورة الروم الآيات ٢١/٢٤.

(٢) سورة الغاشية الآية ١٧.

(٣) سورة يونس الآية ٦٧.

الناس، وذلك بسبب تدني مستوى الوعي والمعرفة من جهة، ولأن كثيراً من الحقائق قد طمست، أو أثيرت حولها الشبهات من قبل الطغاة، والظالمين، وأهل الأهواء، من جهة أخرى..

وإذا كانت المعرفة متمازجة مع فطرة الإنسان، ومتجذرة في عمق ضميره ووجدانه، وليست مجرد معادلة عقلية، أو تصورات ذهنية، فسيكون لها التأثير العميق في كيان الإنسان، تماماً كتلك المعرفة بالله، التي تشعر بها الأم بعد استجابة دعائها بشفاء ولدها، ونجاته من موت محتم، فإن هذه المعرفة تغنيها عن كل دليل فلسفي أو غيره، بل إن الفيلسوف قد لا يشعر بعظمة الله مثلما تشعر بها تلك المرأة، وإنما يكون إيمان الفيلسوف مجرد استسلام للدليل القاهر لعقله، من دون أن يكون أي تفاعل مع وجدانه وفطرته.

فدليله بمثابة الآيات المعجزة التي تقهر العقل، أما انسجامه مع الله وفناؤه فيه، فله سبل ووسائل أخرى.

٢ــ لعل من أسباب اختيار صيغة المبالغة، وهي سميع وبصير أيضاً، أن البصر إنما يوصل إلى الإنسان الأشكال والألوان والأحجام؛ ويمكّنه أيضاً من إدراك جزئي لبعض المسافات.. ولكنه يحتاج لكي يكون بصيراً إلى قوة وحدّة في البصر، تمكنه من إدراك دقائق وخفايا قد يعجز عنها البصر العادي. فما يدركه من خلال حدّة البصر، هو أمور أخرى تضاف إلى ما كان قد أدركه أولاً..

أما السمع.. فإن أصل حصول السمع يحتاج إلى حاسة السمع، ثم ينعدم المسموع بمجرد حصوله.. ثم ينتقل منه إلى حصة وجودية أخرى، فيدركها السمع أيضاً، ثم تتلاشى لتأتي حصة أخرى بعدها، وهكذا..

فإذا دق الصوت وخفت، فقد يدركه السمع الرهيف القوي، وقد يعجز عن إدراكه فيتلاشى لتأتي حصة أخرى مماثلة يكون لها نفس الحالة..

فالسمع والمسموع متحدان في الوجود، وفي التلاشي. والاختلاف بينهما إنما هو في طرف النسبة، وليس الأمر كذلك في المبصرات دقت أو جلت، فإن المبصرات تبقى موجودة، سواء نالتها الأبصار، أم عجزت عن نيلها..

والسميعية تبقى هي الأهم، والأولى بالملاحقة، لأن فوات السمع مساوق لفوات المسموع، لأن الصوت يتلاشى بصورة تدريجية كما قلنا..

٣ـ ومن جهة أخرى: فإن المسموع إذا علمنا بوجوده عن غير طريق السمع، فإنما نعلم به ـ إذا لم يكن هناك إخبار غيبي ـ بعد انقضائه وتلاشيه.. أما المبصرات، فيمكن أن نعلم بوجودها مع بقائها. فيكون وجودها سابقاً على علمنا، ومصاحباً ومرافقاً له، وباقياً بعده..

حاسة السمع هي الأسبق:

وعن حاسة السمع نفسها نقول: إن ثمة حديثاً بين أهل الاختصاص عن أن حاسة السمع هي الأسبق ظهوراً ونشاطاً عند الجنين، وهي آخر الحواس موتاً في الإنسان.

وهناك من يسعى إلى تأكيد ذلك، بما ثبت عن النبي [صلى الله عليه وآله]، من أنه قد خاطب قتلى بدر، وهم في البئر. كما أن الإمام علياً [عليه السلام] قد خاطب بعض القتلى في حرب الجمل، وقد أخبرا صلوات الله وسلامه عليهما وعلى آلهما: أن أولئك المخاطبين قد سمعوا ووعوا ذلك الخطاب، ولكنهم لا يقدرون على الجواب.

وورد في الشرع استحباب تلقين الميت معتقداته بعد موته، وأن الملائكة الذين يأتون لسؤال الميت عن ذلك يعودون من حيث أتوا، حيث يرون أن الميت قد لقن حجته، وأصبح قادراً على الإجابة الصحيحة.

ولكن قد يقال: إن هذا إما جار على سبيل الإعجاز، كما فيما جرى للنبي [صلى الله عليه وآله] وللإمام علي [عليه السلام]، أو هو نشأة خاصة بالنشأة الأخرى، أو أن الكلام إنما هو مع الروح، وليس لحاسة السمع لدى الميت دور في ذلك، كما في المثالين الأخيرين.

سامع أم سميع؟:

ولأنه لا يكفي في الهداية بواسطة الأنبياء مجرد وجود سمع وبصر، بل تحتاج إلى سميعية وبصيرية، فقد أراد أن يبين مدى وحدود فعالية حاستي السمع والبصر، من حيث إن الابتلاء قد أنتج شدة رهافة في السمع، وحدة في البصر، بسبب حالة من الاحتكاك والصراع بين متطلبات الجسد، ومتطلبات الفطرة الإنسانية، التي تنشد الحصول على كمالاتها، وقد نشأ ذلك عن تلك الأمشاجية، بما فيها من مزايا روحية ونفسية، وملكات، هي مبادئ للإدراك، ثم الاختيار والإرادة، التي هي مبدأ صدور الأفعال من الإنسان..

وحتى في الاستعمالات العرفية، فإنه فرق بين قولك: بصرت الشيء أو بصرت به، بمعنى وقع نظرك عليه، وبين قولك: أنا بصير بالشيء، أي خبير به، أي عارف بخفاياه وأسراره، سواء أكانت خبرتك أتت عن طريق البصر، أم السمع، أم القراءة، أم اللمس، أم الوحي، أم غير ذلك. فكلمة بصير عندهم كناية عن عمق الخبرة بالشيء. ولأجل ذلك لم يكف قوله: «**سامعاً مبصراً**»، عن قوله: «**سميعاً بصيراً**»..

نظرة إجمالية لمسار الخطاب في الآيات:

قد يغفل الإنسان عن أمور لا ينبغي له أن يغفل عنها، فتذكيره بها يكون إحساناً إليه ومساعدة له..

وقد يجهل الإنسان بأمور يكون علمه بها ضرورياً، فيحتاج إلى أن يتعلمها..

وقد يكون عالماً بالأمور، لكنه يتعامل معها معاملة الجاهل أو الغافل، لأسباب يرى أنها تبرر له ذلك، فيحتاج إلى من يناقشه في تلك الأسباب، ويوقفه على عدم قدرتها على تبرير موقفه هذا..

ويكون من يتصدى لذلك قد أسدى إليه خدمة جليلة، لأنه يكون قد ثبته على ما في ثباته عليه مصلحة له، أو جنّبه الآثار والأوضاع السلبية، التي يجب أن يتخلص منها، سواء في ذلك منها ما له أثر سلبي على روحه، أم على فكره، أم على أي شأن من شؤون حياته..

ومن الواضح: أن الأحوال النفسية، والروحية، والحياة الاجتماعية، والقدرات والإمكانات في مختلف المواقع والمواضع، لا تطلب لنفسها، وإنما تطلب لأجل دورها، وآثارها في الأعمال والمواقف.

والمواقف والأعمال أيضاً لا تطلب لذاتها، بل تطلب لغاياتها الشريفة والفاضلة، وهي الوصول إلى الله سبحانه، والحصول على مواقع القرب والزلفى لديه. وتحقيق ما يرضيه، وتجنب ما يسخطه..

والعلم بالله سبحانه له قيمة حقيقية كافية فيه وفي نفس حصوله، لكن العلم بغير الله، فإن قيمته ليست في بداياته، وفي نفس حصوله لدى العالم، وإنما هي في نهاياته، وغاياته..

وإذا نظرنا إلى قضية الإيمان والكفر، فسنجد أنهما تعبير آخر عن

العلم بالمعنى المشار إليه.. فالكفر يمثل حالة الجهل المركب، المعتضد بالاستكبار والعناد.. وأخرى يكون غفلة واحتجاباً حقيقياً، وابتعاداً وغربة عن الحق..

أو أن الكفر هو حالة من التمرد والتعدي على مقام العزة الإلهية، وأخذ موقعه، واستبدال الحق الصادر عنه بباطل يفسد الحياة، ثم السعي لوأد ذلك الحق، أو لا أقل إلى إبعاده عن ساحة العمل والتداول، وعدم الاعتراف به، حتى مع رؤيته له.. كما قال الله تعالى: **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾**[1]..

فإن من الواضح: أن هذا الاحتجاب هو العمق الواقعي لكلمة الكفر. فالزارع كافر، لأنه يحجب البذر بالتراب، ويغطيه به. والليل كافر، لأنه يحجب الأشياء عن أن ينالها النظر..

أما الإيمان، فهو يمثل حالة الوعي واليقظة، والتزام الحق، والسكون إليه..

وحين يتحدث الله سبحانه عن خلق الإنسان من نطفة أمشاج، فإنما يريد أن يعالج حالة الغفلة التي تعيشها هذه النفس الإنسانية، المؤمنة والكافرة على حد سواء..

فأما الكافرة التي احتجبت عمداً أو غفلة وجهلاً عن الحق، أو حجبت الحق عن الحضور في مواقع الحركة في الحياة، فيحاول دفعها إلى إزالة ذلك الحجاب، للخروج عن حالة التحدي للسنن الإلهية، والتمرد على إرادة الله، والسعي لإفساد الحياة، والعبث بنواميسها..

---

(١) سورة النمل الآية ١٤.

وأما النفس المؤمنة المطمئنة التي تعيش السلام بكل معانيه، فيريد أن يزيدها يقظة، وحصانة، واندفاعاً، وتوثباً نحو العمل الجاد للرقي في مدارج الكمال، ونيل المعارف، والحصول على التوفيقات، والهدايات، والألطاف الإلهية، في كل موقع تكون فيه، للتحرك منه إلى مواقع تطمح لأن تصل إليها..

فهذا الخطاب الإلهي للمؤمن وللكافر، هو خطاب تربوي تدبيري، تعليمي، يهدف إلى فتح قلب الكافر ليستقبل إشراقة النور، ثم إلى تثبيت المؤمن، وتقويته، ليزداد إيماناً، ويقيناً، وإبعاده عن مواقع الخطر، وتحصينه في مواجهة كل التحديات الشيطانية.

على أن من الواضح: أن العلم وحده لن يكون كافياً لتحقيق الهداية، بل هو قد يكون سبباً في الضلال، والإضلال.. كذلك الذي ﴿أَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[1].. ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾[2]..

وذلك لأن الشيطان يأتيه عن طريق هذا العلم بالذات، فيضخم له نفسه، ويخرجه من حالة التوازن، ويدعوه إلى العجب، والزهو، والعلو، ويدفعه لأن يدعي ما ليس فيه، وما ليس له، ويتجاوز حدوده..

وإنما تمكن الشيطان منه، لأنه إنما أشغله ببدايات العلم، فبهرته أحجامه، وأقسامه، وطمس وعمّى عليه غاياته الكبرى والسامية والنبيلة.. كالذي يريد تفسير القرآن، فيشغل نفسه بعدُ حروفه، وكلماته.. وخصوصيات النغم الصوتي حين أداء الكلمات، ويغفل عن المعاني،

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٥.

وعن الأوامر والزواجر، وعن القيم والمثل والمآثر التي يدعوه إليها القرآن.. وعن الغايات التي يدفعه إليها..

وقد جاءت هذه الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان من نطفة أمشاج الخ... لإعادة هذا الإنسان إلى دائرة التوازن، وإلى حجمه الطبيعي، لكي يتأمل ويفكر، بعيداً عن أي خيلاء أو عجب مهلك، واستكبار مقيت..

وقد نصبت له الغايات والنهايات أمام عينيه، وجعلت الخيار والاختيار إليه.. وقالت له: هذه بدايتك، وهذه نشأتك، فلِمَ تستكبر[١]؟! ولِمَ تزهو؟ ولِمَ تطلب ما ليس لك بحق؟! وهل يجوز لَك أن تستكبر وتتمرد على مَن أعطاك القوة، وخلقك، ورباك، ونشأك؟! أليس ذلك يعد خروجاً عن مقتضيات فطرتك؟!..

ثم وجه إليه التهديد بعيداً عن حالة التحدي، والمواجهة، وإنما بصورة ترتيب النتائج على مقدماتها، بعد كشف الواقع أمامه، وإعادته إلى التوازن، وإرجاعه إلى حجمه الطبيعي، وتنفيس الانتفاخات الكاذبة التي كان يرى نفسه فيها، من خلال إدخاله في حسابات دقيقة، وتفاصيل لابد له من وعيها، مع تعريفه بأن هذه المراحل ليس له هو أي تدخل فيها، ولم يبذل فيها أي جهد.

ولأجل ذلك، فإنه يصبح بإمكانه أن يفهم بعمق معنى قوله له: إنه إن أساء الاختيار، فله السلاسل، والأغلال، والسعير.. وبشّره، إن أحسن الاختيار، بما يبشر به المؤمنون الأخيار، والمتقون الأبرار..

وفي سياق هذه الآيات المباركة، نلاحظ: أن الله سبحانه قد أغرى

---

(١) الاستكبار هو أن يطلب أن يكون كبيراً، مع أنه فاقد لذلك في الواقع.

هذا الإنسان بالرجوع إلى ربه، وإنشاء العلاقة معه، حيث عُرفه بأنه لم يزل يرعاه، ويهتم به في كل لحظة وآن.. وأنه هو الذي يربيه وينميه، وينشؤه.. ويتفضل عليه بالنعم، من دون أن يقهره على شيء، بل هو يعطيه كل القدرات وكل الإمكانات، ثم يعطيه حق الاختيار، ويمكّنه من أن يتصرف في كل شيء، وأن يحدد موقفه وموقعه.. حتى لو كان ما يختاره يتعارض مع ما يريده الله منه، وما يدعوه إليه..

وتلمس في هذه الآيات المباركة كيف أنه تعالى لا يبادر إلى التهديد والوعيد، في أسلوب قمعي، قاس، وصاعق.. بل هو يمهد إلى إخراج الإنسان من جهله وغفلته، واستكباره، وعجبه، وكفره، وضلاله، وانحرافه، بأسلوب رضي عطوف، يهيؤه لتلمس واقعه بنفسه، ممسكاً بيده برأفة، وبلطف، وعطف، مذكراً إياه بمحبة الله ورعايته له، مثيراً كوامن وجدانه، وبريء مشاعره وأحاسيسه، وصافي فطرته، بصورة السؤال، لا بصورة الخبر المفروض: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾..

وآيات السؤال عن الخلق وكيفياته كثيرة:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾؟!

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾[1]؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾[2]؟!

ألم.. ألم..

---

(١) سورة القيامة الآية ٣٧.

(٢) سورة البلد الآيتان ٩/٨.

فلمــاذا الصــدود منــه إذن؟ ولمــاذا الاســتكبار؟!.. ولمــاذا الكفــر؟!.. ولماذا؟!.. ولماذا؟!..

ثم هو يترك الخيار له في أن يجعل نفسه مع أي فريـق شـاء.. فهـو الذي يختار ـ بعد هذا البيان ـ الاستكبار والعناد، فيكون كـافراً.. فيواجـه مصير الكافرين.. أو يختار الإيمان، فيكون من ومع المؤمنين..

ثم يعرض عن الخطاب مع هؤلاء لكـي تسـتمر الآيـات فـي بيـان أحوال أهل الإيمان، لأنهم هم الذي يجسدون الإنسانية الحقيقية.. مقـدماً لهم المثل والنموذج الأعلى للإنسانية، وهم أهل البيت [علـيهم السـلام]، ليكونوا لهم الأسوة والقدوة والمثال..

فيرغب الإنسان العاقل بالتأسي بهم. والسير على نهجهم..

وهذا ما سيتضح في تفسير الآيات التالية..

* * *

الفصل الثالث:

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}

قال تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾.

«إنـا»:

ويرد هنا سؤال، وهو:

لماذا قال تعالى: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ﴾** ولم يقل: **«فهديناه»**. أو **«ثم هديناه»**..

وقد يقال في الجواب:

إن سبب ذلك هو أن السميعية والبصيرية تعبير عن درجة عالية من الإدراك، يستطيع الإنسان من خلالها أن يبصر المعجزات، ويتفاعل معها، ويبصر ويسمع كل ما من شأنه أن يفتح باب هداية، سواء كان ذلك بالتعليم له، أم بالتدبر والتفكر في خلق الله، وربط المقدمات بالنتائج، والوسائل بالغايات والأهداف.

وذلك معناه: أن الهداية المذكورة هنا هي نتيجة تلك السميعية والبصيرية، التي نشأت عن الابتلاء، المستند إلى الأمشاجية في النطفة. فالمراد هنا كل ما يوجب الهداية، من شرع وعقل، وتفكر، وتدبر وما إلى ذلك، ولا ينحصر الأمر بالهداية التشريعية..

لكن قد يقال: إن ثمة فهماً آخر للآيات، وهو أنه تعالى قد ابتدأ كلامه بصورة الاستئناف في قوله: **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾** موازياً لقوله تعالى: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾**.. فلعله لكي يشير إلى

أن الهداية للإنسان قد بدأت مذ خلقه الله نطفة، حيث صاحب هذا الخلق له إعطاءه الحالات والميزات التي بدأ من خلالها مسيرته التكاملية، فهو خلق لوحظ فيه مضمون المخلوق، وحالاته، وأشكاله، وتفاصيله.. وروعيت أيضاً في كيفية خلقه، وأوضاعه، وكونه أمشاجاً، أن يكون أهلاً للابتلاء، ثم انتقل إلى الابتلاء الذي من شأنه أن ينقله إلى مراتب أعلى.. فأوصله ذلك إلى درجة السميعية والبصيرية..

فالهدايات إذن قد بدأت منذ نشأة الإنسان، فكانت له الهداية التكوينية، ثم الإلهامية، ثم الحسية، ثم الفطرية، ثم الغريزية، ثم العقلية، ثم التشريعية، وهذا معناه أنه لو قال: فهديناه السبيل، لكان المراد بالهداية هنا هي الهداية التشريعية، لكنه لما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ﴾.. عرف أن المراد: أن هدايته قد صاحبته منذ بداية خلقه..

غير أن التأمل الدقيق في هذين الفهمين لمسار الكلام في الآيات يعطي: أن كلاً من هذين السياقين متمم للآخر، وليس مختلفاً معه. فإن وجود الهدايات للإنسان منذ بدء تكوينه، لا يأبى عن كونه لا يزال محتاجاً إليها أيضاً حتى بعد حصوله على السميعية والبصيرية، وذلك ظاهر لا يخفى..

«هَدَيْنَاهُ»:

والهدايات التي أشرنا إليها آنفاً، هي التالية:

١ـ الهداية التكوينية، ونشوء الإنسان وفق السنن، ولا يتعلق غرضنا بالحديث عنها..

٢ـ الهداية الإلهامية، ومصدرها الله سبحانه.. من قبيل هداية الجنين إلى مص إصبعه، وهو في الرحم، ثم اندفاعه بعد ولادته لالتقام ثدي أمه.

٣ـ الهداية الفطرية ـ وتدخل فيها الغرائزية.. وهي تنبع من داخل الإنسان، من قبيل ميل الإنسان إلى العدل، والكمال، والعلم، والفقه، وحب الذات وغير ذلك من ميول طبيعية جبلِّية، نابعة من صميم الذات الإنسانية، بلا حوافز من خارج ذاته..

٤ـ هداية الحواس الظاهرة، فالسمع يهدي إلى الأصوات الرخيمة، والمنكرة. والبصر يهدي إلى الأشكال، والأجسام، والألوان. والذائقة تهدي إلى أصناف الطعوم، كالحلاوة، والمرارة، والملوحة، ونحو ذلك. والشامّة تهدي إلى الروائح الكريهة والطيبة. واللامسة تهدي إلى الخشونة والنعومة، والصلابة، والليونة، والحرارة والبرودة إلخ..

٥ـ هداية الحواس الباطنة، لمعان قائمة بالنفس، كالإحساس الوجداني بالخوف، والحزن، والفرح، والأمن، وما إلى ذلك.

أو هداية الحواس الباطنة لمعان قائمة في الذات ـ الجسد ـ كإدراك الجوع، والعطش، والألم، والتعب، والنشاط، والإحساس بثقل الأجسام وخفتها، وما إلى ذلك.

٦ـ الهداية العقلية: وهي تتمثل في قوة يمن الله بها على هذا الإنسان، تدرك له الكثير من المعاني التي لا تنال بالحس الظاهري ولا الباطني، وربما كانت هذه المعاني نتيجة للمدركات الحسية أحياناً، أو تكون المدركات الحسية طريقاً إليها.. وقد تخرج عن هذا وذاك كما سيتضح.

هذه المعاني يحتاج إليها الإنسان في مسيرته الحياتية، وفي بنائها على أسس صحيحة وسليمة.

وهي معان تفيد في تأسيس قواعد ومنطلقات، وفي وضع ضوابط

ورسم حدود لا مجال لتجاوزها.. وهذه الصور العقلية هي الأرقى والأتـم في سلسلة الصور الوجودية التي يتعامل معها الإنسان..

بيان ذلك: أن الصور العينية الخارجية لها حظ من الوجود، ثم تـأتي الحواس لتأخذ عنها صوراً حسية..

ثم يترقى مستوى الإدراك إلـى حـد إدراك أحـوال المحسوسـات، وربما يتصرف في الصور أيضاً، فيدرك أن هذا أكبر مـن ذاك، أو أطـول، أو يؤلف من خلالها صوراً تشتمل على عناصر مؤتلفة، فيتخيـل المدينـة الفلانية التي لم يرها، من خلال صور ما رآه بالفعل.

ثم هذا القسم والذي سبقه هـو عبـارة عـن صـور حسـية وخياليـة للأعيان الخارجية، لكن صورها تكون في الذهن، سواء أكانـت الصـورة لنفس الشيء، أم لحالة من حالاته..

وهناك قسم ثالث: أرقى من القسـمين السـابقين، وهـو إدراك معـان جزئية، ليس لها منطبـق خـارجي محسـوس بـالحواس الخمـس.. لكنـهُ موجود حقيقي يدرك بآثاره، وذلـك كـإدراك حـب أبويـه لـه، وخـوف الخائف، وحزن الحزين..

وهناك معانٍ كلية ليس لها موطن إلا الذهن، وليست صوراً للأعيـان الخارجية، ولا هيَ من قبيل التصرف في صـور المحسوسـات، ولا هـي معانٍ جزئية. **وهي على قسمين:**

أحدهما: معانٍ كلية ذهنية، محضـة، مثـل مفهـوم الكلـي والجزئـي، والجنس، والفصل.

الثاني: معانٍ كلية موطنها الذهن، وظـرف وجودهـا الخـارج، مثـل: الصغير والكبير، والحسن والقبح.. والوحدة والكثـرة، والوجـود والعـدم.

والعدل والظلم. فكأن لها قدماً في الذهن، وقدماً في الخارج..

وكل تلك الدلالات إنما تنطلق من داخل الإنسان..

٧ـ الهداية الشرعية، وهي لا تأتي الإنسان من داخله ـ كما هو الحال في الهدايات السابقة ـ بل تأتيه من خارج، لتأخذ بيده إلى حيث لا يجد العقل، ولا غيره من وسائل الهداية الداخلية سبيلاً للوصول إليه، أو التعرف عليه.. ولتصوب له ما اشتبه الأمر فيه، بسبب حيلولة الغرائز والشهوات، حتى ظن الحق باطلاً والباطل حقاً، وظن السراب ماءً، فلما جاءه لم يجده شيئاً..

وبعد هذا التوضيح نقول:

إن كل ما يوصل إلى الغرض، فهو هداية إليه، سواء أكان بالقول أم بالعمل، شرط أن يكون للواصل درجة من المشاركة في ذلك. وبذلك تكون الهدايات التكوينية، والإلهامية، والحسية، والعقلية، وما شابه؛ داخلة في ذلك..

وإذا كانت هذه الهدايات قد صاحبت الإنسان مذ كان نطفة، فإنه منذئذ يصبح مورداً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾.. وتستمر معه الهدايات، وهو يمر في مراحل الابتلاء، إلى أن يصبح سميعاً بصيراً، ثم يحتاج إلى هدايات جديدة تضاف إلى ما سبق، فتأتيه الهداية العقلية، ثم يحتاج إلى الهداية الشرعية.. فالله سبحانه قد هداه السبيل لحظة فلحظة، وآناً بعد آن.. وتمت عليه الحجة. وعليه هو أن يقرر، ويختار، فيكون ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾..

فالهداية للسبيل إذن لم تبدأ بعد السميعية والبصيرية.. وإلا، لكان المناسب أن يقول: ثم هديناه السبيل، أو فهديناه، بل بدأت منذ بداية خلقه، واستمرت معه..

ظاهرة الجحود والإيمان:

ونريد أن نشير هنا إلى أن الهداية التشريعية قد جاءت في سياق الهدايات الأخرى، لتؤكدها، ولتركز مضامينها، وتستجيب لمقتضياتها، فدورها ليس سوى الإرشاد والدلالة إلى ذلك، ولا شيء أكثر من هذا..

فمن لم تستيقظ فطرته، وتتعرف على مقتضياتها التي تسانخها، بل بقيت منفصلة عنها، بإملاءات الغرائز، والأهواء. والشوائب، والأغشية العازلة التي صنعتها المعاصي وغيرها، فإن سبيله الذي سيتخذه هو الجحود.. وسيجنّد العقل وكل ما يملكه في خدمة تلك الغرائز، فيمتثل أوامرها، ويلبي حاجاتها.. ويكون وسيلة دفاع عن كل انحرافاتها..

فإذا ما كُسرت شِرّته، بالمعجزة القاهرة، فإنه سيندحر ويأرز في حجره.. ولكنه يبقى بانتظار الأوامر التي تصدرها له تلك الغرائز والأهواء، لأنه قد فقد السميعية والبصيرية، وأصيبت فطرته بالضعف والضمور، وألمت بها عاهات ذهبت بقوتها، وأبطلت حركتها، أو ألمت بها تشوهات جعلت حركتها باتجاهات خاطئة، ومنحرفة.

وهذا ما يفسر لنا استجابة الإمام علي [عليه السلام]، وخديجة، وأبي طالب، وجعفر، وحمزة للهدايات الإلهية، من دون حاجة إلى رؤية المعجزة، بل بتلمس فطرتهم للحق والدين، وإدراكهم الوجداني لمزاياه، وإحساسهم العميق بانسجامه مع واقع الخلق والتكوين، وحقائق الوجود، ومع الفطرة الصحيحة.. مما يجعل من كل هذه المخلوقات منظومة واحدة، تسير باتجاه واحد، وفقاً للهداية الإلهية للخلق وللوجود بكل ما ومن فيه..

كما أن هذا يفسر لنا النهج القرآني، والبيان البرهاني، لأمور العقيدة

فيه، ثم هو يظهر صدقية وانسجام البيان النبوي والإمامي لشؤون الدين، وحقائق الإيمان من حيث إنها تخاطب الفطرة، والوجدان، والضمير، والعقل، وتفرض النظرة التأملية لحالات الواقع ومزاياه، للانسجام معه في كل حركة تعنيه، وفي كل اتجاه.

أما أبو جهل، وأبو سفيان، وكذلك فراعنة قريش الذين قتلهم بغيهم في بدر، وأحد، والأحزاب، وغيرها.. فقد كانوا يرون المعجزات والكرامات في أتم تجلياتها.. ولكنهم اتخذوا سبيل الجحود والعناد، ولم يسلم من أسلم منهم، ولكنه استسلم للأمر الواقع، وبقي يسبح في مستنقع آسن من الكيد والتآمر على الحق، وأهل الحق..

«السَّبِيلَ».. وليس الطريق!:

وأما لماذا قال تعالى: هديناه **«السَّبِيلَ»**، ولم يقل: **«الطريق»**.

فلعل سببه هو أن كلمة الطريق، إنما تدل على مجرد وجود موضع ممتد يسلكه الناس، وهو قد يكون واضحاً، وقد يكون خفياً، وقد يكون واسعاً، وقد يكون ضيقاً، أما السبيل فهو الطريق وما وضح منه[1].

فخصوصية الوضوح إذن مأخوذة في السبيل، ولا تفهم من كلمة **«الطريق»**.

والهدايات الإلهية هي الأوضح والأظهر والأصوب، وليس هداية الفطرة، والإلهام، والحس، والمشاعر والوجدان، والعقل، والشرع، إلا ضمانات يعضد بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض.. فكلما عجزت وسيلة جاءت الأخرى الأقوى منها لتحل محلها.. وتنجز ما عجزت عنه، فإن عجزت هداية الإلهام،

---

(١) لسان العرب ج ٦ ص ١٦٢ ط دار إحياء التراث.

جاء دور الحس، فإن عجز الحس جاء العقل. فإن عجز العقل جاء الشرع، فهداية الله تامة، وحجته بالغة، تحفظ الإنسان في جميع حالاته، وتصونه من الخطل والزلل في مختلف تقلباته..

هديناه السبيل.. أو إلى السبيل؟:

وليست الدلالة على السبيل من قبيل الإشارة إليه من بعيد، مع عدم وضوح معالمه، ومن دون معرفة خصوصياته سعةً وضيقاً، حزونة وسهولة.. وما إلى ذلك..

بل الهدايات الإلهية يقينية وواقعية، تجعل السبيل واضحاً لا لبس فيه، سوف يلمس المهتدي بها هذا السبيل، ويجده حاضراً عنده، وكأنه قد حلّ هو فيه..

وبذلك يكون تعالى قد سدّ على هذا الإنسان منافذ الاعتذار والتعلل، ولله الحجة البالغة في كل وقت وحين..

(أل) عهدية أم جنسية؟:

وقد يسأل سائل: هل المراد بالسبيل، السبيل المعهود؟ فتكون «أل» عهدية.. أم المراد به جنس السبيل؟!.

ويجاب عن ذلك: بأنه قد يدعى أنها عهدية، وذلك لأن الله حين خلق الكون والحياة قد رسم لهما غاية، ولا بد من سلوك طريق موصل إليها، ومن تعريف وهداية لذلك الطريق.

وقد بين الله تعالى البداية، والسبيل والغاية، بأوضح بيان، وهدى إليه أتم هداية.

وواضح: أن أي اعوجاج وانحناء في ذلك السبيل سوف يفقده صلاحية الإيصال. وفي الانحراف والعودة هدر للوقت وتضييع للجهد،

وعبثية غير مقبولة. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[١]..

وهذا معناه: أن الهداية الإلهية إنما تكون إلى سبيل واحد، وهو الصراط المستقيم المتصل بالهدف، دون سواه.. والذي إذا اتضح وعرف، فإن الطرق الموجبة للضلال عن الهدف تصبح واضحة أيضاً..

ويصح التعبير عنها بكلمة «**سبيل**» لأن ذلك هو ما يقتضيه انحصار الطريق الموصل إلى الهدف بواحد..

وذلك كله يشير إلى أن كلمة «**أل**» عهدية..

وذلك غير دقيق، والصحيح هو أن كلمة «**أل**» جنسية، وذلك لما يلي:

إنه تعالى لم يقل: «إنا هديناه السبيل، إما مهتدياً أو ضالاً»، مع أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ قد يغري الأوهام القاصرة. بتوقع أن يقول: إما ضالاً، أو مهتدياً، لأن جعل الإنسان يتلمس السبيل بهذا المستوى من الوضوح، والتعيُّن والتبيُّن، لا يبقي مجالاً للضلالة عنه، أو تضييعه، أو ادعاء الغفلة عن خصوصياته وحالاته، فهو مهتد إليه بصورة حتمية، فإذا حاد عنه، فإنما هو عناد، وكفر، واستكبار، وجحود.

فنسبة الوضوح في سبيل الهداية، هو في مستوى نسبة الوضوح في سبيل الضلالة. قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[٢]. فإذا كان قد هداه النجدين، فكيف يمكن تصور ضلاله، إلا على سبيل العناد والجحود؟

---

(١) سورة الأنعام الآية١٥٣.

(٢) سورة البلد الآية ١٠.

وقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[1].

وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[2].

وبذلك يتضح: أن «أل» في كلمة «**السَّبيل**» جنسية، أي أنه تعالى قد بيَّن سبيل الغي والضلال، الذي لا يوصل، بواسطة بيانه للسبيل المستقيم الموصل، فأصبحت السبل واضحة، وعليه هو أن يختار.

لماذا بدون فاء التفريع؟:

ويبقى سؤال: لماذا لم يقل الله تعالى: «**فإما شاكراً**». مع فاء التفريع، بل قال: ﴿إِمَّا شَاكِراً﴾؟!..

ونقول: لعل السبب في ذلك: أنه تعالى يريد أن يبرز عنصر القصد والاختيار والإرادة، فكأنه قال: قد دللتك، ولك الخيار، في أن تفعل، وأن لا تفعل، فأنت الذي تقرر وتختار، وتبادر.

ولو أنه جاء بفاء التفريع فلربما يُتخيل أن الشكر والكفر يأتي كنتيجة طبيعية وحتمية الحصول، سواء أكان ذلك بسبب الغفلة عن الأمر، فينساق بعفوية إليه وبدون التفات، أم بسبب النسيان بعد الالتفات، أم بسبب العمد إلى الشكر والكفر، ثم يتكرر منه فعل الكفر، حتى يصير كفوراً..

السميعية والبصيرية لا تغني عن الهداية:

وقد يقال: إذا كان الله قد جعل الإنسان سميعاً بصيراً، فإنه لا يحتاج بعد إلى الهداية، وذلك لأن سميعيته الفائقة، وكذا بصيريته سوف تجعلانه يلتفت لكل شيء، ويدرك كل ما حوله.. فلماذا عاد فقال: ﴿إِنَّا

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٩.

(٢) سورة النمل الآية ١٤.

هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾؟!

ويجاب عن ذلك:

إن سميعية وبصيرية الإنسان لا تعني إحاطته بالأمور، ومعرفته بأسرار الخلق، ولا وقوفه على الغيوب، ولا على واقع تأثيرات الأشياء بعضها ببعض، ولا على المصالح والمفاسد الواقعية..

فيحتاج إلى الهداية التشريعية الإلهية، ليضمن عدم الوقوع في الخطأ الكبير والمهلك.. لأن غاية ما يحصل عليه الإنسان هو هداية التكوين، والفطرة، والعقل. وهداية التكوين محكومة بعللها وأسبابها.. وهداية الفطرة محدودة في نطاق الدعوة إلى عناوين ومبادىء، وأهداف عامة وعالية، تكتنفها دواعٍ غريزية، تحتاج إلى ما يضبط حركتها في مسارها إلى تلك الأهداف والمبادىء، حتى لا تتجاوز الخط أو الهدف الذي حددته الفطرة لها.

وهداية العقل تبقى أيضاً مفتقرة إلى توفير المخزون الذي يستطيع العقل من خلاله أن يعطي حكمه الإرشادي من خلال التصرف فيه..

ويبقى الإنسان بعد هذا وذاك في موقع المحتاج إلى الدلالة والهداية الإلهية.. فبعث الله له الأنبياء مبشرين ومنذرين.. وعرّفوه السبيل: **﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾**..

ويكون هذا المستوى من السميعية والبصيرية بمثابة التأهيل لتلقي الهداية الإلهية.. ثم التفاعل معها من موقع المختار المريد.. لا من موقع الجبر التكويني، والتحريك القسري، كما هو الحال بالنسبة لبعض الكائنات، كالنباتات، ولا من موقع التحرك التكويني، والفطري، والغريزي، وحسب، كما هو الحال بالنسبة للحيوانات..

وَإمّا كَفُوراً:

ولا بد أن يلتفت قارىء هذه الآية إلى أن الله سبحانه بالنسبة للشكر قد عبَّر بصيغة اسم الفاعل.. لكنّه بالنسبة لغير الشاكر جاء بصيغة المبالغة فقال: **﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾**.. أي كثير الكفر وشديده..

وهذا التعبير هو الصحيح والأولى، لأن الإنسان شديد الكفر، من حيث إن الحقائق التي يحاول طمسها وتجاهلها، هي من الظهور والوضوح إلى الحد الذي تحتاج إلى جهد كبير وشدّة، ليتمكن من طمسها وحجبها. وهو أيضاً كثير الكفر، وذلك لكثرة الحقائق التي يعمل على إبعادها، وإسدال الحجاب عليها. سواء أكانت هذه الحقائق مما تدعوه إليها فطرته، أم مما يرشده إليها عقله، أم مما أوضحها له التشريع والبيان الإلهي..

قوة الوضوح في البيان القرآني:

وإن أعظم ما يواجه الإنسان في قضايا الإيمان والكفر هو الشأن العقيدي، لأنه يرتبط بأمور الغيب، ويحتاج إلى إدراك عقلي، ورؤية قلبية، وتلمس وجداني، يصل إلى حد صيرورة ذلك واضحاً وبديهياً.. وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى: **﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**[1].. وعنهم [عليهم السلام]: **«عميت عين لا تراك»**..

وقد قلنا: إن القرآن في بياناته لأمور العقيدة، يدفع بها لتصبح شأناً حياتياً، وواقعاً عملياً، يتلمسه الإنسان في كل موقع وكل اتجاه.. ولا يتحدث له عنها بطريقة تجريدية، فلسفية، فراجع الآيات التي تتحدث

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٠.

عن وجود الله، وعن توحيده، وعن صفاته، وعن النبوة وعن الإمامة، وعن اليوم الآخر.. كقوله تعالى مثلاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(١)، فإنه تعالى قد تحدث عن فساد الكون والحياة؛ بالشرك، وأن الإنسان سوف يفقد القدرة على العيش، وعلى إعمار الكون، وسيفتقد السعادة، ويعجز عن الوصول إلى كمالاته التي ينشدها..

ولم يقل: إن تعدد الآلهة يستتبع الالتزام بفقدان أحدها، في المكان الذي يوجد فيه الآخر، ولم يشر إلى أن ذلك يستلزم حاجة الآلهة إلى المحل، أو لزوم تقدم المكان على المكين، ولا إلى لزوم وجود ما يميز هذا عن ذاك، ولا إلى غير ذلك من أمور تبقى في دائرة التأمل الفكري.. بل ترك البيانات الفكرية، التي تحصن هي الأخرى الإنسان من شبهات أهل الضلال، ترك بيانها للأئمة الطاهرين، ولذلك نجد الإمام علياً [عليه السلام] يتصدى لها، فيقول: أيَّنَ الأين فلا يقال له أين، وكيَّف الكيف فلا يقال له كيف(٢)..

وقال [عليه السلام] أيضاً: مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمباينة(٣).. وغير ذلك.

وقد بيَّن [عليه السلام] ذلك، بعد أن بيَّن لنا أيضاً أنه تعالى لا يمكن دخوله في تصوراتنا وأوهامنا، فقال: «**كلما ميزتموه بأوهامكم في أدق**

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

(٢) بحار الأنوار ج٣٦ ص٢٨٣.

(٣) نهج البلاغة ج١ ص١٦، واثنا عشرة رسالة للداماد ج٢ ص٤٣ وبحار الأنوار ج٤ ص٢٤٧ وج٥٤ ص١٧٧ وج٧٤ ص٣٠٠ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٢٦٠.

معانيه، مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»[1].

فالله إذن يريد لنا أولاً أن نشعر به بقلوبنا، ونحس بآثاره في حياتنا، ليصبح واقعاً حياتياً فاعلاً وقوياً. وهكذا فعل في سائر الأمور العقائدية، كالقيامة والنبوة وغيرهما، وكذا المفاهيم الإيمانية، والدينية، بصورة عامة..

ولذلك تجد الإنسان يعيش الشعور بالله سبحانه وبقدرته، ومحبته، وسائر المعاني الإيمانية في حالات الخوف والرجاء، وفي حالات الصحة والمرض، فيتوجه إليه بالدعاء، ويشعر بالفرح وبالامتنان حين يستجيب له.

فالمطلوب إذن هو الإحساس بالله سبحانه، وليس المطلوب هو تصوره سبحانه، لأن ذلك مستحيل. كما أن المطلوب هو امتلاك القدرة على دفع شبهات المضلين، والتحصن من ضلالاتهم.

هذا: وقد جاءت هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، في نفس هذا السياق، كما يظهر من ملاحظة المعاني التي أشارت إليها، في مفرداتها، وفي سياقها العام.

لماذا قال: شاكراً؟!

والسؤال هو: لماذا قال: «**شَاكِراً**»، مع أن الحديث هو عن الهداية والضلال؟!.. ولماذا أيضاً جاء بها بصيغة اسم الفاعل؟!..

والجواب:

١ـ إن اختيار الشكر في هذا المورد، إنما هو لأنه من قبيل إطلاق الدعوى مع دليلها، لأن التعبير بالشكر يوجب أن يكون هناك ما يفرض الشكر، وهو النعم. فإذا أثبتت الشاكرية، فإن ثبوتها يوجب ثبوت قبح

---

(١) بحار الأنوار ج٦٦ ص٢٩٣.

الكفر بصورة أوضح وأتم، لأن وجود النعم أوجب حتمية الشاكرية.. وحتمية الشاكرية وقيمتها يجعل الكفر من أقبح الأشياء، فإن الكفر للنعمة، وانجرار ذلك إلى الكفر بالمنعم وصفاته، وكل ما يصدر عنه، يصبح جريمة كبرى.. فكيف إذا كان الإنسان كفوراً، أي شديد الكفر وكثيره؟ فإن الأمر يصير أعظم قبحاً، وأسوأ صنعاً..

وفي هذا الأسلوب من التنفير من الكفر، والحث على الطاعة ما يغني عن أي بيان.

٢ــ إن أرقى حالات العبادة والطاعة هي تلك التي تكون نابعة من صميم الذات الإنسانية. فالالتزام بالسبيل الواضح، هو ما يدعو إليه الخلق الإنساني، وتقتضيه الفطرة الصافية، حيث لا بد أن يختار طريقة الشكر باقتضاء من داخل ذاته، ومن دون حاجة إلى إلزام بأمر من الخارج. فإذا جاء الأمر التكريمي من قبل الله سبحانه، فإن اندفاعه إلى امتثاله سيكون أيضاً من مقتضيات طبعه، وخلقه الإنساني الرفيع.. لا طمعاً بنوال، ولا خوفاً من عقوبة، ولا لأجل الخروج من حالة الإحراج والإلزام حيث لا مناص.

وقد روي عن أمير المؤمنين [عليه السلام] أنه قال: «**إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[1].

فحالة الشاكرية حالة إرادية اختيارية، أخلاقية، وإنسانية. وهي تعبير

---

(١) راجع: نهج البلاغة ج٣ قسم الحكم، الحكمة رقم ٢٣٧ والبحار ج٤١ ص١٤ عنه وج٧٥ ص٦٩ عن المناقب لابن الجوزي وعن تحف العقول. وراجع ج٦٧ ص١٨ و١٩٧ و٢٥٥ وج٨ ص٢٠٠ عن الكافي، وعن عقائد الصدوق وعن علل الشرائع ج١ ص١٢.

فطري صادق، ينبع من داخل الذات، بما لها من أصالة، وما للمزايا والكمالات الإنسانية والأخلاقية من تجذر وعمق.

أما لماذا عبر باسم الفاعل، فقال: «**شَاكِراً**» ولم يقل شكوراً، ليتجانس مع كلمة «**كفوراً**».. فلعله ليفيد أمرين:

أحدهما: أن الإنسان لا يمكن أن يكون شكوراً، أي كثير الشكر، على نحو الحقيقة، بل هو لا يستطيع إنجاز شكر واحد لله تعالى.. لأن كل شكر يحتاج إلى وسائل لإنجازه، وهذه الوسائل هي نعم جديدة، يحتاج أيضاً إلى أداء شكر كل واحدة منها، وما أكثرها.

ثانيهما: أن اسم الفاعل «**شاكراً**» يشبه الفعل المضارع «**يشكر**» في إفادة فعلية التلبس بالشكر..

كما أنه لكونه اسماً مجرداً عن إفادة التجدد، فهو يدل على الثبات والدوام، لهذا الشكر، وليس فيه دلالة على التصرّم والانقضاء.

كما أنه لم يقل: إما أن يشكر أو يكفر، لأن ذلك يدل على مجرد صدور الفعل منه، ولو مرة واحدة، ولا يفيد أية خصوصية أخرى مع أن المقصود هو بيان ذلك بلحاظ خصوصيته الأخلاقية، وغيرها مما ألمحنا إليه..

لماذا: «وَإِمَّا كَفُوراً»؟!

وأما السبب في أنه تعالى قد جاء بصيغة المبالغة في قوله: ﴿**وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ فلعله:

أولاً: فيما يرتبط بالنعم، فإن كثرة النعم تتطلب من الكفور كثرة المحاولات لإخفائها، وكل نعمة لها سترها الخاص بها..

وفيما يرتبط بالحقائق والاعتقادات، وسواها، فإنه أيضاً يحتاج إلى كثرة الستر للحقائق.. وتعدد الإنكار للأمور العقائدية وغيرها..

فكلمة كفور تشمل كفر النعمة، وكفر المنعم، والكفر بالنبي الذي يخبر عنه، وبالأئمة الذين يسعون إلى إقامة دينه، ثم الكفر بيوم الجزاء، ليتخلص ويتملص من المسؤولية..

فالقول بأن المقابلة بين الشاكر والكفور تجعل المعنى الأول، وهو كفر النعمة، أنسب بالمعنى..

قول غير دقيق.. بل التعميم هو الأنسب، خصوصاً وأن شكر النعمة هو الآخر يستبطن الاعتراف بكل الاعتقادات الآنفة الذكر، ومنها صفات الله تعالى، لأن النعم تثبت تلك الصفات، لأنها من مظاهرها وتجلياتها، غير أن الشكر لا يتعرض لتلك النعم، وإن كان يستلزم الاعتراف بها من قبل الشاكر، كما أن جحود صفات الله لا يمكن أن يتحقق معه الشكر..

وبذلك يتضح: لماذا لم يقل: مؤمناً أو كافراً، إذ إن ذلك يوجب اختصاص الكفر بالكفر العقائدي. فهذه الآية تستبطن تحويل الشأن العقيدي إلى أمر حياتي.

فجاء بصيغة المبالغة، لأجل بيان هذه الكثرة الحقيقية لكفره..

ثانياً: إن كثرة صدور الطمس والإخفاء للنعم يكشف عن خلل حقيقي في أخلاقيات ذلك الشخص وفي إنسانيته، ويدل على خبث باطنه، وشدة طغيانه، وحرصه على طمس نعم الله سبحانه، والتنكر لها، مع أن الله تعالى يقول لنبيه [صلى الله عليه وآله]: **﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾**[1]، لأن إظهارها يزيد في معرفة الناس بالله، وفي توجههم إليه بحوائجهم. ولأجل ذلك قلنا: إن التعبير بالشاكر والكفور، هو الأصح من

---

(١) سورة الضحى الآية ١١.

التعبير بقوله: إما ضال أو مهتد..

وأخيراً.. فإننا بالنسبة لقوله: ﴿**إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ نلاحظ: أنه تعالى لم ينظر إلى جهة صدور الفعل، وحركته الخارجية، وخصوصياته، بل نظر إلى طبيعة الشكر، والكفران، من حيث كونهما صفتين أخلاقيتين داخلتين في تكوينه النفسي الداخلي..

فالشكرية حالة إنسانية أخلاقية، والكفورية حالة لا أخلاقية ولا إنسانية.

الأخلاق أساس الدين:

ونحن نعلم: أن الأخلاق هي أساس الدين، لأن الهدايات كلها: ومنها الفطرية، والإلهامية، والعقلية، والتشريعية قد تتوفر للإنسان، ولكنه ـ مع ذلك ـ لا يهتدي بهداها، وذلك بسبب خلل أخلاقي، ونقص في المزايا الإنسانية في داخل نفسه.. ففرعون مثلاً، وكذلك إبليس، قد توفرت لهما جميع أنواع الهدايات، لكن الخلل الأخلاقي المتمثل باستكبارهما وعلوهما قد أوصلهما إلى الإبليسية، وإلى ادعاء الربوبية والفرعونية، رغم أنهما يملكان أقوى الأدلة المثبتة للقضايا العقائدية. ومنها رؤية المعجزات القاهرة، ومعاينة الكرامات الباهرة، والبراهين العقلية، والفطرية كلها، ولكن ذلك كله لم يؤثر في هدايته، واختار الجحود الذي تحدث الله عنه حين قال: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ**﴾.

وذلك كله يعطينا: أن الكفر حالة عناد واستكبار، وخلل أخلاقي بالدرجة الأولى..

فرق آخر بين الكفر والشكر:

وهناك فرق آخر بين الكفر والشكر، وهو أن من لا يعترف

بالشهادتين، فهو ينكر جميع الحقائق المترتبة على التوحيد. بنفس إنكاره للتوحيد، وينكر ما يترتب على النبوة بنفس إنكارها أيضاً..

وأما إذا أقر بالتوحيد، فهو يحتاج إلى ممارسة كل مفردات الشكر، ليكون شاكراً بالفعل.. إذ إن اعترافه بالتوحيد إنما يكفي عن التوحيد دون سواه. أما العبادات مثلاً، كالصلاة، والزكاة، والصدق.. و.. و.. فلا يغني عنها شيء، حتى التوحيد..

فظهر أن كفره بالتوحيد يسقط كل ما عداه عن الصلاحية، وهو بمثابة تعدد صدور الكفر منه بالنسبة لكل واحدة، واحدة.. لكن إيمانه به لا يغني عن شيء مما عداه، فلا بد من الإتيان به على حدّه الذي قرره الله عز وجل..

المجبرة، وآية الهداية:

وأخيراً.. نشير إلى أن المجبرة قد ادّعوا: أن الله سبحانه لم يهد الكافر.. لكن هذه الآية قد جاءت صريحة في تكذيب هذه الدعوى، حيث قررت أن الهداية الإلهية تشمل الكافر والمؤمن بلا فرق..

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع:

{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا}

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾.

في هذه الآية المباركة حديث عما يواجه الكافر من عقاب، فكيف، بالكفور، ونحن نجمل الحديث فيها على النحو التالي:

«إنّا»:

قد تكرر استعمال كلمة **«إنّ»** التي هي حرف تأكيد، مع إدخالها على **«نا»** التي هي ضمير جمع المتكلمين، لا على ضمير المفرد، وقد قال هنا: **«إنّا»**، ولم يقل: **«إني»**.

كما أنه اختار التأكيد بـ **«إن»** ولم يقل: **«قد»** أو **«لقد أعددنا»**.

فأما بالنسبة للملاحظة الأولى، فقد ذكرنا، أكثر من مرة: أن المناسب في مثل هذا المقام الذي يراد به الردع والزجر، أن يكون في الخطاب إظهار للعزة والعظمة الإلهية..

وأما بالنسبة للملاحظة الثانية، فإن التعبير بكلمة قد، ولقد، وإن كان يفيد التأكيد، إلا أنه يفقد الإشارة إلى مقام العزة الإلهية..

وقد قلنا: إن التأكيد عليه، وتركيزه في ذهن السامع، بتكرار الحديث عنه، بهذه الطريقة التعظيمية مطلوب في تحقيق الردع والزجر..

«أَعْتَدْنَا»:

وأما لماذا قال: **«أَعْتَدْنَا»**، ولم يقل: **«أعددنا»**..

فلعله لأجل أن كلمة أعددنا تتحدث عن مجرد الإعداد، من دون تعرّضٍ لما يكون مورداً ومحلاً له.. أما كلمة «أعتدنا»، فإنها تحمل معنى الإعداد، وتشير أيضاً إلى العتاد الذي يتم تهيئته، وأنه أمر حسي موجود فعلاً، وليس مجرد تهديد ووعيد بأمر قد يكون مفترض الوجود..

الإعداد لا ينافي القدرة:

وقد يقال: إن الله تعالى هو القادر والقاهر فوق عباده، فلا يحتاج إلى إعداد عدة، ولا إلى تهيئة مقدمات لشيء.. فإن العاجز هو الذي يحتاج إلى إعداد وتهيئة الأمور التي قد يفقدها حين العمل.. فكيف قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ﴾ و.. الخ؟!

وجواب ذلك هو: أن المقصود من الإعداد هنا، ليس هو رفع النقص عن المعدّ، بل المقصود هو تحقيق الردع للعاصي، والتأثير عليه لتصحيح مساره، وذلك هو الأسلوب التربوي الصحيح الذي يقتضيه موقع الربوبية، وسوق الإنسان نحو كماله، وإبعاده عن مواقع الخطر بالحكمة الهادية، وبالأسلوب الصحيح.

الوعيد بغير المحسوس، يلغي الفرق:

وقد يقال: بما أن السلاسل، والأغلال، والسعير، ليست حاضرة أمام الإنسان، بل هو سوف يواجهها يوم القيامة، فالحاضر الآن ليس إلا التهديد بها، والتهديد بالشيء لا يفرق فيه بين أن يقول: «**أعددنا**» و«**أعتدنا**».. وذلك لأن وقت التنفيذ غير حاصل بالفعل.

ويجاب: بأن الوعيد على نحوين، أحدهما أضعف تأثيراً من الآخر. فالوعيد المجرد عن الإعداد، يبقى مجرد محاولة لإيجاد تصور للعقاب، ولكيفياته، وحالاته، ومستواه، تدفعه للعزم على المضي فيه. فقد يتصوره

في مستوى أقل مما هو عليه، مع احتمالات حصول عفو أو بـداء، أو أي شيء يصرف عن المضي في ذلك العزم.

وأما الوعيد الذي يصاحبه إعـداد وتهيئـة وسـائل.. فـإن هـذا الإعـداد، يستبطن إفهام العاصـي بـأن الأمـور غيـر قابلـة لأي احتمـال، فقـد حـددت مستويات العقاب، وحالاته، وكيفياته. وجسَّده بدرجة مّا، من خـلال مـا تهيـأ من وسـائل.. مع تضاؤل احتمالات الانصراف عـن العقوبـة، لوجـود الوسـائل المذكَّرة بها، والمحرِّضة عليها بدرجة من التحريض ماثلة للعيان.

كما أن إحضار الوسائل يعطي للعاصي بصيرة فـي درجـة التصـميم والإصرار والجدية في هذا الوعيد، حيـث يـرى: أن مراحـل تنفيـذه قـد بدأت، وأن الخطوات الأولى قد أنجزت.

فإذا كان واقع الأمر يفرض هذا الفرق بين الحالتين، فالإخبـار بهمـا أو بإحديهما، لا بد أن تختلف تأثيراته على النفس الإنسانية تبعاً لذلك..

الإعداد والعفو:

ويبقى سؤال يقول: هل هذا الإعداد يمنع من العفو؟!

ويجاب: بأنه لا مانع من حصـول العفـو، لكـن المهـم هـو أن هـذا الأسلوب التربوي من شأنه أن يجعل الناس أكثر جدية في التـزام أوامـر الله تعالى.. لأن عنفوان الكفر يتضاءل، وتضعف شـوكته، وضـعفها هـذا، وحرص الإنسان على أن لا يعرض نفسه لغضب الله، يجعله أهلاً للعفـو فيما لو اجتمعت شرائطه وموجباته.

«أَعْتَدْنَا» صيغة الماضي!

وأما لماذا عبَّر بصيغة الماضي، لا بصيغة المضارع، فقـال: **«أَعْتَـدْنَا»**.. فلعله لأجل أن يفهم العصاة: أنه تعالى قد أعد العدة، وانتهى الأمـر، فهـو

يخبر عن أمر قد حصل في الماضي، ولا يريد أن يسجل تهديداً مجـرداً، إذ لو قال: سوف نعد للكـافرين كـذا وكـذا، لانفـتح بـاب الأمـل علـى مصراعيه بتغير الأمور، ولذهب العصـاة باتجـاه الاسـتخفاف والاسـتهتار بالأمر وبالآمر..

فقوله تعالى: «أَعْتَدْنَا» أصلح في التربية، وأوكد في الزجر، وأشد فـي الردع.

«لِلكَافِرِينَ»:

وقد كان الحديث في بداية الأمر عن الكفور.. ولكنـه حـين أراد أن يتحدث عن العقوبة الرادعة عبر بلفظ الكافرين..

وهو يختلف عن الكفور من جهتين.

الأولى: أن الكفور مـن صـيغ المبالغـة، الدالـة علـى الشـدة وعلـى الكثرة..

الثانية: أن الكفور صفة للمفرد. أما الكافرون فهي صفة للجمع..

وربما يكون الداعي للعدول إلى هذا النحو من البيان هو إظهار: أنـه إذا كان هذا هو عقاب الكافر، فكيف يا ترى سيكون عقاب الكفور الذي هو أشد كفراً، والذي كثر صدور الكفر منه، إلى أن صار كفوراً.. فكشـف ذلك عن شدة طغيانه، لا بالقول وإظهار الجحود وحسب، وإنمـا بالفعـل والممارسة أيضاً؟!..

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إلاَ الْكَفُـورَ﴾[1].. حيـث دل على أن عقاب الكفور مفروغ عنه، ولا مجال للعفو أو للتخفيف عنه، في

---

(١) سورة سبأ الآية١٧.

أي من الظروف والأحوال.. ولا يريد أن يقـول إن الجـزاء منحصـر بهـا، وأن الكافر لا يجازى..

أضف إلى ذلك: أن هذه العقوبة ليست حالة استثنائية، ولا تختص بهذا الفرد على سبيل التجني عليه، وإنما هي قانون عام وشـامل، يؤخـذ به الجميع.

وصفته القانونية هذه تأبى احتمالات التبدل في القرار، وتجعل ذلك العاصي أكثر اقتناعاً بحتمية هـذا المصير، حيث لا استثناء لأحـد مـن القوانين والسنن العامة من دون مبرر ظاهر وحاسم.. مع أن المبرر لعـدم الاستثناء موجود، وهو شدة وكثرة كفره، فهو كفور، وليس مجرد كافر..

وهذا يعطي أن قوله: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ**﴾.. قـد أريـد بـه نفس الطبيعة التي قد تختلف منطبقاتهـا شـدة وضـعفاً، أو قلـة وكثـرة.. فيكون قوله أو كفوراً بمثابة البيان للمراد من كلمة: «**الكَافِرِينِ**»..

الترتيب والاختيار:

ويلاحظ أنه تعالى قد اختار من وسائل العقاب ثلاث فقط، هي:

١ـ السلاسل.

٢ـ الأغلال.

٣ـ السعير.

فلنا هنا أسئلة ثلاثة، هي:

١ـ لماذا اختار خصوص هذه الثلاث يا ترى؟!

٢ـ ما الفرق بين السـلاسل، والأغلال؟!

٣ـ لماذا قدم السلاسل والأغلال، على السعير؟!

ويمكن أن يجاب على ذلك بما يلي:

سبب اختيار أنواع العذاب:

أولاً: هناك نوعان من العقاب، هما:

١ـ العذاب الروحي.

٢ـ العذاب الجسدي.

والسلاسل والأغلال ليستا وسيلة عقاب فاعلة ومؤثرة في الجسد، وإن كانت توجب بعض الألم، والحرج على صعيد الحركة..

أما السعير، فهي عذاب جسدي بالدرجة الأولى، والأذى الروحي فيها ليس نابعاً من ذاتها، بل هو بسبب بعض العناوين الأخرى التي تصاحب العذاب الجسدي فيها..

والأذى الروحي للمستكبر العاتي هو المطلوب الأول والأهم. أما الأغلال، فهي وسيلة لأسر الحرية، وهي من وسائل الإذلال، والتحقير والمهانة..

واختياره هذه العقوبة بالذات إنما هو لأن الاستكبار لذّة روحية له، وهي لذّة محرمة.. فيصح مقابلتها بعقوبة روحية عادلة، هي الإذلال والمهانة والتحقير، فتتقابل اللذة الروحية بالمهانة الروحية.

ثم إنه إضافة إلى هذا الإذلال يلقى في السعير، لينال الجسد ما نالته الروح، فتذكو تلك النار، وتسعِّرها الأدران والخبائث التي نمت في كل كيانه، بسبب استسلامه للغرائز والشهوات، والنزوات والأهواء، التي أوصلته إلى العناد والاستكبار..

وكما أن للمعاصي لذات جسدية، فقد ناسب أن يكون لها عقوبة بالسعير التي تنتج له أذى جسدياً أيضاً..

الفرق بين السلاسل والأغلال:

وعن الفرق بين السلاسل والأغلال نقول:

إنه لا شك في أن تلك السلاسل والأغلال سيكون عذابها الجسدي عظيماً وهائلاً، كما دلت عليه الآيات أيضاً، لكن الجانب المعنوي هو الأبرز في هذه الناحية، فإن إذلال الكافرين هدف هام ومقصود بذاته.

وعلى كل حال نقول: إن الأغلال جمع غل. وهو في الأصل طوق يوضع في العنق. والسلاسل جمع سلسلة، وهي عبارة عن حلقات منتظمة تأسر حركة وحرية المأسور، ضمن دائرة معينة، يحددها طول وقصر السلسلة، وطريقة التفافها على أجزاء جسده، ثم هو يسحب ويجر بواسطتها. قال تعالى: **﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾**[1].

وقال سبحانه: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾**[2].

وقال عز من قائل: **﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾**[3].

سبب تقديم السلاسل على الأغلال:

ثم إن تقديم السلاسل على الأغلال.. قد جاء على سبيل التدرج والترقي في مواجهة الكافر بالعذاب، فإن الذل الذي يواجهه الإنسان حين يوضع الغل

---

(١) سورة غافر الآيتان ٧١ / ٧٢.

(٢) سورة الرعد الآية ٥.

(٣) سورة الحاقة الآيات ٣٠ / ٣٢.

في عنقه أعظم من الذل الذي يشعر به حين يربط بالسلاسل..

«وَسَعِيراً»:

وقد عبر بكلمة «سَعيراً»، ولم يقل ناراً مثلاً، ربما بهدف الإلماح إلى زيادة استعار تلك النار، ليدل على التجدد المستمر من جهة، وعلى الشدة والتأجج من جهة أخرى.

وفي ذلك تأكيد ظاهر على الردع الحازم، من خلال القرار الجازم..

والملاحظ هنا: أن التصعيد كان باتجاه الآلام الحسية، لأنها هي التي يدركها الإنسان بصورة أعمق، وأشد وأوضح..

الأبرار والفجار.. إطناب واقتضاب:

وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الآية المباركة نشير إلى ملاحظة هامة هي: أنه تعالى قد أجمل واختصر في حديثه عن عقاب الكافرين..

ولكنه فصَّل وبيَّن أموراً كثيرة في حديثه عن جزاء الشاكرين الأبرار، وأشار إلى كثير من خصوصياتهم، وصفاتهم ومزاياهم، وكمالاتهم الإنسانية، والنعم التي تنتظرهم..

ولعل سبب ذلك هو: بالإضافة إلى ما في إهمال أمر الكفار من التحقير، والخزي والمهانة لهم، في مقابل ما للأبرار من التعظيم، والمجد والكرامة، وفي ذلك أيضاً إيلام روحي للكافرين..

وبالإضافة إلى ما في إيكال الأمر إلى خيال الإنسان العاصي، ليذهب كل مذهب في الحيرة والضياع، والرهبة والخوف.

نعم بالإضافة إلى ذلك نقول:

أولاً: إننا إذا رجعنا إلى ما ذكرناه في تفسير آيات هذه السورة

المباركة، فسنجد أن النقطة الحساسة والمركزية، التي تتمحور حولها الآيات الشريفة في هذه السورة، هي النشأة الطبيعية للإنسان في مسيرته التكاملية نحو الله سبحانه، وهي المسيرة المنسجمة مع هذا الخلق كله، بما أودع الله فيه من استعدادات وطاقات، مُحاطة بالرعاية الإلهية من البداية إلى النهاية: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾**؟!..

فقد خلقه الله تعالى من نطفة أمشاج اقتضت ابتلاءً، ينتج رهافة في السمع، وحدّة وقوّة في البصر، ليكون إنساناً مدركاً وواعياً، بل في منتهى الإدراك والوعي **«سميعاً، بصيراً»**..

وقد أحاطه تعالى بأنواع من الهدايات، ليس فقط على سبيل الإشارة والدلالة، بل أعطاه أيضاً: الهداية التكوينية، والإلهامية، والفطرية، والحسية، والوجدانية، والعقلية والشرعية، لكي لا يضل عن الصراط المستقيم. وتفضي به إلى السبيل الواضح **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾**، فلا أصح ولا أصوب، ولا أقرب إلى الهدف منه، وبذلك أصبحت الحوافز كلها متوفرة لديه، وتفرض عليه أن يلتزم بهذه الهدايات العظيمة.

فالآية الشريفة قد ركزت على هذا السير الطبيعي للإنسان، وأكدت على بيان حالاته، وخصوصياته، وأجوائه، التي لا بدّ أن تغري بالاهتمام بذلك الهدف الأسمى والسعي إليه.

أما إذا اختار التنكر لما تفرضه عليه تلك الهدايات كلها.. وأصر على الخروج على مقتضيات الفطرة، والتمرد على الوجدان، وعلى العقل، والدين، وعلى الله، فهذا هو النشاز والاستثناء، الذي لا يستحق الالتفات إليه إلا بهذا المقدار من اللفتة العابرة، ليكون دائماً في موقع الخزي، والمهانة، والسقوط، وليكون عبرة لأولي الألباب، الذين يطمحون إلى

الكمال، وينالون تلك النعم الباهرة..

وهذا بالذات هو ما يبرر الاختصار هناك، والتفصيل هنا..

ثانياً: هناك أمر آخر يحسن الالتفات إليه، وهو: أن الحديث عن الأبرار قد تضمّن أموراً تتناسب مع أنواع أفعالهم التي أنتجتها الهدايات الآنفة الذكر، فاقرأ في السورة ما يشير إلى أفعالهم الجارية على مقتضيات الهداية الحسية، أو التي تُرضي الوجدان، والتي يفرضها التشريع عليهم، كالوفاء بالنذر، بالإضافة إلى الهداية العقلية، والوجدانية، كما في إطعام الطعام على حبه، وكلزوم الأمن والطمأنينة، وما إلى ذلك..

فإنك تجد في مقابلها نعيماً يجانسها، مثل النعيم الحسي، كقوله: **﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾**، ونعيم الأمن، كما في قوله تعالى: **﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾**..

ومن يقرأ سائر آيات السورة يجد صحة ما قلناه..

لماذا تحدث عن العقوبة أولاً:

لماذا قدم الكلام عن عقاب الكافرين، مع أن التقسيم الذي سبقه قدّم فيه الشاكر بالذكر على الكفور؟!

فقد كان النظم يقتضي أن يتحدث أولاً عن الأبرار، ثم عن الكافرين، ليتوافق مع التقسيم الوارد في البداية..

الجواب:

وفي مقام الإجابة على هذه الأسئلة، نقول:

إن السورة مسوقة لبيان النشأة الإنسانية، المحفوفة بالهدايات، والألطاف الإلهية، التي رسمها الله تعالى لهذا الوجود كله لكي يصل إلى غاياته القصوى، وإلى كماله الأتم، وذلك من خلال تجليات أنوار النبي

[صلى الله عليه وآله] وأهل بيته الأطهرين فيه، الذين هم العلة الغائية لهذا الوجود، وفقاً لما أشار إليه الحديث القدسي: **«لولاك لما خلقت الأفلاك»**[١].

ثم هو تعالى يريد أن يهدينا بهم صلوات الله وسلامه عليهم ببيان ما أعده الله سبحانه لهم من كرامة، ونعيم، ليثير فينا الشوق للتأسي، والارتباط القلبي بهم.

وكما يريد الله سبحانه أن يجعل معرفتهم [عليهم السلام] بعذاب الكافرين، وإطلاعهم على حالهم من وسائل النعيم لهم، فإنه يريد أن يكون ذلك من وسائل خزي الكافرين. مع التأكيد على أن شفاء صدور المؤمنين لم يكن لأمور شخصية بل هو في سياق التشفي ممن يتمرد على الله ويستكبر عليه سبحانه..

ثم هو يريد أن يكون من وسائل الترهيب الموجب للانضباط لدى الذين قد يضعفون أمام شهواتهم وميولهم، وإغراءات الحياة الدنيا، وكما أنه تعالى يريد أن يجعل الحديث عما أعده للأبرار، وهم أهل البيت عليهم السلام، من أسباب إثارة الرغبة بالتأسي والارتباط بهم، فإنه أيضاً يريد أن يكون ذلك من أسباب إكرامهم ورفعة شأنهم.

ولأجل ذلك كان الحديث أولاً عن مصير أولئك الكافرين والجاحدين، ثم عقبه ببيان أنواع الكرامات لهم، والنعم عليهم [عليهم السلام].

* * *

---

(١) بحار الأنوار ج١٦ ص٤٠٦، ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص١٦٦.

الفصل الخامس:

{إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً}

قوله تعالى:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾.

«إِنَّ الأَبْرَارَ»:

وبعد أن بين سبحانه ما أعده للكافرين من سلاسل، وأغلال، وسعير..

واستبدل الحديث عن الشاكرين، بالحديث عن الأبرار. وهنا سؤالان:

الأول: ما المقصود بالأبرار؟!

الثاني: لم استبدل الشاكرين بالأبرار؟!..

الجواب:

إننا بالنسبة لهذين السؤالين نقول:

إن كلمة الأبرار جمع «برّ» و «بار». وهي تستعمل في المعاني التالية: الصادق، المطيع، المحسن، الوّاسع، الصالح، القاهر.

وليس بالضرورة إرجاع هذه المعاني إلى معنى واحد، فإن وضع العرب اللفظ الواحد للمعاني المتضادة، أمر شائع، مثل كلمة: «جون» التي تقال: للأسود والأبيض، وكلمة: «قرء» التي تقال: للطهر وللحيض في المرأة وغير ذلك.

وفي جميع الأحوال نقول:

إنه لكي يصدق على البار أنه بارّ، لا بد أن يصدر عنه فعل البر بقصد واختيار، بأي معنى استعملت كلمة البر..

وبهذا القيد الأخير يعرف الفرق بين البر، وبين الخير. فإن الإنسان قد يفعل الخير، ولكن من دون قصد إليه، بل يتخيل أنه شر، أو أنه ليس متصفاً بالخيرية، ولأجل ذلك تجده تعالى يقول: **﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾**[1].

وإذ قد اتضح لنا المراد بالبر، فإنه يتضح لنا الجواب على السؤال عن سبب استبدال كلمة الشاكرين، بكلمة الأبرار.

فإن كلمة شاكر خاصة بمعنى من ظهر منه العرفان بالجميل، كردة فعل طبيعية تجاه المنعم، فيبادر إلى فعل ما يظهر حالة الشكر هذه..

لكن كلمة الأبرار تستبطن كل هاتيك المعاني الواسعة في دلالتها، وفي إيحاءاتها..

وبذلك يتضح أيضاً: لماذا لم يعبر بكلمة «**المؤمنين**» بدلاً من كلمة «**الأبرار**»، إذ قد لا يفهم من هذه الكلمة سوى حالة واحدة، هي الإشارة إلى الحصول على حالة الأمن في ظل اعتقاد بعينه، وهو معنى قد حشر في زاوية صغيرة ومحدودة.. وبذلك ينحسر المعنى عن الآفاق الرحبة التي تتولى كلمة الأبرار الكشف عنها، والدفع إليها..

انسجام المعاني.. مع الآيات:

فاتضح: أن كلمة الأبرار تستبطن معان واسعة لها أهميتها البالغة، ولها ارتباط وثيق بمعان وصفات ومزايا تريد الآيات التالية أن تؤكد عليها.

وهي كما قلنا ستة معان، مشروطة أيضاً بالقصد والاختيار، فهي تشير إلى معنى القاهرية، الذي يلمح إلى قهر الإنسان للشيطان، ولجم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

نفسه الأمارة بالسوء، والسيطرة عليها، وكبح جماح الشهوات، والغرائز والرغبات، وذلك معناه: أن هذا الإنسان يملك قوة، وعزيمة، وإرادة، وحرية اختيار، ومبادرة عملية.

وصفة الصالح التي تذكر في جملة معاني البر، تشير هي الأخرى هنا إلى صلاح الفاعل، وأنه متوازن في نفسه، منسجم مع ما يؤمن به من معان وقيم، ولا يدخل مداخل السوء، بل هو يصلح الخلل في كل مورد يدخل فيه، تربوياً كان أو اجتماعياً، أو سياسياً، أو غير ذلك، لأن دخوله هذا يكون في موقعه..

واللافت هنا: أن من الأمور التي تظهرها الآيات القرآنية، هو: أن الصلاح هو المرتكز والأساس الثاني بعد مرتكز الإيمان..

وهذا ما يفسر لنا السبب في أن الله سبحانه يقرن بين الإيمان وبين العمل الصالح في مختلف الموارد. والعمل الصالح هو ذلك الذي يأتي في محله وفي موقعه المناسب، بحيث يوجب فقدانه منه خللاً فيه..

أما صفة الواسع، التي هي معنى آخر لكلمة «البر»، فهي تعني هنا رحابة الأفق، والوعي الشامل، وسعة الصدر، وفتح القلب للغير، والقدرة على استيعاب الآخرين، وعلى التعامل معهم، فلا انغلاق ولا انطواء، وليس ثمة من قيود أو حدود لميزاته وصفاته: في روحه، وفي عقله، وفي أخلاقه، وفي كل خصائصه الإنسانية.

والمطيع أيضاً يحمل هنا معنى العبودية لله سبحانه، والطاعة له، والانسجام معه، على أساس ما يملكه من معرفة عميقة بكماله المطلق سبحانه، وبالحاجة الحقيقية إليه تعالى..

أما الشاكرية فهي تعني الشعور الحقيقي بالنعم، والألطاف، والعنايات

الربانية. وهذا يحتاج إلى التحمل، والصبر والمكابدة، ثم هو تعبير صادق عن الإيمان الحقيقي، والوفاء، والرجاء، والخوف من يوم كان شره مستطيراً..

والإطعام الذي ظهر منهم هو من مظاهر الشكر من جهة، ومن مظاهر البر بجميع معانيه من جهة ثانية، وبذلك يكون تعالى قد أشار إلى جميع المعاني والجهات المفترضة والمطلوبة..

والمحسن، وكذلك سائر الصفات التي ذكرت لكلمة «البر» تحمل في طياتها معاني السماحة والكرم، والإيثار والشعور بآلام الآخرين، والزهد.

وأخيراً، فإنه قد ذكر في جملة تلك المعاني كلمة الصادق، وهو معنى هام جداً، وله دلالاته المختلفة في تأكيد صحة ما سيخبر به الأبرار في قصة إطعامهم للطعام..

وتلك المعاني كلها تجدها، أو تجد ما يعبر عنها، أو ينطلق منها، أو ينتهي إليها في آيات السور المباركة التي تتحدث عن الأبرار، وما قاموا به، وما أعده الله سبحانه وتعالى لهم..

فكلمة الأبرار تعني القاهرية. والأبرار من خلال قاهريتهم، ومن موقع اختيارهم وإرادتهم يفجرون عيون الخير تفجيراً، وهم أيضاً يفعلون ذلك من خلال عبوديتهم له تعالى ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ لا لأجل دنيا، ولا لأجل الانقياد لغريزة أو غيرها..

ثم إن كلمة الأبرار تستبطن السيطرة على النفس، إلى درجة عدم الاستجابة لرغبتها الشخصية، وتقديم مصلحة الغير على مصلحتها، لأنهم: ﴿يطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾..

كما إن من معاني البر «المحسن»، فالآية إذن تستبطن الإيثار، والكرم، والإحسان، لأنهم يطعمونه، لا طمعاً بمكافأة، بل انقياداً لله، وطاعة له..

وهم يفعلون ذلك بوعي، وعن قصد واختيار، كما تفيده كلمة الأبرار ـ كما أسلفنا..

وهم يخافون يوماً عبوساً قمطريراً، أو كان شره مستطيراً..

وهم مسيطرون على شهواتهم، وقاهرون لأنفسهم، وللشيطان.. في ميلها وحبها للطعام، بسبب حاجتها له، وهو أيضاً من وسائل قربهم إلى الله تعالى، فهم لا يأكلون استجابة لشهواتهم، بل لحفظ أنفسهم، وهو واجب عليهم، وللتقوّي على الطاعات، وهو محبوب لله أيضاً..

وهم يوفون بالنذر، وهذا ما تستبطنه كلمة الأبرار، لأنهم صادقون..

إذن فكلمة البر تستبطن جهات عديدة:

منها ما هو إنساني..

ومنها ما هو اجتماعي في مجالات التكافل، والشعور مع الآخرين.

ومنها ما هو إيماني.. كالخوف من اليوم الآخر..

ومنها ما هو داخل في التكوين النفسي، وقوة الشخصية وسيطرة الإنسان على نفسه وعلى شهواته..

ومنها ما يتعرض للحالة الأخلاقية..

وكل ما ذكرناه يدلنا على أنه لا مجال لاستبدال كلمة الأبرار بأية كلمة أخرى أبداً، وذلك لما تحمله من إشارات، ودلالات، وإيحاءات، لا توجد في أي كلمة سواها..

استعمال المشترك في أكثر من معنى:

ولعلك تقول: إن هذا الكلام في بيان سبب اختيار كلمة **«الأبرار»** يبتني على إمكانية استعمال المشترك في أكثر من معنى، وقد نفى ذلك

صاحب كتاب كفاية الأصول، وغيره، على اعتبار أن الاستعمال هو لحاظ اللفظ فانياً في المعنى، وبعد أن فنيَ في المعنى الأول، فيستحيل لحاظه فانياً في غيره في آن واحد، وفي استعمال واحد.

ونقول في الجواب..

أولاً: إن تفسير الاستعمال بذلك غير ثابت، بل ربما يكون خلافه هو الأصح، أو أنه ـ على الأقل ـ هو الأرجح..

ثانياً: إن الوقوع أدل دليل على الإمكان، ونحن نرى: أن العرب يستعملون التورية في محاوراتهم. والتورية هي القصد إلى معنى، مع إرادة إفهام السامع معنى آخر منه، وقد يكون المراد إفهام كل فريق معنى، يختلف عما يراد إفهامه لفريق آخر.

فمن الثاني: ما ذكروه من أن بعضهم أجاب على سؤال: من كان الخليفة بعد الرسول [صلى الله عليه وآله]، بقوله: من كانت ابنته تحته[1]..

فالسني فهم أن الخليفة هو أبو بكر، لأن ابنته كانت تحت رسول الله [صلى الله عليه وآله]. والشيعي فهم أنه الإمام علي [عليه السلام] لأن ابنة الرسول [عليها السلام] كانت زوجةً للإمام علي [عليه السلام].

ومن الأول: ما روي عن الإمام الصادق [عليه السلام]، حين سئل عن الهلال، فقال [عليه السلام]: ذاك إلى الإمام، إن صام صمنا، وإن أفطر أفطرنا..

وحين طلب معاوية من عقيل أو من غيره: أن يلعن علياً على المنبر، قال: ألا إن معاوية قد أمرني بلعن علي بن أبي طالب، ألا فالعنوه. وأمثال ذلك كثير..

---

(١) بحار الأنوار ج١٠٤ ص١٧، وشجرة طوبى ج١ ص٢٦٧.

ثالثاً: إن دلالة كلمة الأبرار على معانيها، لا يجب أن تكون بنحو استعمال المشترك في المعاني المتباينة، بل قد تكون الدلالة من خلال وجود حالات وخصوصيات للفظ تمكنه من تحمل المعاني المختلفة..

كما أن من الممكن إرجاع العديد من المعاني إلى معنى أوسع، يصلح للانطباق عليها جميعاً، كل في موقعه، وهو ما يعبر عنه بالقدر المشترك، الذي تتعاقب عليه، أو حتى تلتقي فيه الخصوصيات المختلفة، بل المتباينة..

«يَشْرَبُونَ»:

واللافت هنا: أن الله سبحانه حين ذكر جزاء الأبرار بدأ بالشراب، لا بالقصور، ولا بالأشجار والأنهار، ولا بغير ذلك من أنواع الفاكهة، والمطعومات، ولا غير ذلك من النعم المختلفة.

ولعل سبب ذلك هو ما ثبت من طرق السنة والشيعة، من أن أول علامات النجاة في يوم القيامة، هي الشرب من حوض الكوثر، من يد إمام الأبرار، وقسيم الجنة والنار، الإمام علي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، وذلك هو المنقذ في يوم العطش الأكبر[1]..

وبالمناسبة، فإن البشارة التي بشّر بها علي الأكبر أباه، حين استشهاده هي قوله: **«هذا جدي رسول الله [صلى الله عليه وآله] قد سقاني بكأسه شربة لا أظمأ بعدها»**[2]، أو بقوله: **«إن لك كأساً مذخورة»**[3].

---

(١) راجع كتاب المزار ص٣٣٥.

(٢) بحار الأنوار ج٤٥ ص٤٤، والعوالم ص٢٨٧.

(٣) راجع: مقتل الحسين للخوارزمي ج ٢ ص ٣١ والعوالم (مقتل الحسين عليه السلام) ص ٩٥ ومقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم ص ٣٢٤.

ومن جهة أخرى: فإن بعض الروايات تذكر: أن آخر ما يحاول فيه إبليس أن يضل به الإنسان هو: أنه حين يحضره الأجل يعطش عطشاً شديداً، فيعرض عليه إبليس قدحاً من ماء، ويقول له:

«إن سجدت لي أسقيك منها، فإذا سجد له، لم يسقه أيضاً منها، ويموت كافراً»..

«مِنْ كَاسٍ»:

ثم إنه قد جاء التعبير في الآية بكلمة «كَأس» دون كلمة قدح، أو كوب. ثم إنه قال: ﴿مِنْ كَأسٍ﴾، ولم يقل بكأسٍ.. فلماذا يا ترى كان ذلك؟

وللإجابة على ذلك نقول:

يقول أهل اللغة: إن القدح قد يكون مملوءاً، وقد يكون فارغاً. وكذلك الكوب. أما الكأس، فلا تكون إلا مملوءةً، فلا يقال: أعطني كأساً فارغة مثلاً..

وذلك يوضح لنا: أن اختيار كلمة «كَأس» إنما هو لأجل بيان حالة الوجدان المستمر والدائم لما يشربونه، فهي دائمة الاتصاف بكونها كأساً..

وبذلك يكون تعالى قد جعل الأبرار يعيشون:

١ـ لذة الشرب..

٢ـ لذة الطمأنينة إلى وجدان مشروبهم..

٣ـ لذة استمرار وجدانهم له.

فما دامت الكأس موجودة، فلن يواجههم عطش بعد الآن، فتتوافق اللذة القلبية الشعورية مع لذة الحس بالمشروب، وموافقته للمطلوب..

وبهذا يتضح أيضاً سبب التعدية بـ «من» لا بـ «الباء»..

فأولاً: إن الباء في مثل هذه المواضع يفهم منها أن في مدخولها معنى الآلة والوسيلة لإيصال الشارب إلى مشروبه، وذلك معناه: أن الوسيلة والآلة شيء، وما يراد التوسل بها إليه ليس موجوداً فيها بالفعل، بل هي فاقدة له، مع أن كلمة «**كأس**» تشير إلى حصول الامتلاء لها، وأن ما يريده الشارب موجود فيها فعلاً. فالإتيان بالباء لا يصلح هنا، إذ قد يتوهم من الباء، ما يتنافى مع إرادة التطمين بوجود المقصود كما أشرنا..

وثانياً: إن كلمة «**من**» تفيد التبعيض، ففيها إيحاء، بأن المشروب لن ينفد من ذلك الكأس، بسبب الشرب منه، مهما تعدد هذا الشرب، أو تواصل.. فهي دائمة الاتصاف بكونها كأساً.. ودائمة الاحتواء على ما يشرب، ما دام أن ما يشرب هو بعض ما فيها، حسبما أفادته كلمة «**من**» التبعيضية..

«كَانَ مِزَاجُهَا»:

أما لماذا جاء بكلمة «**كَانَ**» في قوله ﴿**كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا**﴾، مع أنه كان يمكن أن يقول: «**كأساً مزاجها**».

فقد يقال: إن السبب فيه هو أن تصير كلمة «**كافوراً**» منصوبة، مراعاة للناحية الجمالية، الناشئة عن التناسق الظاهر من رعاية القافية في الآيات السابقة واللاحقة..

غير أننا نقول:

إننا لا نمانع في أن تكون الناحية الجمالية مقصودة أيضاً، لما لذلك من تأثير في الراحة النفسية للقارئ والسامع، ولغير ذلك..

ولكن ليس ذلك هو كل السبب، إذ لعل السبب الأولى والأهم هو

أن كلمة «كان» تدل على الكينونة والتحقق. ولا شك أن إفهام هذه الكينونة للأبرار، ومن يريد الله تعالى أن يهديهم سبيل الأبرار مطلوب ومحبوب، أي أنه يريد أن يقول لهم: إن هذا المزاج ليس أمراً عارضاً، يمكن أن يزول ويتخلف، بل هو أمر داخل في كينونة تلك العين، وفي عمق حقيقة ما يحويه ذلك الكأس..

ولأجل ذلك جاءت كلمة «عيناً».. لتؤكد على أن هذه الكأس لا تقبل النضوب، بل هي عين تتفجر، والمزاج الكافوري داخل في حقيقة تلك العين، وتلك الكأس، وفي كينونتها ووجودها..

وكلمة «كان» هنا.. هي نظير كلمة «كان» الواردة في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾، حيث تفيد ثبوت ذلك وتحققه بصورة لا تقبل التغير والتبدل.

«مِزَاجُهَا كَافُوراً»:

ويبقى سؤال: لماذا قال: «**مزاجها كافوراً**»، ولم يقل: «**مزجت بكافور**»؟.

ويمكن أن يكون الجواب: هو إرادة بيان هذه الكينونة، والأصالة، والثبات للمادتين الممتزجتين، وأن المزاجية أيضاً قد جاءت في أصل التكوين والنشأة..

ولو أنه قال: مزجت، لكان المزج عارضاً على أمرين كانا منفصلين بالأصالة، وليس للتمازج أصالة في نفسه. مع أن المقصود هو بيان أن التمازج أصيل في نشأة هذه الحقيقة القائمة فيما يشربونه من هذا الكأس.

والخلاصة: أن المراد هو إفهامنا: أن الأصالة للمزاج وللممزوج، وليست للممزوج وحده..

وأما السؤال عن السبب في أنه يريد بيان هذه الأصالة لكلا الأمرين؟!.

فتتضح الإجابة عنه من خلال وضوح السبب في اختيار الكافور هنا، والزنجبيل فيما يأتي..

«كَافُوراً»:

ويلاحظ أنه تعالى قد ذكر الكافور هنا، دون الزنجبيل الذي ذكره في آية ستأتي..

ولعل سبب ذلك هو: أن للكافور خصوصية تناسب حياة الأبرار في هذه الدنيا، وللزنجبيل خصوصية تتناسب مع اعتباره جزاءً للأبرار في الآخرة..

إذ إن للطيب المسمى بالكافور خصوصيات، ويرمز لأمور يحسن للأبرار اختيارها، والتحلي بها، لأنها تناسب حالة البر فيهم.

فالكافور طِيبٌ طَيّب الرائحة، يبعث في النفس نشوةً وارتياحاً..

ومن خصوصياته: أن فيه صفة البياض والنقاء..

وهو يرمز إلى الطهارة والصفاء.

ومن خصوصياته: أنه يطغى على كل ما عداه، ويهيمن عليه، فلا مجال لما هو كريه، ومؤذ، بل لا بد له من أن يتلاشى ويختفي..

ومنها: أنه كافور، أي قادر على أن يغطي، ويطمس، ويخفي كل ما لا يكون مناسباً، وكل ما هو مكروه ومنفر..

وهو يهيمن حتى على بعض الغرائز، ويقهرها، ويضعف من طغيانها، حيث يقال: إن له بعض الأثر في الغريزة الجنسية..

وفيه أيضاً صفة البرودة، التي قد يقال: إنها ترمز إلى حالة الهدوء

والتأمل والتعقل..

وكل ذلك يرمز إلى حالات نفسية، وصفات ومزايا يرغب بها الأبرار، ويسعون إليها، بحسب المعاني المتكثرة التي تختزنها كلمة: **«الأبرار»** حسبما ألمحنا إليه فيما سبق.

ولكن ذلك كله في الحدود التي رسمها الله لعباده، من دون ابتداع في الدين لما لم يكتبه الله على الناس..

والأبرار هنا هم الذين يشربون، أي يختارون الشرب من كأس مزاجها كافوراً، كما يختارون سواه، مثل أنهم يوفون بالنذر، ويطعمون الطعام، ويخافون، و.. الخ.

فكلمة **«يشربون»** كأنها تشير إلى معنى كنائي عن دخول الإيمان والإخلاص والتقوى، والعمل في عمق وجودهم، فهو كما يقال: شرب كأس الموت، وشرب كأس العلم، وما إلى ذلك..

فهي عين لا تنضب، بل تستغرق كل وجودهم، وتفجر فيهم الطاقات الإنسانية، تفجيراً، كما سيأتي.

حذف متعلق الشرب:

وربما يمكن تأييد أن الحديث إنما هو عن فعل الأبرار في هذه الدنيا، بأن المتعلق للشرب لم يذكر في الآية. فلم يقل: يشربون أي شيء!! فهل يشربون ماءً ممزوجاً بالكافور؟ أم يشربون لبناً، أم عسلاً، أم ماذا؟!

وربما يكون ذلك لإفساح المجال لفهم ذلك المعنى الكنائي المستوعب، لكل ما تقتضيه صفة الأبرارية، التي تتسع للعديد من المعاني، وتكون معاني الأبرارية فيهم هي التي جعلتهم يفجرون تلك العين تفجيراً عظيماً..

المزاج متأصل في عمق الذات:

وإذا تابعنا المعنى في سياقه الكنائي هذا، وتجاوزناه إلى كونه قادراً على الإلماح إلى المعاني التي يراد الإيحاء بها إلينا على سبيل التعلم والإرشاد لكونها ممكنة في حقنا، وإن كانت غير متصورة في حق الأبرار، وهم الأئمة الأطهار عليهم السلام، فإذا تابعنا المعنى في هذا السياق فإنه يصبح بإمكاننا تصوره حقيقة كامنة في داخل وجود البشر وذواتهم.. فنتصور النفس الأمارة، التي تسعى في العادة لإثارة روائح كريهة، قد أصبحت أسيرة النفس اللوامة، ويهيمن عليها العقل، والشرع، والفطرة الهادية، وغير ذلك من وسائل الهداية، التي أصبحت بمثابة الكافور الذي يهيمن على وجودهم كله بروائحه الطيبة والذكية، والقاهرة والقوية، ويبعث في النفس طمأنينة وسكوناً، وبرداً، وهدوءاً، يحجزها عن التوثب لما هو حرام، وتحتفظ ـ من ثم ـ بحالة النقاء والصفاء، والطهارة، التي تتجلى للناس طيبا كافورياً، رائعاً وقوياً..

وتصبح النفس الأمارة مع الكافورية في عناق، وفي انسجام، وتمازج حقيقي، وتصير أمارة بالصلاح وبالخير وبالتقوى، بعد أن كان من المفروض أن تكون على ضد ذلك، وتتحول بذلك هي والنفس اللوامة إلى بركان يفجر ويثير كل كوامن الخير والصلاح في تلك العين الغزيرة، ويفجرها تفجيراً قوياً بوسائل قادرة على هذا التفجير..

وهذه الأصالة الحقيقية، والتمازج الراسخ، والنابع من عمق الذات، يجعل كل قوى النفس: من غريزة، وطموح، وميزات وصفات ـ يجعلها ـ طافحة بالخير، وتمثل طاقة وعنفواناً له، وثورة فيه، وتصبح كل هاتيك الغرائز والطموحات يهيمن عليها كافور النفس اللوامة، مغمورة به، يتعاونان على إنتاج المزيد من النقاء، والطهر، والخلوص، والصفاء..

الأبرار.. وعباد الله:

ثم إنه تعالى قد عبر أولاً بالأبرار، ثم ساق الحديث باتجاه عباد الله، فقال: **﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾**..

وربما يكون ذلك ـ وحده ـ مبرراً للاعتقاد بأن المراد بالأبرار في الآية، موجودات عالية جداً، تجلت بهم صفات البر بصورة حقيقية وتامة، فاستحقوا هذا المقام المحمود.. وهم خصوص أهل البيت [عليهم السلام] الذين لا بد أن يكونوا الأسوة والقدوة للناس جميعاً.

والحقيقة هي: أن أبرارية أولئك الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم، كانت هي الطريق الذي أوصلهم إلى درجة العبودية الحقيقية، التي هي أسمى مقام، وأشرف وسام.. كما أشرنا إليه أكثر من مرة..

فالعبودية بالمعنى الأتم، قد تجلت في النبي الأكرم [صلى الله عليه وآله]، في أهل بيته الأبرار الأطهار عليهم الصلاة والسلام..

وهذا يعطينا: أن الآية لا تريد فقط أن تحدد الأسوة والقدوة للناس.. وإنما تريد أن تقول أيضاً: إن الأبرارية قد أوصلت الأبرار إلى مقام العبودية..

وأخيراً نقول:

إنه تعالى قد تحدث عن فعل الأبرار بصيغ تناسب الحياة الأخروية. فقال سبحانه: **﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾**.. وذلك لكي يجسد لنا مدى فاعلية وتأثير تلك الصفات، ومدى أهميتها، وحسنها، وخلوصها.. ليدفعنا إلى سلوك طريقهم، والالتزام بنهجهم، والاهتداء بهديهم، والاقتداء بهم..

اختلاف سياق الآيات:

والذي يقرأ آيات هذه السورة يجد أن السياق قد اختلف في بيان النعم الإلهية للأبرار..

فهو حين ذكر صفات أفعال الأبرار، لم يذكر أي نعمة، إلا نعمة الشرب من عين كان مزاجها كافوراً.. كما أنه قد اعتبر أن هذا الشرب هو فعل للأبرار، يمارسونه باختيارهم وبإرادتهم.. وأنهم هم الذين يثيرون العين التي يشربون منها، ويفجرون ماءها تفجيراً..

وهذا السياق منسجم تماماً مع السياق الذي بيّن به صفات أفعالهم في الدنيا..

وكأنه يريد أن يقول لنا: إن هذا الشرب، وإن كان أخروياً، لكنه لم يأت على سبيل الجزاء، وإنما جاء تجسيداً لفعلهم في الدنيا، فهو شبيه بفعل المطاوعة الذي هو نتيجة الفعل من الفاعل، كما في قولك: كسرته فانكسر، أو لويته فالتوى، ونحو ذلك..

ولأجل ذلك، نسب الشرب إليهم، وأنه.. بفعلهم واختيارهم، ثم ذكر أن ما يشربونه يكون مزاجه من جنس الكافور. أما الذي سوف يعطى لهم على سبيل الجزاء، فهو من جنس آخر، وهو الزنجبيل، وسيأتي إن شاء الله الحديث عن الفرق بينهما، وعن سبب اختيار «**الزنجبيل**» بالذات..

للتوضيح والبيان:

ولكي تتضح الخصوصية التي أراد الله سبحانه أن يفهمنا إياها من خلال التبديل السياقي للآيات، نقول: إنه تعالى حين أراد أن يصف حالهم وأعمالهم قال: **﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾**.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً..﴾.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾.

وحين جاء دور الجزاء الإلهي لهم، نجد السياق يتغير، فهو تعالى يقول:

﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾.

﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾.

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾.

ويقول أيضاً:

﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا﴾.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً..﴾.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ..﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾.

فلم يقل: يشربون. بل قال: ﴿يُسْقَوْنَ﴾، فنسب الفعل لغيرهم.

ولم يقل: بكأس. ولم يقل: كافوراً. كما أنه، وإن كان قد وصفها بأنها عين، ولكنه لم يذكر تفجيرها من قبل الأبرار..

ثم إنه تعالى يتابع بيان ما يجزيهم به.. إلى أن يقول: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾.

وذلك كله يفيد: أن ثمة معان، وخصوصيات معينة، يريد الله سبحانه لنا أن نتوجه إليها، لأنها ذات قيمة وأهمية تفرض علينا أن نثقف أنفسنا بها.

كل ما في القرآن مهم لنا:

وملاحظة أخرى نسجلها هنا هي: أن نفس اختيار الله سبحانه من الأواني ما هو من الفضة، ومن الأكواب ما هو قوارير، ومن العين ما يسمى بالسلسبيل.. يؤكد لنا على حقيقة: أن ثمة معان دقيقة يريد لنا أن نتلمسها، ومقاصد هامة يريد لنا أن ننالها، وغوامض يريد لنا سبر غورها، وأن ثمة أسراراً لا بد من الوصول إليها.

وحيث إن الحديث قد بلغ بنا إلى هنا، فإنني أحب لفت النظر إلى أمر هام، هو:

أن البعض قد يدَّعي: أن أمثال هذه الأمور التي نتوقف عندها ليست بذات أهمية.. ثم هو يحاول التشنيع علينا بالقول: إن الغربيين قد وصلوا إلى القمر، وفقهاؤنا وعلماؤنا لا يزالون يبحثون في أحكام الحيض والاستحاضة..

فلماذا ندقق في المراد من الأرائك، ولماذا نبحث عن السلسبيل، وعن القطوف الدانية، وعن الأكواب من فضة، وعن عرش بلقيس، وعن الطوفان، وعن صنع السفينة، وعن قصة الهدهد، وعن آية تحريم ما حرمه النبي [صلى الله عليه وآله] على نفسه يبتغي مرضاة أزواجه، وعن الحيض، وعن شكوك الصلاة، وعن الاستئذان قبل صلاة الفجر، وعن آية

الدين التي هي أطول آية في القرآن.. إنه يقول: إن البحث عن ذلك وعن نظائره: لا يجدي، ولا يفيد شيئاً.

وأن اللازم هو البحث عن الإسلام السياسي، وعن النظرية الاقتصادية الإسلامية، وعن دور المرأة في السياسة، وعن ديمقراطية الإسلام، وعن العولمة، وعن حركة الأرض، أو حركة الشمس، وعن.. وعن..

ونقول:

إن هذا كلام باطل جزماً، ولا يحق لأحد أن يطلق مثل هذه الدعاوى، التي تستبطن الاعتراض على الله سبحانه.. فإنه إذا كان الله سبحانه يريد أن يفهمنا هذه الأمور، وإذا كان الرسول هو الذي ذكر لنا ذلك كله، وغيره حتى أحكام الحيض وغيرها، فإن الله ورسوله أعلم بما يصلحنا، وإن البشر أذل وأحقر من أن يعترضوا على مقام العزة، والجلال، والعظمة الإلهية، وعلى ساحة قدس الرسول الأعظم [صلى الله عليه وآله]..

على أن من البديهي: أن أحداً ممن يسعى لكشف الحقائق القرآنية وغيرها، لم ينكر لزوم ممارسة جميع العلوم النافعة الأخرى أيضاً.. ولكن بشرط واحد، وهو حفظ التوازن ومعرفة الناس لأحجامهم، ولحدودهم، فلا ينصبون أنفسهم آلهة، ويحكمون بدون روية، ومن دون علم، في أمور يقول خالق الكون والحياة، والحكيم العليم، والبصير الخبير، إنها ضرورية، وهامة، وحساسة، ولا بد منها، ولا غنى عنها..

علماً أنه حتى الثقافة الدينية أيضاً، لابد أن تكون متوازنة وشاملة للأخلاق، والعبادات، والتفسير، والحديث، والأحكام، الخ.. فإنه لا يغني شيء عن شيء، فكل شيء لا بد منه في موقعه، إذ إن الإخلال به، فيه

إدخال للنقص على موقع يفترض أن يكون على غير تلك الصفة، ولربما يكون الإخلال به إخلالاً بالمسيرة الحياتية، وبسعادة الإنسان، فإنه لا يمكن أن يسد الصعود إلى القمر، الفراغ الذي يحدثه الجهل بأحكام الحيض، أو بأحكام الشكوك في الصلاة، أو بأحكام البيع، أو ما إلى ذلك. ولا تسدّ أحكام الحج الفراغ في أحكام الصوم، وفي النواحي الأخلاقية، أو في فهم معاني القرآن ومراميه.. الخ..

كما أن ما هو ضروري في الحياة لا ينحصر في الأمور المادية، ولا في اختراع الآلات المتطورة. فقد يستغني الإنسان عن هذه الاختراعات، ويستغني عن الصعود إلى القمر، ولكنه لا يستغني عن الصلاة، ولا عن أحكام الحيض والجنابة مثلاً..

وقد عاشت البشرية المئات والآلاف من السنين، بدون كل تلك الاختراعات، ولكنها لم تستغن عن الصدق، وعن الوفاء بالوعد، وعن.. وعن..

إن كل ما يريد الله أن يعلمنا إياه مهم جداً لنا أما الذي لا يهتم الله تعالى ورسوله [صلى الله عليه وآله] به، فإن بإمكاننا تأجيله، أو حتى الاستغناء عنه..

إن الله سبحانه يريد أن يبني الشخصية الإنسانية (على المستوى الشخصي، والاجتماعي، والسياسي، وغير ذلك) بناءً متوازناً.. لأن أي خلل يحدث في أي جهة من جهات وجود الإنسان، وحياته، فإنه سيؤثر سلباً على الجهات الأخرى، حتى في حياته الاقتصادية والاجتماعية، وغير ذلك.

كما أنه حين يستجمع الإيمان بالغيب كل عناصره، فسيكون أثره الإيجابي في حياة الإنسان أكثر بروزاً مما لو كان في بعض جوانب هذا الإيمان خلل أو نقص، فإن ذلك سيؤثر على درجة الالتزام، وعلى

التفاعل مع العبادة، وعلى الطاعة، وعلى درجة الإخلاص في العمل، والخلوص في النوايا..

بل نحن بحاجة إلى جميع ما حكاه الله عن الماضين، وعن أحوال الدنيا.. كقصة الطوفان، وعرش بلقيس، وما جرى للهدهد. وتهديدات سليمان له.. ثم اكتشافه عرش بلقيس.. وحمله إليها رسالة النبي سليمان [عليه السلام]. وإلى المعرفة بصناعة النبي نوح [عليه السلام] للفلك، وما إلى ذلك، لأن القرآن قد حكى ذلك كله لنا، ليثقفنا به، وليبني به شخصيتنا ومفاهيمنا، ومشاعرنا والخ.. وما ذلك إلا لأن الإسلام كل متكامل، يريد أن يبني عقل الإنسان، وفكره، وعقيدته، وثقافته، وعاطفته، ومشاعره، ومفاهيمه، ومزاياه، وخصائصه الأخلاقية، وغرائزه، وحتى بنيته الجسدية أيضاً..

ويريد أن يبني المجتمع الإنساني وفق ضوابط وقواعد، وقيم. وإن أي خلل يحدث في أي موقع وأية جهة، فسوف يؤثر سلباً على الجهات الأخرى، وليس بالضرورة أن نكتشف نحن ذلك الفساد وكيفياته، وحالاته، وتأثيراته..

فليس لأحد أن يصنف قضايا الدين والإيمان، ومعارف القرآن، فيقول: هذا مهم، وهذا ليس بمهم. فإن إثارة شعور من هذا القبيل فينا سيؤثر على طاعتنا لله، وعلى معرفتنا به، وقربنا منه، وعلى حميمية مشاعرنا تجاهه.

فإذا كان هناك ما ليس بمهم، فالله تعالى هو الذي يحدده، ويشير إليه. وأما ما اهتم الله ورسوله به، فسجله الله في كتابه الكريم، وكلّف جبرئيل بتنزيله، وأوكل إلى النبي [صلى الله عليه وآله] تبليغه، وكُتاب الوحي بتدوينه، والألسن بتلاوته، والملائكة بتسجيل الثواب عليه؟!..

فلابد أن يكون مهماً لنا، تجدر بنا معرفته، والاستفادة منه، والاهتمام به..

وألا تعتبر هذه النظرة إلى ما جاء به الرسول الأكرم [صلى الله عليه وآله] عن الله سبحانه، نوعاً من الاستهتار والاستخفاف بالله وبرسوله. وألا تدل على خلل في البنية الإيمانية، ونقص في الثقافة القرآنية؟!..

إن عدم إدراكنا لأهمية بعض الأمور، وعدم إحساسنا المباشر بفائدتها، لا يعني أنها عديمة الفائدة، أو قليلة الأهمية ـ أليس نعلم أن الله يقبل الصلاة بقراءة سورة الكوثر، ولا يقبلها بقراءة سورة البقرة، إذا نقصت منها آية واحدة؟!.

إن هذه التصنيفات المرتجلة، والتي تفوح منها روائح كريهة لنزعات الهوى، وتأثيرات إبليسية، ووسوسات شيطانية، لم تستند إلى أي دليل شرعي أو عقلي قطعي، وهي تحدث قطعاً أضراراً بالغة في مختلف الحالات، وعلى جميع المستويات.

إن القرآن هدى للمتقين بكل كلماته وحروفه، وإشاراته ودلالاته، وفي مختلف قضاياه، وقصصه وإخباراته، وفي كل المجالات التي تحتاج إلى الهداية: ومنها الأخلاق، والعقائد، والأحكام.. و..

إن مشكلتنا هي نقص الثقافة القرآنية والحديثية عن الرسول الأكرم [صلى الله عليه وآله] والأئمة الطاهرين [عليهم السلام] ثم في التخمة القاتلة بالأفكار المسمومة التي تلقاها هؤلاء الناس عن أهل الضلال والانحراف، والانبهار غير الواعي بما يلقونه إليهم من زخرف القول غروراً، مع أنهم لو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا أنه ليس في كلام الله تعالى ورسوله [صلى الله عليه وآله] والأئمة [عليهم السلام] لغو ولا هذر، بل كله يأتي وفق الحكمة، والمصلحة، غير أن هؤلاء يقولون: نؤمن

ببعض الكتاب، ونكفر ببعض.

إن الإسلام يريد لنا ثقافة واحدة، منسجمة، ومتوازنة، وعميقة، وصحيحة، وواقعية، لها طابع واحد، هو الواقعية التي لا يمكن إدراكها بدون الهداية الإلهية.. وبدون ذلك فسيكون الخلل العظيم، والخطر الجسيم في الوعي، وفي الالتزام، وفي التفكير، وفي المشاعر، وفي الصفات والمزايا، وفي الصفاء الروحي، وفي العلاقات، وفي المواقف، وفي السلوك، وفي كل شيء.. لأن للثقافة التأثير القوي والعميق في ذلك كله..

وآخر كلمة نقولها هي:

إن الجهل بالعقيدة ينعكس جهلاً بالله، وبالدين، وبالأحكام، وبالعبادات، وبالمعاملات، التي يكون لها بدورها انعكاساتها وآثارها السلبية على الفرد، وعلى المجتمع..

والخلل في البنية الإيمانية ينعكس خللاً في الأخلاق والسلوك والتعامل مع الآخرين، التي بدورها لها انعكاساتها وآثارها السلبية على العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

والخلل في البنية الثقافية القرآنية يحدث تفاوتاً في الفهم، وتبايناً وانقساماً في الآراء والمواقف، ويخلق حالة من عدم الانسجام، وعدم التوازن في المجتمع، لا يعود ينفع معها الحديث عن أولويات اقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو غيرها..

والله تعالى يريد أن يبني الإنسان بما هو إنسان من الداخل، كما يريد أن يبنيه من الخارج في وقت واحد، ويريد أن يبنيه في كل شؤونه الروحية، والنفسية، والعقلية، والفكرية، والمفاهيمية، والثقافية، والعقائدية، والأخلاقية، والمشاعرية، والعاطفية، الخ..

كيف يتحدث القرآن عن الغيب؟

ومهما يكن من أمر، فإن الله تعالى حين يخبرنا في كتابه الكريم عن الأمور الغيبية، التي لا ينالها العقل والحس، فإنه يصوغ الفكرة بقوالب لفظية، كنائية، أو مجازية، أو غيرها، لتتمكن عقولنا من أن تنالها، ثم يحول هذا المعقول إلى شأن حسي، مشاعري، حياتي، وحيوي للإنسان..

فالقوالب اللفظية تقرب الغيب إلى العقل، ثم يحولها إلى الحس، لتنساب في المشاعر، ولتصبح جزءاً من الكيان والذات.

وهكذا الحال في مختلف شؤون الدين، والإيمان، والتشريع، وغيرها مما حملته لنا الآيات الشريفة، والروايات الكريمة.

وقد جاءت بيانات هذه السورة المباركة وفق هذه القاعدة، فلنتابع البحث عن معاني آياتها، من خلال وعي مفرداتها..

❊ ❊ ❊

الفصل السادس:

{عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً}

قال تعالى:

﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾.

ولنبدأ بالحديث عن مفرداتها فنقول:

«عَيْنَاً»:

١ـ هل هذه الكلمة **«عَيْناً»** بدل من كلمة **«كأس»**؟!.. أم هي بدل من كلمة **«كافور»**؟! أم هي منصوبة على المدح، أم بنزع الخافض؟!..

بحثٌ لا نريد الخوض فيه، وإن كنا نرى أن بدليتها من كلمة كأس أكثر انسجاماً مع المعنى الذي يراد التركيز عليه، كما سيتضح..

٢ـ على أننا قد أشرنا فيما سبق: إلى أنه تعالى يريد أن لا يتوهم أحد: أن الكأس إذا شُرِبَ منه أو أُرِيقَ بعض شرابه، سوف ينقص، أو سوف ينضب، الأمر الذي يجعل الطالب محتاجاً إلى البحث عن بديل لما فقده..

فلذلك أخبر: أن هذه الكأس هي عين تفجر تفجيراً ـ لكي يفيدنا أربعة أمور، هي من الصفات الملازمة للعين.. وهذه الأمور هي التالية:

الأول: أن العين نابعة، دائمة العطاء..

الثاني: أنها لا تنقص أبداً.. لأنها دائمة التفجر..

الثالث: أن المدد لها لا يأتي من الخارج، بل هو ذاتي فيها.. فلا خوف من الانقطاع، ولا من عدم الوصول..

الرابع: إفادة حالة التجدد والاستمرار.

«يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ»:

ثم إنه تعالى، بعد أن أخبر عن فعلٍ يصدر من الأبرار، جاء بهذه الآية لتفيد من خلال كيفية تركيبها، ومن خلال التعبير بالفعل المضارع «يشرب» الدال على التجدد، والتوالي: أن هذا الشرب متيسر للأبرار باستمرار، فهو ليس أمراً عارضاً، بل هو طريقة حياة، وقاعدة مطردة.. فلا خوف من الحرمان، والانقطاع، ولن يكون ثمة أي إحساس بالفقدان، ولذلك فلن يكون ثمة تشوق منهم لأمر غير حاضر ولا حاصل..

وقد أكد ذلك قوله «عَيْناً»، حسبما تقدم، فانسجم الظهور السياقي، مع سائر الظهورات، ومع إيحاء الكلمات..

العبادية.. والشرب من العين:

ثم قدم سبحانه الدليل والتعليل، فذكر أن الأبرار إنما يشربون بتلك العين لكونهم عباداً لله تعالى.. فعباديتهم تقتضي أن يكون شربهم من عين لها تلك الميزات والصفات..

«بِهَا»:

وقد قال سبحانه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، ولم يقل: «يشرب منها».. مع العلم بأن اختلاف حروف التعدية يشير إلى اختلاف الخصوصية، فشربه، وشرب منه، وشرب به، وشرب فيه، كلها تشير إلى خصوصيات تختلف وتتفاوت، باختلاف حروف التعدية المستخدمة في المورد..

فلا مجال إذن لقبول قول بعضهم: إن شرب بها، وشرب منها، وشربها بمعنى واحد..

إذ إن شربها يفيد: أنه يشرب ما فيها كله، أو بعضه..

ويشرب منها، معناه: أنه يشرب من مائها..

ويكون المقصود من هاتين الجملتين هو بيان حالة العين والكأس المشروبة..

أما لو قال يشرب بها.. فالمقصود بيان حالة الشرب نفسه، على سبيل إشراب اللفظ لمعنى آخر غير معناه، ثم يتعدى هذا اللفظ بواسطة حرف جر يناسب هذا المعنى الجديد..

بيان ذلك:

إنك إذا أشربت كلمة «**شرب**» معنى الارتواء مثلاً، فيصح تعدية كلمة «**شرب**» بالباء، فيقال: شرب بها، لتصبح دالة على أنه قد وصل إلى حد الارتواء بها.. وأن هذا الارتواء إنما كان بواسطة الشرب، لا بشيء آخر..

إذ إن: الشرب قد يتحقق، ولكن لا يحصل الارتواء، كما أن الارتواء قد يحصل بغير الشرب.

ويكون المعنى في الآية: عيناً يرتوي بها عباد الله.

ويكون المقصود بالباء معنى السببية، أي يرتوي عباد الله بسبب العين ـ ارتواءً ناشئاً عن الشرب منها..

فتضمين وإشراب كلمة «**شرب**» معنى الارتواء هو الذي أعطانا هذه الخصوصيات.

ولو أنه قال: يرتوي بها.. فقد يُتخيل: أن الارتواء قد حصل بغير الشرب.

فقولك: يشرب بها ـ قد مكنك من الاحتفاظ بالمعنيين، والاستفادة منهما معاً، وهما معنى الشرب ومعنى الارتواء، في آن واحد..

وقد اتضح بما ذكرناه: أنه لا يصح أن يقول: يشرب منها، لأنه لو قال ذلك لدلت كلمة «**من**» على التبعيض، مع أن المقصود هو السببية.

ولمعنى التبعيض إيحاء مرغوب عنه في هذا المقام بالذات، وهو الإيحاء بدخول النقص على الشراب الذي في الكأس، بواسطة الشرب، مع أن الآية بصدد إبعاد هذا الوهم كما قلنا..

عباد الله، أم عبيد الله:

وجاء التعبير بكلمة «عبَادَ» لا بكلمة «عبيد»، لأن العبيد إنما يرتبطون بأسيادهم من موقع مالكَية الأسياد لهم، وسلطتهم، وسيطرتهم، وحكومتهم عليهم، وقد تكون هذه الحكومة غير مرضية من قبل المحكوم، حيث يشعر بالقهر، ويرغب من التخلص من ربقة هذه العبودية، ربما لأنه لا ينسجم مع سيده أو لأنه لا يحبه، ولا يرضاه في باطنه، وإن كان ربما يتظاهر بذلك لسبب أو لآخر..

أما العباد، فالرابطة بينهم وبين سيدهم هي الطاعة، والانقياد، والرغبة، والمحبة، والأنس والوله والانسجام، والاندفاع إلى التقرب من السيد.. عن اختيار ورغبة من العبد..

فلا فرق بين العباد والعبيد، من حيث لزوم الالتزام بالطاعة للسيد، والانقياد له، ولا في الإقرار بمالكيته وسلطانه.

لكن الفرق هو في جهات أخرى، تدخل في نطاق دواعي ودوافع هذه الطاعة، وفي طبيعة العلاقة التي بين العبد وسيده.

ولأجل ذلك نلاحظ: جاء القرآن بكلمة «العبيد» في خمس آيات فقط، وذلك في سياق كلامه عن الجزاء الذي لا بد أن يأتي من موقع السلطة، والقاهرية، والمالكية..

وأن ذلك الجزاء إنما هو بما قدمت أيديهم، فهو يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾[1].

ويقول: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2].

وقال: ﴿وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾[4].

ولكنه قد عبَّر بكلمة «عبَاد» فيما يقرب من مئة مورد.. حيث إنه تعالى يريد أن يظهر ما ينبغي أن تكون عليه طبيعة العلاقة بين الربّ وعباده.. وأنها علاقة كرامة، ومحبة وطاعة، وتقرب له من قبل العبد، فلاحظ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[5].

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾[6].

وغير ذلك من الموارد التي تعد بالعشرات..

بل إنه سبحانه حتى حينما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[7]. إنما نفى صفة الشكورية عن عباده، ولم ينف، ولا ينفي عنهم صفة الطاعة والانقياد، والرغبة في التقرب منه تعالى، والأنس به..

---

(١) سورة آل عمران الآية١٨٢.

(٢) سورة الحج الآية١٠.

(٣) سورة فصلت الآية٤٦.

(٤) سورة ق الآية ٢٩.

(٥) سورة الحجر الآية٤٢.

(٦) سورة الزمر الآية٥٣.

(٧) سورة سبأ الآية ١٣.

الأبرار.. وعباد الله:

وقد أشرنا في ما سبق إلى ما ربما يكون سبباً في التحول عن التعبير بكلمة «أبرار» إلى كلمة «عباد».. **وقد قلنا:**

إن البر يطلق على عدة معان، مثل: المحسن، والمطيع، والقاهر، والواسع إلخ.. ولكنها معان تبقى مطلقة وعامة.. وقد أراد سبحانه أن يحددها، ويوجهها، ويربطها به تعالى، ويبين أن هذه الصفات للأبرار قد نشأت من كونهم عباداً لله، يمارسون هذا البر كعبادة لهم، مختارين لها، وبدوافع الحصول على القرب والزلفى.. ومع مزيد من الحب لله تعالى، والأنس به.

«الله»:

وقد صرحت الآية بلفظ الجلالة، وأظهرته، حيث قالت: **﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾**، مع أن السياق يتجه بنا إلى توقع الإتيان بضمير المتكلم بصيغة الجمع، فيقول: **«عيناً يشرب بها عبادنا»**.. ليتوافق مع الآيات السابقة: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾**.

﴿نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ﴾.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾.

فهذا الإظهار في موقع الإضمار، وتحول الكلام من كونه كلاماً عن الحاضر المتكلم بصيغة الجمع إلى التصريح بالاسم، الذي يعني تحول مسار الكلام إلى الغائب، لعله يرجع إلى جهتين:

الجهة الأولى:

إن إظهار الاسم بدل إضماره، قد يكون:

١ـ لأجل التبرك به، مثل اللهم صل على محمد وآل محمد، فإن

العدول عن ضمير الغائب إلى التصريح مرة أخرى بكلمة **«محمد»** هو لأجل ذلك..

٢ـ وقد يكون لأجل الاستئناس والتلذذ بذكره، ولعل المثال المذكور آنفاً، آت هنا أيضاً.. ولعل منه قوله [صلى الله عليه وآله]: **«حسين مني وأنا من حسين»**، بدل أن يقول: **«وأنا منه»**. فإن ذكر الحبيب باستمرار أمر لذيذ ومحبب للنفس.

٣ـ وقد يكون من أجل إظهار أهميته وقيمته العالية، وعظيم شأنه..

٤ـ وقد يكون لمجموع ذلك كله، بالإضافة إلى الإيحاء بخصوصيات معان يحتاج الطرف الآخر إلى استحضارها. قد ذكرنا طرفاً منها في عرضنا هذا..

فالتصريح بلفظ الجلالة في هذه الآية المباركة يحدث في ذهن المخاطب تداعيات لمعان كثيرة ومتنوعة.. فهو يحضر إلى الذهن معنى الألوهية، التي تستجمع صفات الذات وصفات الفعل، أو فقل: صفات الكمال: الجلالية، والجمالية، بأسمى وأعمق معانيها..

والإله هو العزيز، وهو الجبار، وهو الخالق، والرازق، والشافي، والعالم، والقادر، والكريم، والرؤوف، والرحيم، والحي، والقيوم، وهو مصدر الحياة، ومصدر المعارف الحقة، وغير ذلك مما هو معلوم.

فهو إذن المستحق للعبادة، الذي يرغب الأبرار في تعظيمه وتكريمه لنفس مقام ألوهيته وحباً لذاته المقدسة، فإن هذه هي عبادة الأحرار، الذين وجدوا الله أهلاً للعبادة فعبدوه ولم يعبدوه لمقام ربوبيته وحسب..

أما لو ذكره بصيغة الضمير، فقد لا يلتفت السامع إلى أي من المعاني والخصوصيات التي ذكرناها. كما أنه استبدل كلمة «إله»، بكلمة «رب»، فإن

الإيحاء سيقتصر على خصوصية الربوبية، التي هي الخصوصية الأبرز، وهي تعني الرعاية من موقع الحكمة، والفضل، والحب.

وهذا نظير اسم حاتم الذي أصبح عند بعض الناس، يوحي بالكرم والسخاء، واسم عنتر، الذي يذكّر بعض الذين يجهلون التاريخ، بالشجاعة ـ مع تحفظنا على صحة نسبة ذلك لعنترة ولحاتم، لأكثر من سبب ليس هنا مكان بيانه ـ فالتصريح بهذين الاسمين يحمل تداعيات الشجاعة والكرم، إلى ذهن هؤلاء الناس بصورة عفوية.. لكن لو تحدثت عنه بواسطة الضمير العائد إليه، فسوف تغيب هذه التداعيات عن ذهنك.

الجهة الثانية:

قد يقال: لو أنه جاء بالضمير فقال: «عبادنا»، فقد لا يُلْتَفَتُ إلى أنهم هم الذين اختاروا ذلك وفعلوه.. بل قد يتخيل أن هذا الأمر قد عرض لهم بسبب الإلف، أو العادة، أو المحيط، أو الغفلة، فانساقوا إلى العبادية عن غير شعور، واختيار، أو من دون تأمل وتفكير منهم..

ولكن إذا صرح بلفظ الجلالة، وقال: **«عِبَادُ الله»**، فإن ذلك يذكّر بالألوهية وبصفاتها، وبالجلال والكبرياء، ويشعرنا بأن ألوهيته تعالى هذه هي التي جعلتهم يعبدونه، ويسعون للحصول على رضاه، ويتقربون إليه..

فشربهم من العين هو شرب استحقاق وجزاء على عبادتهم الاختيارية.. وليس لأجل أن معبودهم قد وضعهم في مواقع معينة، أو فرض عليهم وضعاً أو سلوكاً بعينه، ثم أعطاهم هذه العين في مقابل ذلك إرضاء لهم، وإن لم يفعلوا ما يوجب استحقاقهم لذلك..

وبتعبير آخر: لو قال **«عبادنا»**، لأمكن توهم أن عباديتهم قد لا تكون باختيارهم.. أما مع التصريح بلفظ الجلالة، فلا يبقى مجال لاحتمال

كهذا.. لأن العبادية منطلقة من معرفتهم بأنهم أمام مقام الألوهية الحقيقية. فمن الطبيعي أن لا يختاروا سواها، وأن يندفعوا إليها، وأن يؤدوا مراسم العبودية لها.. باختيارهم.

فتكون عباديتهم لله من موقع الوعي، والمعرفة، والاختيار، والاندفاع.

«يُفَجِّرُونَهَا»:

ولا شك في أن القرآن كتاب هدى وبيان.. وعلينا أن نستخرج دقائق المعاني من كل كلمة، وكل حرف فيه.

وقد ذكر سبحانه في هذه الآية الشريفة: أن عباد الله هم الذين يفجرون تلك العين، باختيار منهم..

وقد ألمحنا إلى أن التعبير بالعين أيضاً يشير إلى الغزارة وإلى الاستمرار في العطاء، وعدم الانقطاع..

وقد يستظهر من الآية أيضاً: أن عباديتهم لله تعالى هي التي منحتهم القدرة على تفجيرها.. إذ إن الذي جُعِل موضوعاً للحكم في الكلام التام له حالتان:

الأولى: أن لا يكون له خصوصية سوى الإشارة إلى من ثبت الحكم له.. مثل: أكرم هذا الجالس. فليس لصفة الجلوس أثر في وجوب الإكرام..

الثانية: أن يكون للموضوع مدخلية في الحكم، وسببية فيه، مثل: أقتل القاتل، أو اقطع يد السارق، ومثل المسكر حرام، وأكرم العالم.. ونحو ذلك..

فالإسكار له مدخلية في الحرمة، وكذلك موضوعات باقي الأمثلة..

والأمر في الآية التي نتحدث عنها من هذا القبيل، فإن سر التفجير

للعين يكمن في كونهم عباداً لله سبحانه، إذ إن من لا يكون مطيعاً لهواه، ولا عبداً للشيطان، ولا يفقد توازنه عندما يرى المال، والجاه، والمنصب، وسائر المغريات.. ويكون عابداً وعبداً لله سبحانه فقط.. فإنه سوف يتمكن من الوصول إلى الله، ومن الشرب من عين الخيرات، شرباً هانئاً روياً، يعطيه القدرة على تفجير تلك العين بصورة مؤكدة وقوية، ويحقق الرضا والاكتفاء والوصول إلى درجة السلام، والأمن، والغنى الذاتي، وكل ذلك يحصل بإرادة واختيار منهم..

وتفجيرهم لهذه العين تفجيراً، معناه: أنها تملك مخزوناً عظيماً وهائلاً، لا ينتهي. ونفس كونها عيناً، معناه: أنها غزيرة، وأن فيها قوة واندفاعاً، وهو اندفاع دائم ومستمر، كما دل عليه المفعول المطلق، وهو قوله «**تفجيراً**» الذي جيء به لتأكيد عامله..

وكونها عيناً، يشير أيضاً إلى الغنى بها، فلا يحتاجون إلى غيرهم، وأصبح مستقبلهم بيدهم، بل هم الذين ينتجون ما يسعدهم، ولا يخشون من حرمان الآخرين لهم.

وهذه الأمور كلها حين يشعر بها الإنسان، فإنه يعيش حالة الأمن والسلام، والرضا، والاطمئنان للمستقبل.

وقد قلنا: إن الآية تتحدث عن الأمور بواسطة الكنايات والاستعارات، التي هي أبلغ من التصريح، لأنها تتضمن الدعوى مع مبرراتها الموضوعية، وأدلتها الحسية..

وخلاصة ما ذكر في هذه الآيات عن الأبرار: أن عباديتهم لله تعالى، تؤهلهم للشرب من عين الخيرات، حتى إنهم يفجرونها تفجيراً، ويحصلون على الاكتفاء الذاتي بسبب ارتباطهم بالله سبحانه، الذي هو مصدر

الفيوضات، والقدرات كلها، ومصدر المعرفة، والعطاء، والقوة، والخلق، والرزق، وكل نعمة. وهم يملكون مستقبلهم، ولا يحتاجون إلى أحد سوى الله.. وهم يوفون بالنذر، ويخافون. ويطعمون إلخ..

وذلك كله يجعلهم يستحقون الجزاء والعطاء، والكرم، واللطف، والفوز بالتالي بمقامات القرب والرضا منه تعالى.

* * *

الفصل السابع:

{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً}

قال تعالى:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾.

«يُوفُونَ بِالنَّذْرِ»:

وتستمر الآيات في بيان أسباب نيل الأبرار الفيوضات خاصة، والنعم في الدنيا..

وهي توجب بدورها نيلهم لفيوضات وخيرات تكون جزاءهم في الآخرة.

وبعد أن ذكر الله سبحانه أن من صفة الأبرار، أنهم: ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾، وأشار أيضاً إلى أن هذه الكأس هي عين تحقق الري، والاكتفاء، والغنى.. وهم يختارون تفجيرها.. لارتباطهم بمصدر العطاء والفيض، وهو الله سبحانه.

إنه تعالى بعد أن ذكر ذلك وسواه مما تقدمت الإشارة إليه، قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

والمقصود في هذه الآيات، جماعة بعينها، هم محور الحديث في هذه السورة.. **والسؤال هو:**

إنه حين بدأ بذكر صفات الأبرار، قدم صفة الوفاء بالنذر على سائر الصفات، التي منها كونهم: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾.. ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾.. إلى آخر الآيات؟.

فلماذا قدم هذه الصفة بالذات يا ترى؟!

ولعل الجواب على هذا السؤال هو:

أن النذر هو تعهد، والتزام أمام الله سبحانه بالعمل بأمر مّا..

والذي نعرفه عن البشر أنهم في تعهداتهم لبعضهم أوفى منهم في تعهداتهم أمام الله سبحانه..

وذلك لغفلتهم، أو لضعف معرفتهم به تعالى، أو لغير ذلك من أمور، يمكن أن يكون الجامع فيما بينها:

أن إيمانهم بالله سبحانه لم يتجاوز حدود الخضوع للحكم العقلي، والتعهد بالالتزام بهذا الحكم، والوقوف عنده. وهذا هو الحد الأدنى الذي يخرجهم عن دائرة الكفر، وليحملوا صفة الإيمان والإسلام، وتترتب عليهم أحكامه..

وانتهاؤهم إلى هذا الحد يعطي: أنهم لم يصل الأمر بهم إلى حد حضور الله في قلوبهم، وانسيابه في أعماق وجودهم، وهيمنته على مشاعرهم وأحاسيسهم.. بل بقي أمراً غيبياً بالنسبة إليهم. كما أن إيمانهم بالنبوة، والنبي، وصفاته، وبالآخرة، وحسابها، وثوابها، وعقابها، ونعيمها، وجحيمها، لا يبتعد عن هذا الحال..

فلم تتحول العقيدة بالله، وبالآخرة، وبالأنبياء، والأوصياء إلى حالة وجدانية، وضميرية. ولم تمازج الفطرة، والمشاعر، لتصبح حركة عفوية، وطريقة حياة، وليكون ذلك المعتقد إنساناً إلهياً يعيش الإسلام والقرآن، واقعاً حياً يتلمسه في كل ما يواجهه أو يحيط به..

ولأجل هذا الضعف الظاهر، في مستوى الوعي والإيمان، نجد أنهم عند الممارسة تتناقض أفعالهم مع أقوالهم، ومع اعتقاداتهم.

وهذا بالذات هو السبب في سعي الإسلام إلى تحويل الشأن العقيدي، وقضايا الإيمان إلى شأن حياتي، حيث يحدثنا عن الله، وعن صفاته، وعن الآخرة، وغير ذلك.. بأسلوب التجسيد لها في الواقع الخارجي. وكأن الإنسان يراها ويتلمسها ويحس بها عن قرب..

وما أكثر التعبير في القرآن الكريم، فضلاً عن كلمات النبي [صلى الله عليه وآله] والأئمة [عليهم السلام] بكلمة: أفرأيتم.. وأأنتم..

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[1].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾[2].

﴿ءأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾[3].

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾[4].

﴿ءأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[5].

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾[6].

﴿ءأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[7].

---

(١) سورة الملك الآية ٣٠.

(٢) سورة الواقعة الآية ٧١.

(٣) سورة الواقعة الآية ٧٢.

(٤) سورة الواقعة الآية ٥٨.

(٥) سورة الواقعة الآية ٥٩.

(٦) سورة الواقعة الآية ٦٣.

(٧) سورة الواقعة الآية ٦٤.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾[١].
﴿ءأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾[٢].
وغير ذلك..

والخلاصة: أن الاعتقاد ليس مجرد خضوع واستسلام عقلي، بل هو عقد قلبي مستقر في النفس: حاضر في عمق الذات، متمازج مع الفطرة، ومع المشاعر، ليصبح هو العين التي يبصر بها، والأذن التي يسمع بها، واليد التي يبطش بها..

كما أن الإسلام ليس مجرد نظام اقتصادي، أو سياسي، أو تربوي، أو عبادي أو غير ذلك. بل هو دين يريد أن يصنع الإنسان كله، وفق الإرادة الإلهية، ليُمكّنه من تحقيق الأهداف العليا التي خلق من أجلها.

ولأجل هذا.. كان النبي آدم [عليه السلام] ـ الإنسان الأول ـ هو النموذج، الذي يحمل مواصفات الإنسان الكامل، الذي يسعى إلى نيل رضا الله، والوصول إلى مقامات القرب والزلفى..

فكأنه تعالى يقول لنا: هكذا أريد لبني البشر، أن يكونوا إلهيين بكل ما لهذه الكلمة من معنى، خالصين ومخلصين لله سبحانه. كالنبي آدم [عليه السلام]..

وحين يقول سبحانه عن هؤلاء الأبرار العباد: إنهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، فإنما يريد أن يفهمنا أن ذلك دليل وصولهم في إيمانهم، ووعيهم، وخلوصهم إلى أن أصبحوا أناساً إلهيين بكل ما لهذه الكلمة من معنى،

---

(١) سورة الواقعة الآية ٦٨.

(٢) سورة الواقعة الآية ٦٩.

وأن الله حاضر في قلوبهم، وفي وعيهم، وفي كل وجودهم حضوراً حقيقياً وتاماً، فلا يمكن أن يتخلفوا أو أن يتوانوا في الوفاء بتعهداتهم أمامه جلَّ وعلا..

قيمة الوفاء بالنذر:

وقد يزعم زاعم أنه ليس في الوفاء بالنذر ما يميزه عن غيره، فإن الصلاة مثلاً، عمود الدين، فهي أهم منه، وهي أولى بالذكر من الوفاء بالنذر، وكذلك الحال بالنسبة للجهاد في سبيل الله، والحج إلى بيت الله.. وغير ذلك..

فلماذا جاء التنصيص على خصوص الوفاء بالنذر، دون سواه..

ونقول في الجواب:

إن ما تقدم من إشارة إلى أهمية وقيمة الوفاء بعهود الله سبحانه قد يكون كافياً في بيان لزوم البدء بهذا الأمر هنا، من حيث إن الوفاء بعهود الله هو العنوان الأوسع والأتم، والأكمل، لسائر عناوين الطاعة والانقياد، ومنها فريضة الصلاة، والحج، والزكاة، وما إلى ذلك، غير أننا نود أن نزيد هنا: أن الله سبحانه لا يريد أن يعطي هنا صورة عن حجم العمل وصعوبته، وإنما يريد أن يقدم لنا كواشف وجدانية وواقعية عن الحد الذي وصل إليه ذلك البرُّ العابد في بناء إنسانيته، وفي تأثير ميزاته الإيمانية والإنسانية، في ممارسته العملية، وفي بناء وجدانه. حتى إن نذرهم في مورد نزول السورة، كان هو خصوص الصوم. المقرب إليه تعالى، بما للصوم من رمزية للكثير من المعاني، ولم ينذروا بذل مال، أو نحوه..

وقد تكون هذه الأمور التي نتخيل أنها غير ذات أهمية، أعظم وأقوى في كشف هذه الحقيقة.

فإن الأعمال الكبرى، قد تكون الحوافز التي تدعو إليها قوية.. وقد يكون للحوافز الخارجة عن ذات، وشخصية، ووجدان الإنسان، تأثير كبير في ذلك أيضاً. ولأجل ذلك فقد يكون كشفها عن واقع تلك المزايا أضعف من كاشفية تلك الأمور التي تخلو من ذلك كله..

ولأجل ذلك.. فإن الله حين جعل أعظم وأخطر مقام لأمير المؤمنين [عليه السلام] وهو مقام الولاية العظمى، لم يشر إلى جهاد الإمام علي [عليه السلام]، ولا ربطه بقلعه لباب خيبر، أو قتل عمرو بن عبد ود، ولا ربطه بعلم علي، وتضحياته الجسام، أو غير ذلك من فضائله، بل هو قد جعل له ذلك في سياق التذكير بصدقة كانت منه على فقير أثناء الصلاة، قال تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**[1].

فكان هذا العمل الإنساني، والإيماني من علي [عليه السلام] دليلاً واقعياً وعملياً على كماله في الإيمان، والعلم، والتقوى، والوعي، ثم هو دليل على صحة وشمولية مفاهيمه، وسلامة مشاعره، وتفوقه في كل مزاياه الإنسانية، فاستحق بذلك أن يكون ولياً وإماماً..

هذا، وقد ذكر القرآن الإمام علياً [عليه السلام] أكثر من مرة بما يشبه هذه المناسبة أيضاً، وذلك كآية النجوى، وآية الصدقة سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً. وآيات سورة هل أتى بدءاً من هذه الآية. ثم الآيات التي تليها، ومنها آيات إطعام الطعام للمسكين، واليتيم، والأسير..

وخلاصة القول: أن الوفاء بالنذر يكشف بصورة واقعية عن كمال

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٥.

حضور الله سبحانه في قلب هؤلاء الأبرار، وفي كل وجودهم. وعن أنهم قد بلغوا درجة الكمال في مزاياهم.. حتى أصبح الوفاء بتعهداتهم هو السمة المميزة لهم، ولكن لا خوفاً من عقاب، ولا طمعاً في ثواب، بل لأن هذا هو خلقهم الأصيل.

ولعل ذلك يوضح السبب في أنه تعالى قدم قوله: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾** على ما عداه، حيث قال: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾**. ولم يقل: يخافون من ربهم يوماً عبوساً قمطريراً، ويوفون بالنذر.

فإن هذا هو السياق الطبيعي لحياة هؤلاء الأبرار، ولعباديتهم له تعالى. ولارتباطهم به سبحانه، ومستوى هذا الارتباط..

لا يوجد عاطف:

وقد رأينا: أنه تعالى لم يأت بعاطف، فلم يقل: يشربون ويوفون بالنذر، بل رتب الوفاء على نفس الشرب من الكأس التي هي عين. واعتبر هذه الجملة هي المورد الأول الذي يسوقه ليشرح لنا من خلاله، كيف أن شرب الأبرار من تلك العين، وتفجيرهم لها يتحول إلى وفاء بالنذر، وإلى خوف من يوم الجزاء، وإلى إطعام الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إلخ..

حيث إن أبراريتهم بكل المعاني التي تتضمنها، قد اقتضت ذلك كله..

فهذا التفصيل لذلك الإجمال، وارتكاز الوفاء على الشرب، لا يتلاءم مع ذكر الواو الدالة على أن الموردين في عرض واحد..

«يُوفُونَ»:

وقد قال: «يُوفُونَ»، ولم يقل **«يفون»**، لأن كلمة **«يفون»** مأخوذة من وفى، ومضارعها يفي، وكلمة **«يُوفُونَ»** مأخوذة من أوفى، ومضارعها هو يوفي.

وهمزة أوفى يقال لها: همزة التعدية، فهي مثل علم وأعلم، وكرم وأكرم.

والمراد بالإيفاء هنا الإتمام بحيث يظهر قصد الفاعل إلى ذلك، وتعمده حصوله..

أما كلمة يفون، فتدل على مجرد حصول الوفاء كيفما اتفق..

فكلمة الإيفاء: تشير إلى الفاعل، وإلى اختياره وقصده من جهة..

وتشير من جهة أخرى، إلى صفة وحالة ما وقع عليه هذا الفعل، وقد قال يوسف لإخوته: **﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾**[1]. فوجه نظرهم إلى حالة الامتلاء التي يكون عليها الكيل الذي وقع عليه فعل الإيفاء. وذلك ترغيباً لهم في الاستجابة إلى ما طلبه منهم..

ونظير ذلك كلمة: ﴿تُخْسِرُوا﴾، في قوله تعالى: **﴿وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾**[2]. المأخوذة من أخسر، لا من خسر..

وهذا يعطينا: أن ثمة قصداً إلى بيان معنى الوفاء والتمامية الحقيقية الفعلية بأجلى وأقصى مراتبها.

والنذر كما هو معلوم هو أن يجعل الإنسان على عهدته أمراً لشخص آخر أو لجهة أخرى، بحيث يصبح هذا الشيء ملكاً لذلك الآخر، لا بد من إيصاله إليه في الموقع المحدد..

وقد يكون سبب الإقدام على هذا التعهد هو دعوة الطرف الآخر إلى إنجاز أمر مَا، بحيث يكون هذا المنذور في مقابل إنجاز ذلك الأمر.

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٩.

(٢) سورة الرحمن الآية٩.

وهذا بالذات هو ما جرى في مناسبة نزول سورة «**هل أتى**»..

إذ إن الحسنين [عليهما السلام] مرضا، فنذروا: لئن شافاهما الله تعالى، أن يصوموا لله ثلاثة أيام، فلما شافاهما الله. صامت السيدة الزهراء [عليها السلام]، وصام معها علي، والحسنان [عليهم السلام].

فلما حان وقت الإفطار، ووضعوا الطعام أتاهم مسكين، فتصدقوا عليه به. وباتوا بلا طعام.

وحصل لهم في اليوم الثاني مع اليتيم مثل ذلك..

وهكذا جرى لهم في اليوم الثالث مع الأسير أيضاً..

فصاموا ثلاثة أيام بلياليها، لا يجدون طعاماً سوى الماء..

فشفاء الحسنين [عليهما السلام] قد جاء استجابة لنذرهم [عليهم السلام] فأصبح في عهدتهم له تعالى صوم ثلاثة أيام، ولا بد لهم من الوفاء بالنذر.

ولأجل هذه المعادلة الواقعية التي نشأت بين الشفاء، وبين الصوم..

ولا يصح إحداث أي خلل في هذه المعادلة.. بعد أن أصبح هذا في مقابل ذاك، وتعادلا ككفتي ميزان في عالم الواقعيات والحقائق..

وهذه المعادلة الواقعية تحتم الإيفاء لا الوفاء. لأن المهم هو إعطاء ما لزم في الذمة، إلى حد، يفي بذلك الشفاء الذي حصل، حبة في مقابل حبة ومن دون أية نقيصة، وبخس في الميزان، لأنهم أخذوا شيئاً وتعهدوا بإعطاء مقابله، فلا بد أن يأتي هذا الصوم الذي هو المقابل وافياً وتاماً، في أعلى درجات الخلوص والإخلاص والسلامة، والتوجه القربي في كل آناته وجميع حالاته، وذلك ليوازي في آثاره وفي أهميته شفاء مثل الحسنين [عليهما السلام].

وهذا لايتأتى إلا من أبرار قد بلغوا أعلى الدرجات، في الارتباط بالله، والمعرفة به سبحانه..

فقوله تعالى عنهم: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي يأتون به وافياً، وفق المطلوب، يعتبر غاية في مدح هؤلاء الصفوة، والثناء عليهم. وبدون هذا الوفاء التام.. فإن ثمة خللاً سيحدث في المعادلة.. ولا يعرف كيفيات وحجم هذا الخلل، إلا الله.. فلعله خلل ونقص في البركات، أو في الألطاف، أو في التوفيقات للتقوى، أو في المشاعر، أو في الإيمان، أو في العلاقات الاجتماعية، أو في الحالة الاقتصادية، أو في الزرع، أو في الماشية، أو غير ذلك. إن ذلك كله لا نعرفه نحن، ولا يمكن تحديده، ولا التكهن به.

النذر أيضاً سنة إلهية:

ولا بد لنا هنا من تسجيل حقيقة هي: أن الدعاء، والعهد، والنذر، والتوسل بالأنبياء والأولياء، وغير ذلك.. ـ إن كل ذلك ـ هو من السنن الإلهية التي تؤثر حتى في النواميس الطبيعية، وفي الماديات.. فمثلاً قد تقتضي السنن الطبيعية أن لا يولد للشخص الفلاني ولد، أو أن لا يكون له مال.. أو أن يمرض، أو يموت، ولعل ذلك كان هو الأصلح له، ولمن يحيط به. والأصلح لنسله..

ولكنه إذا سعى، وبذل جهده، وطلب من الله سبحانه، أن يتدخل ويبطل تأثير ذلك القانون الطبيعي، فإن الله يغير في الأمور بحيث يصير الأصلح هو عكس هذا الواقع القائم بالفعل..

وقد تكون وسيلته التي يقدمها هي نذر بديل أو عديل، أو توسل بنبي أو وصي.. أو التجاء إلى الانقطاع إلى الله بالدّعاء، أو نحو ذلك ـ

فإن هذا أيضاً من السنن الإلهية ـ فيستجيب الله لـه. ويغيِّـر فـي السـنن الطبيعية لصالحه، فيشفي المريض، أو يجعل المرأة العاقر تحمل..

وهذا التدخل والتغيير في السنن الطبيعية، لابد أن يُحْدِثَ ما يحتـاج إلى ترميم وجبر، وتَلافٍ وتعويض.. لكي لا يترك أثراً سلبياً على الواقـع العام، أو على من تسببَ به، ولم يفِ بتعهداته..

ولا بد أن يأتي هذا العوض وافياً، وكافياً..

وقد اتضح بذلك: أن قوله [عليه السلام]: الصدقة تدفع القضاء وقـد أبرم إبراماً.. قد جاء منسجماً مع الناحية الواقعية فـي تسـبيب الأسـباب، والتصرف في السنن..

الوفاء بالنذر.. والوفاء بالوعد:

ولم يعد خافياً بعد هذا، الفرق بين الوفاء بالنذر، والوفاء بالوعد. فإن الوفاء بالوعد يأتي منسجماً مع مقتضيات السنن الحاكمة.. أما النذر فيراد منه الدعوة للتصرف في تلك السنن بسنن أقوى منها، أو بـدونها، حيـث يكون نفس التصرف الإلهي استجابة للنذر أو الدعاء، سنة أيضاً.. ثم يأتي الوفاء به من قبل الناذر ليرمم ويعـالج آثـار ذلـك التصـرف، فيمـا يشـبه التقايض والتبادل حسبما أشرنا إليه..

أما العهد واليمين، فهما ينسجمان مع تلـك السـنن، ولا يعارضانها، بل يستجيبان لها، لأنهما عبارة عن إلزام للـنفس بشـيء، بحيـث يجعـل ضامنه وكافله، والسائل عنه، والمطالب به، هو الله سبحانه.. وليس فيه أي تعرض للسنن، أو تصرف فيها.

لماذا جاء بالباء «بالنَّذْرِ»؟!:

وقد يُسأل هنا: لماذا قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، ولم يقل: «يوفـون

النذر»؟!..

ويجاب: أن هذه الباء قد جاءت لبيان هذه المعادلة، وهو أن يكون ما يأتي به من عمل قد نذره، معادلاً لما طلبه في مقابله، ووافياً به. فهي باء التعويض، وتشبه إلى حدٍ مّا الباء في قولك: كافأته بألف درهم، أو قولك: بعت الفرس بألف.

«يُوفُونَ» بصيغة المضارع:

وعن السبب في أنه تعالى قال: «يُوفُون» بصيغة الفعل المضارع، لا بصيغة الماضي، فلم يقل: وفوا بنذرهم..

نقول:

ربما يكون ذلك لبيان ما يلي:

أولاً: إن هذه هي طبيعتهم وسجيتهم، فإن وفاءهم لم يكن لأمرٍ عارضٍ فرض عليهم ذلك.

ثانياً: إن هذا الوفاء ليس مجرد حدث قد مضى وانقضى، بل هو متجدد ومستمر، فهم يقومون بوفاء بعد وفاء، بل هم لا يزالون يشعرون بالحاجة إلى رضا الله سبحانه، وأنهم مدينون له، وأن شفاء الحسنين [عليهما السلام] لا يقابله مجرد صوم الثلاثة أيام، ولو في مثل تلك الظروف الصعبة. فإن هذا الشفاء منة عظيمة تبقى لله في أعناقهم، ولا بد أن يبقى شعورهم بها.. وبالحاجة إلى شكرها، وإلى تقديم العوض المناسب عنها، ولا يرون أي شيء في الوجود يفي بشكر هذه النعمة، ويوفي هذه المنة..

ثالثاً: إن المضي والانقطاع اللذين يشار إليهما بكلمة: **«وفوا بالنذر»** قد يفسح المجال لتوهم.. تجدد الحاجة إلى الوفاء، وأنه ربما تكون قد استجدت

أمور جعلتهم في موقع المدين له تعالى بنذر جديد.. وليس هناك إشارة إلى وفائهم فعلاً، فضلاً عن أن يكون مشيراً إلى ذلك في المستقبل..

رابعاً: إن التعبير بيوفون، يوحي بأن وفاءهم [عليهم السلام] في المستقبل أيضاً مضمون. من حيث إنه أخبر عن أن طريقتهم وسجيتهم الدائمة والملازمة هي الوفاء.. وهو ملكة لهم، وبذلك يكون دالاً على وفائهم في المستقبل أيضاً، وهذا إخبار من عالم الغيب والشهادة، وشهادة تكريم كبرى لهم.

الوفاء بالنذر صفة أخلاقية:

إن الدافع إلى العمل بمقتضى النذر هو التعهد الذي أنشأه الناذر على نفسه، حيث تدعوه أخلاقه والتزامه إلى الوفاء بذاك التعهد.

وهذا التعهد إنما نشأ عن معرفة بأن الله سبحانه قوي عزيز، مالك عليم حكيم، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وعن شعور بالفقر وبالحاجة إليه، وعن التجاء له، وتوكل عليه، وثقة به، تدفع إلى أن يطلب منه المعونة، والتسديد، والعطاء.

فلزوم الوفاء بالنذر إذن، أمر يدركه الإنسان بفطرته، وبعقله، وبوجدانه، وبكل وجوده.. فليس هذا الوفاء كسائر الواجبات المفروضة عليه، والتي قد لا يدرك مراميها، ولا يجد الدافع في كثير من الأحيان، إلى الالتزام بها.. إلا الخوف من العقاب، أو الطمع في الثواب.

والفطرة، والعقل، والشرع، والوجدان، وخصوصاً الأخلاق، هي العناصر الأهم في الإيمان، وفي الالتزام بأحكامه، والعمل بشرائطه..

والخلل الأخلاقي والاستكبار هو الذي جعل إبليس شيطاناً، وأوصل فرعون إلى ادعاء الربوبية، وممارسة ذلك الظلم العظيم على بني

إسرائيل، وغير ذلك.

إن الخلل الأخلاقي مهما بدا في ظاهر الحال بسيطاً، فإنه قد يهلك الإنسان.. ويقضي على كل نبضات الحياة فيه، واستكبار فرعون خير شاهد على ذلك، كما أن للحسد والشح، وغير ذلك من صفات؛ التأثير الكبير في إفساد حياة الناس، بل وفي إهلاكهم أيضاً..

«يَخَافُونَ»:

وقد أشار الله سبحانه، في آيات هذه السورة، إلى نواح إنسانية في شخصية الأبرار، وأخرى إيمانية.. والحديث عن الناحية الثانية، هو في هذه الفقرات وقد قلنا فيما سبق: إن الخوف من الآخرة له أثره في سعي الإنسان لضبط حركته، والهيمنة على نفسه الأمارة بالسوء..

وذكرنا: أن المشركين كانوا لا يأبون عن الاعتراف بكثير مما يدعوهم النبي [صلى الله عليه وآله] إليه، لكنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، لأنهم يريدون أن يأخذوا حريتهم في الفجور، واقتراف الآثام، ولا يريدون أن يصبح قرارهم بيد من يحاسبهم..

وهو ما أشارت إليه الآيات الكريمة في سورة القيامة.. **﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾**(١).

إذ إن المشركين يرون: أن مشكلتهم الكبرى لم تكن هي ترك الأصنام، التي قالوا: إنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى.. ولم يكن لديهم مشكلة كبيرة في إعطاء الامتيازات لرسول الله [صلى الله عليه وآله]،

---

(١) سورة القيامة الآيات٣/٥.

حتى لقد عرضوا عليه أن يملّكوه عليهم..

فكان جوابه: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته[1].

ولكن ما يرون أنه مشكلتهم الحقيقية هي أنهم يريدون أن يكون لهم القرار في أي تصرف، ولا يريدون أن يكونوا مسؤولين عن شيء ولا مطالبين بشيء.. فيوم القيامة هو الذي يخيفهم، ويرعبهم، فكان أن أنكروه بشدة، وعناد، واستكبار. لأن الاعتقاد بيوم القيامة يقيد حرياتهم.. ويفرض عليهم التعامل مع الآخرين بالإنصاف والعدل. ويتطلب منهم الانقياد لنظام عملي، وتقديم حسابات، ويشعرهم بالرقابة.. وأن قرارهم لا يرجع إليهم.

وهذا لا ينسجم مع طموحاتهم، لأن جعل العقاب في الآخرة.. يركز في الإنسان الإحساس بأنه لا خلاص له منه، ولا مناص له عنه، إلا بالتوبة، أو بالشفاعة، إن كان ممن يستحقها.. خصوصاً مع كون هذا الحساب وذلك الجزاء بالثواب أو بالعقاب، من المالك القادر القاهر، والعالم بكل شيء..

وهذا لا يناسب أهل الأهواء، ولكنه يناسب المؤمنين، ويهيء لهم حياة مطمئنة، لها قانون، ولها نظام، وتخضع لضوابط..

إيمان أم خوف؟!

ويلاحظ: أنه تعالى قد ذكر الخوف من يوم كان شره مستطيراً، ولم

---

(١) الغدير ج٧ ص٣٥٩ وتاريخ الطبري ج٢ ص٦٧ والبداية والنهاية ج٣ ص٦٣ والسيرة النبوية لابن هشام الحميري ج١ ص١٧٢، والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٤٧٤.

يشر إلى الاعتقاد، أو العلم، أو الإيمان بيوم هذه صفته..

ولعل سبب ذلك هو: أن العلم بالشيء ليس بالضرورة أن يكون دائماً فعلياً. فقد يكون ارتكازياً، لا يتنافى مع حالات الغفلة، أو الانشغال بأمور أخرى، ولكنه قادر على استحضار صورة ذلك الشيء مباشرة، بمجرد حاجته إليه..

كما أن العلم قد لا يكون له أثر في حياة الإنسان، ولا بإيمانه، فإن علمك بأن الأربعة زوج، وبأن الكل أعظم من الجزء، علم بقضية عقلية، ثابتة على مر العصور والدهور، ولكن لا أثر لهذا العلم لا في الإيمان، ولا في المشاعر، ولا في أي جهة من جهات وجود الإنسان، وتكوينه الداخلي، ولا في شيء مما يواجهه..

وأما الإيمان، فهو العلم بالشيء مع تبنيه والالتزام به.. فقد يصاحب ذلك سكون وطمأنينة نفسية: **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾**[1].. و **﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾**[2]. وقد يترقى الأمر إلى أن يصبح لهذا الإيمان وهذا السكون تأثير في المشاعر، ضعيف تارة، وقوي أخرى، وقد لا يحصل شيء من ذلك..

أما حالة الخوف، فإنما تعني وجود إحساس داخلي، وانفعال نفساني، يدعو الإنسان للتحرز، وطلب الأمن. وهذا ملازم لليقظة والالتفات، ما دام ذلك الخوف موجوداً، فهو يدعوه إلى إعمال المراقبة المستمرة، والرصد الدائم لكل حركة يخشى أن تكون تعنيه، أو أن يكون لها أي تأثير عليه..

---

(١) سورة الرعد الآية٢٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

ثم إنه يدعوه إلى إعداد العدة، وتهيئة كل ما من شأنه أن يحميه ويدفع عنه.

وهذا الإعداد يختلف ويتفاوت، كاختلاف وتفاوت محيط وأدوات الرصد والمراقبة، بحسب خطورة وحجم الموارد التي يتهددها الخطر، فقد يكون الخوف على النفس، أو على المال، أو على الولد، أو على العشيرة، أو على البلد، أو على الدين، أو.. أو.. أو على ذلك كله.

وهذا بالذات هو الذي يبين ضرورة اقتران قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[1] بقوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[2].. لأن القناعة العقلَية بِيوم القَيامة لاَ تكفي للالتزام بخطَ الطاعة، بل هو بحاجة إلى دخول هذه القناعة إلى وجدانه، وإلى مشاعره، وكل كيانه، لأن هذا هو الذي يُوجد داخل الإنسان رقابة ورصداً من قبل النفس اللوامة على النفس الأمارة بالسوء، ويقيم الموانع القوية أمامها، لكي لا تتسبب بإيقاعه في المحذور. ولو أن نفسه الأمارة غلبته أحياناً، فإنه سوف يندفع للتلافي والتصحيح..

فمجرد سكون النفس لا يكفي، لأنه قد ينشأ عن غفلة، وقد ينشأ عن جرأة، وقد ينشأ عن جهل.. بل المطلوب هو السكينة والطمأنينة بالمعاني ذاتها من خلال العمل بمقتضاها والانصهار بها.. بحيث تكون هي المنشأ وهي المرتكز.. وهذا هو المراد بالنفس المطمئنة، وهو يعني أن القناعة بالقضايا الإيمانية لا بد أن تدخل إلى عمق الكيان الإنساني، وتتحكم بالمشاعر والأحاسيس، وأن توجد الأمل والرجاء، والحب

---

(١) سورة القيامة الآية ٢.

(٢) سورة القيامة الآية ١.

والبغض، وتوجد الخوف أيضاً، فإن الخوف ينتج التحرز، والرقابة والتصحيح، كما أن لأعمال الخير أيضاً، دوراً كبيراً في ترسيخ هذا الإيمان وتعميقه في داخل النفس الإنسانية..

وبذلك نعرف السبب في أنه تعالى، قد بدأ بالحديث عن الخوف، الذي هو انفعال في المشاعر والأحاسيس، التي تتصل بالقلب، المحتضن للقناعة، التي هيأتها له الهدايات الأخرى، مثل الفطرة، والعقل، من خلال الدليل..

فالذين يخافون يوماً كان شره مستطيراً، قد تجاوزوا وقطعوا كل تلك المراحل بنجاح.

وبذلك يتضح: أن الدليل العقلي، والفطري، وكذلك الشرعي في بعض المراحل، يثبت الأمور الغيبية التي هي الركائز الأساسية، مثل: وجود الله وصفاته، والنبوة، والعصمة، وصفات النبي، والحساب، والعقاب، ثم يثبت الإمامة وغير ذلك من شؤون العقيدة.. ويتلقى ذلك القلب بالقبول والرضا، ويحصل له السكون والرضا، ثم تتكون المشاعر والأحاسيس، وتتربى وتنشأ، وفقاً لما رفدها به القلب، حتى تترسخ في عمق وجود الإنسان، وتصبح هي حركاته العفوية، وعينه التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها. ويكون الخوف من منتجاتها، وتكون الرقابة والرصد، والتحرز والتمنع.. والتصحيح.. والإعداد والاستعداد لكل طارئ..

وهذا الخوف يكشف عن أن كل تلك المراحل قد كانت سليمة، خالية من أي ضعف، قادرة على التأثير. وقد أثرت بالفعل.

بل إن ثبوت وصف الخوف، لهؤلاء الصفوة الأبرار، خصوصاً إذا كان شاملاً لكل موارد احتمال التكليف والمسؤولية.. يجعله في عداد ما

يمكن الاستدلال به على عصمتهم الشاملة، خصوصاً إذا انضم إلى سائر الأوصاف المذكورة قبله وبعده، كقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.. وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾.. لأن ذلك كله يدل على أنهم قد بلغوا في إنسانيتهم أسمى الغايات، وفي إيمانهم أعلى الدرجات.. بل هم قد تجاوزوا حدود العصمة كما سيتضح في شرح قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.. إن شاء الله تعالى..

«يَخَافُونَ يَوْماً»:

وقد قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ ولم يقل: من يوم.. فلماذا؟ وما هو الفرق؟!

والجواب هو: أنك إذا قلت: يخافون من يوم، فيحتمل أن يكون خوفهم من أعمالهم، لأجل أن العدل يجري عليهم في ذلك اليوم..

ويحتمل أيضاً: أن يكون نفس اليوم مخيف، من حيث هو زمان، وأن العذاب والمصائب، تكمن في عمق ذاته، وحقيقة وجوده.. تماماً كما يخاف الإنسان من الأسد المفترس، فإن الشر كامن في ذات الأسد. ولا يفرق الأسد بين أحد من الناس، مع أن المخيف في ذلك اليوم هو تلك الأمور الهائلة، التي جعلها الله فيه، مثل نار جهنم وزفراتها، وأهوال يوم القيامة..

وهذا كقولك: أخاف من السلطة، فإنه قد يكون لأجل أن في السلطة جبارية، وظلم وتعدٍ، وقد يكون لأجل أنها تجري العدالة، وتأخذ الناس بذنوبهم..

أما نفس اليوم، ونفس المكان، من حيث هو زمان، ومكان، فليس هو الذي يخيف، وإنما الذي يخيف هو ما يوجد فيه، وسيئات أعمالنا،

وآثار تلك الأعمال تقرب تلك المهالك إلينا، وتمكنها من النيل منا، حيث تكون سبباً في سقوط الدفاعات، والموانع عنا، وتدمير الحواجز فيما بيننا وبينها..

فالتعبير بـ «**يخافون**» يوماً، يبقى هو الأنسب والأقرب، من حيث إن فيه إشارة إلى أنه ليس في حقيقة ذات نفس اليوم ما يخيف..

الخوف من الله! أم من اليوم؟!:

ثم إنه قد جعل الخوف متعلقاً باليوم، فقال: ﴿**يَخَافُونَ يَوْمًا**﴾، ولم يقل: يخافون من الله..

فلعل سبب ذلك هو أن الله سبحانه رحيم بعباده، ولا خوف من الرحيم.. وهو نفسه عز وجل، قد جعل الكلمة التي يطلب الابتداء بها في كل شيء هي: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾..

والله تعالى لا يظلم أحداً، فلا معنى للخوف منه، بل الناس إنما يخافون من سيئات أعمالهم التي ستظهر وتتجسد لهم في ذلك اليوم، على شكل عذاب، وحرمان من مقامات القرب والرضا..

أما قوله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾[1]، فلا ينافي رحيميته، ورؤوفيته.. فإنه إنما جاء لبيان سوء عملهم من حيث إن فيه إظهاراً للاستخفاف بمقام العزة الإلهية، فذكرهم الله سبحانه بنفسه، وأنه لا يعجزه باغ ولا طاغ، وأن بغيهم إنما هو على أنفسهم..

فليس التخويف بذاته سبحانه، من حيث إنه ـ والعياذ بالله ـ يبطش بالضعفاء بلا مبرر.. بل من حيث إنه قادر على مجازاة الباغين والطاغين بأعمالهم.

---

(١) سورة آل عمران الآية٢٨.

لماذا «يوماً».. بتنوين التنكير؟!:

وقد قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾، ولم يقل: يخافون اليوم الذي كان شره مستطيراً، وكذلك لم يقل: يخافون يوم القيامة.

فلعل السبب في ذلك هو أنه أراد التصريح بتنوين التنكير في قوله «يوماً» لكي يعطي المزيد من الرهبة، والتهويل، والتعظيم.. من حيث إن عدم التحديد لأهوال ذلك اليوم، يجعل الذهن يستنفر كل طاقاته، ويذهب كل مذهب في تخيل أوصاف ذلك اليوم، وحالاته، وأهواله، وشدائده.. وهو مناسب جداً لقوله: «كان شره مستطيراً».

مناشىء الخوف:

وإن للخوف بمعنى الانفعال النفساني مناشئ ومحركات مختلفة..

فقد يكون مبعث الخوف هو النفس الأمارة بالسوء، كالذي يخشى فوات فرصة التلذذ بالجنس، فيقدم على الزنى، وقد يكون مبعثه التحرز من التعرض للأذى بعد ارتكاب جريمة مّا. كالسارق الذي يخاف من انكشاف أمره، وملاحقته بالعقوبة..

وقد يكون الباعث على الخوف هو النفس اللوامة.. كمن يخاف من غلبة دواعي الهوى عليه.. مع سعيه للتخلص منها..

وقد يكون الباعث له هو النفس المطمئنة التي تبحث عن الخير، وتخاف من فواته منها، كمن يخشى فوات فرصة الحج، أو نحو ذلك..

فالحالة الشعورية التي هي انفعال وخشية نفسانية موجودة في هذه الموارد على نحوٍ واحد..

ولذلك جاء التحديد لمنشأ الخوف لدى الأبرار في الآية الشريفة، حيث قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾..

الذين عبدوا الله خوفاً:

والخوف من عقاب الآخرة، والامتناع عن المآثم، والمبادرة لفعل الواجبات مطلوب ومحبوب لله تعالى..

ولكن قد يتخيل: أن أمير المؤمنين [عليه السلام] لم يلتزم بذلك، حيث ورد عنه أنه قد ذم العبادة التي تأتي بداعي الخوف والرهبة، حيث ذكر أن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد[١].. وقال [عليه السلام]: إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك[٢].

ولكن الحقيقة هي: أن الخوف الذي نفاه الإمام علي [عليه السلام] عن نفسه، دون أن يسجل ذماً صريحاً له، هو الخوف من العقوبة و مواجهة الآلام، بحيث يكون ذلك منشأ وأساساً، وباعثاً على العبادة..

أما الخوف الذي يدعو إلى التحرز، وإلى الهيمنة على النفس، ورصد حركاتها، فإنه قد يكون أيضاً داعياً إلى العبادة.. وقد يكون الداعي لها هو أنه قد وجد الله سبحانه للعبادة أهلاً..

فعبادة الله لأنه أهل لها: شيء، والتحرز من تسويلات وتزيينات النفس الأمارة، والاحتياط لها، شيء آخر، فهما أمران يجتمعان ولا يتنافران، كما هو واضح لا يخفى.

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٥٣، الكافي ج٢ ص٨٤، وعلل الشرائع ج١ ص١٢، والخصال ص١٨٨، وسائل الشيعة ج١ ص٦٣ ط مؤسسة آل البيت.

(٢) بحار الأنوار ج٤١ ص١٤ وج٦٧ ص١٨٦.

«كَانَ» لماذا؟!

قال تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ فلماذا جاء بلفظ «كان»؟

ولماذا أيضاً جاء فعل الكون بصيغة الماضي، لا المضارع..

وقد يكون الجواب على السؤال الأول هو: أن الإتيان بلفظ كان، يهدف إلى التأكيد على تحقق هذا الأمر، وحصوله.. فلا محل للبداء في هذا القرار الإلهي.

ثم أن يفهمنا أيضاً: أن ما يحصل في ذلك اليوم ثابت ومستمر، فليس هو من الأمور التي تتجدد، وتحتاج في تجددها إلى تجدد إرادة، وإلى صدور قرار جديد، وإلى تسبيب أسباب غير تلك التي كانت.

وبالنسبة للسؤال الثاني نقول: إن الإجابة السالفة الذكر قد تكون كافية فيه، إذ إن من المفيد جداً إفهام الناس أن هؤلاء الأبرار يرون ذلك الأمر بهذا المستوى من الوضوح واليقين، وكأنه حاضر لديهم، أو كأنهم كانوا قد مروا فيه، وأن ذلك اليوم، وإن كان شره سيأتي في المستقبل.. لكن لابدّية إتيانه هي من الثبوت لهم، بحيث يرون أنه قد تحقق وانتهى، كما أن ذلك يعطي انطباعاً عن مدى اهتمامهم به، وعمق شعورهم بالمسؤولية تجاهه. حتى أصبح بإمكانهم الإخبار عنه..

هذا كله إذا كان الكلام مسوقاً لبيان شعورهم بذلك اليوم، وكيفية ومستوى تعاطيهم معه.. وأما إذا كان إخباراً إلهياً ابتدائياً، لم يلحظ فيه حال أحد، **فإننا نقول أيضاً:**

إنه لا معنى للزمان في علم الله سبحانه، فإن علمه بالمستقبل وحضوره لديه، هو على حد علمه تعالى بما مضى.

وهذا ما ربما يوضح لنا قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ**

﴿بِالْكَافِرِينَ﴾[1] جاء بها بصيغة الإثبات، ولم يلحظ فيها واقع الزمان، وأنه في المستقبل، حيث لم يقل سبحانه: إنها ستحيط.. وكذا الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾[2]، وغير ذلك..

«شَرُّهُ»:

وقد قال تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾.. فعبّر بالشر، ولم يقل: عذابه مثلاً، أو مصائبه، أو نحو ذلك.

ولعل سبب ذلك هو أنه قد يفهم من كلمة **«عذاب»** خصوص الأذى الذي يتعرض له الجسد.. وقد يفهم من كلمة **«مصائب»** ما ينال الآخرين ممن لهم تعلق بصاحب المصيبة، أي أن المصيبة تقع في غيره، ويتألم هو لأجلهم.. ولا أقل من أن ذلك محتمل في مثل هذه الموارد وهذه الاحتمالات لا ترد في كلمة **«شر»**، فهي تجمع بين جميع أنواع المساءات، الجسدية منها والمعنوية، والروحية سواء أكانت تقع على الإنسان نفسه، أم تلحقه بسبب غيره. ولذلك كان اختيار هذه الكلمة متعيناً في هذا المورد..

«وَيَخَافُونَ يَوْماً.. فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ»:

وقد يلاحظ هنا: أنه تعالى قد ذكر أنهم يخافون من اليوم ذي الشر، ولكنه عاد فعبر في الآيات التالية بقوله: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾. فالخوف من اليوم الذي فيه الشر، لكن الوقاية تعلقت بالشر مباشرة، فلماذا هذا التنوع في التعبير يا ترى؟!

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٩.

(٢) سورة المعارج الآيتان ٦/٧.

ونقول:

لعل سبب هذا التنوع التعبيري هو: أن الذي لا بد أن يواجهه الأبرار هو نفس ذلك اليوم.. ولكن ليس بالضرورة أن ينالهم شره، إذ إنهم قد يتمكنون من التحرز من شروره بالأعمال الصالحة، أو بوقاية منه تعالى لهم، قد استحقوها.

فهم يخافون يوماً قادماً عليهم، ويعرفون أن فيه شروراً ومحاذير. ولكن ليس بالضرورة أن يلحقهم من تلك الشرور شيء بسبب وقاية الله تعالى لهم منها. فلا محذور في التعبير هنا بقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾.. ثم يقول تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾..

«مُسْتَطِيراً»:

ثم إنه تعالى يصف ذلك الشر بقوله: «مُسْتَطِيراً» أي يتطلّب أن يطير، وأن ينتقل من مكان إلى مكان.. وهذا التعبير يشير إلى سرعة في الانتقال من جهة..

وإلى تطلُّب هذا الانتقال، والسعي إليه، من جهة أخرى..

ولعل هذا التطلُّب للانتقال السريع، إلى حد الطيران، والذي جاء من دون تحديد للمكان الذي ينتقل إليه، يدل على:

أن الانتقال سيكون في كل اتجاه..

وأنه لا معنى للتنبؤ به..

وأنه ليس مما يخضع للسيطرة من خلال ذاته..

وأنه لا يمكن التنبؤ بالمواقع التي يطير إليها..

وأنه يصل إليها بسرعة فائقة..

وهذا بلا شك يثير الخوف الحقيقي من يوم يكون هذا حال الشر فيه، فإن الشر غير محدد النوع، كما أنه لا مجال للشعور بالأمن في ظروف كهذه.. لأن توقعه صعب، فلا يعرف متى يصل ومن أي جهة يأتي، ولا أين يحل..

والخوف من أمر كهذا. يتطلب درجة عالية من الحذر، كما أنه يحتاج إلى إعداد قوي، ومتنوع الاتجاهات، بحيث يستطيع أن يواجه جميع الاحتمالات..

كما أنه يجب أن لا يقتصر على أنواع معينة من القدرات، في ماهيتها، وفي كيفياتها، وفي تأثيراتها، فإن جميع الأنواع يجب أن تكون حاضرة، وقادرة، ومؤثرة، وفاعلة..

فليس الخوف هنا مجرد خشية قلبية، بل هو يحمل معه: الحذر العملي، والرصد، والممارسة، والتحصن، والاستعداد.

وفي المقابل فإن استطارة هذا الشر، وقدرته على الانتشار، وعدم التحكم به والسيطرة عليه، إنما يستند إلى أسبابه وعلله. فإن كونه كذلك لم يكن على سبيل العبث، والصدفة. بل له مكوناته، ويعتمد على مؤثرات أوجبت ذلك فيه.. لأن الشر ليس من خصوصيات ذات ذلك اليوم من حيث هو زمان. بل هناك مثيرات له، ومحركات، ومؤثرات فيه، هي التي أوجدته، وحركته، وأعطته خصائصه تلك التي أشرنا إليها.

ومن هذه المؤثرات والمثيرات نفس أفعال الإنسان في هذه الدنيا. كما أنه سبحانه حتى حينما أوجد جهنم ليعاقب بها العصاة، فإنه قد أعطى للبشر وسائل الوقاية منها..

فالبشر كلهم سوف يمرون من فوق جهنم، ولكن هناك من تهيء له

أعماله مناعة منها، وحصانة تجاهها، وهناك من يبقى بدون دفاع، ولـيس له من دونها قناع، بل تجعله أعماله أكثر قابلية للتفاعـل مـع تلـك النـار، وبحساسية بالغة أيضاً..

ولأجل ذلك عبر تعالى بكلمة: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾.. أي أوجد ما يحجز عنهم ذلك الشر، ويمنعه من الوصـول إلـيهم. ولـم يقـل تعالى: إنه قد أزال الشر، وأبطل وجوده.. كما أنه لم يقل: وقاهم من شر، لأن هذا التعبير إنما يعني أن الشر آت إليهم، وهو قد منعه مـن الوصـول إليهم، وحال بينهم وبينه..

وذلك يستبطن أمراً باطلاً، وهو: أن ثمة معاص لدى الأبرار، اقتضـت وصول الشر إليهم، لكن التفضل والعفو الإلهي قد حال دون ذلك..

مع أن الله تعالى لا يريد ذلك جزماً..

ولذلك قال: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾، دون أن يـأتي بكلمـة (**من**) إذ إن أعمالهم لم تتسبب فـي إثـارة الشـر. ولـم توجـد أسـباب استطارته، بل إن ورعهم وتقواهم قد منع من توجهه إليهم من الأسـاس. فهو لا يصل إلى مكان وجودهم، ولا يطيـر إليهـا. فهـم محفوظـون منـه بأعمالهم، بل إن أعمالهم هي التي تخمده وتزيله، وتطفيء ثائرته.

* * *

الفصل الثامن:

{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً}

قال تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾.

وقد أجملت الآية السابقة حال الأبرار، وأنهم يوفون بالنذر، ثم جاءت هذه الآية لتذكر شاهداً تفصيلياً، ولتكون شاهداً حياً على ذلك الوفاء، وعلى تأصل حالة البر والأبرارية فيهم. وهذا الشاهد هو قضية إطعام المسكين، واليتيم، والأسير..

حادثة الإطعام:

وقد ذكرنا في أوائل هذا الكتاب أن هذه الآية بالذات قد ذكرت الحادثة التي كانت سبب نزول السورة بأكملها. وهي باختصار شديد:

أن الحسنين [عليهما السلام] مرضا، فنذروا صيام ثلاثة أيام إذا شافاهما الله سبحانه.. وبعد شفائهما أرادوا الوفاء بالنذر، فصام الجميع حتى الحسنان [عليهما السلام].. ولم يكن عندهم طعام سوى أقراص شعير هيأتها الزهراء [عليها السلام] للإفطار، فلما أرادوا الشروع جاءهم مسكين فأعطوه ما هيأوه، وأفطروا على ماء، وباتوا بدون طعام، وأصبحوا صياماً.

فلما حضر إفطار اليوم الثاني، جاءهم يتيم فأعطوه أيضاً ما هيأوه، وطووا ليلتهم كسابقتها، وأصبحوا صياماً.

وفي اليوم الثالث جاءهم أسير، فأعطوه طعامهم، وباتوا بدون طعام..

غدوا على رسول الله [صلى الله عليه وآله]، وشاهد [صلى الله عليه وآله] حالهم، فنزلت السورة في حقهم صلوات الله وسلامه عليهم..

شرح مفردات الآية:

وقبل أن نتحدث عن الأجواء العامة لهذا الحدث الهام، لا بد أن نستنطق مفردات الآية، ونقف على بعض ما يمكن أن يستفاد منها..

فنقول:

الإجمال ثم التفصيل:

بدايةً نشير إلى أن من يلاحظ آيات السورة المباركة، سيجد قضية الصيام والإطعام قد ذكرت في السورة مرتين:

أولاهما: على سبيل الإجمال، وذلك حين أشار إليها تعالى بقوله: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾، وهذه القضية هي التي كانت وفاءً بالنذر، فهي من مصاديق تلك الآية..

الثانية: حين ذكرها تعالى تفصيلاً هنا بقوله: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾..

وفي هذا تكريم لهم، وتأكيد على هذه المزية العظيمة فيهم صلوات الله وسلامه عليهم.

«وَيُطْعِمُونَ»:

لقد بدأت الآية المباركة بكلمة: يطعمون. وقد يكون من المفيد تفصيل الكلام حول هذه الكلمة ضمن المطالب التالية:

ألف: لم يقل: يعطون الطعام:

قد يقال: إنه يظهر من الروايات، أن ما حصل، إنما هو إعطاء الطعام

للسائلين، وليس هو الإطعام.. ولكن التعبير القرآني قـال: «**يُطْعِمُونَ**»، فمـا هو السبب في ذلك؟!..

والجواب: أن إعطاء الطعام لا ينافي أن يكون الآخذ قـد أكـل ذلـك الطعام أمام أعينهم، فالذي حصل فعلاً وإن كان هو الإعطـاء، والمناولـة.. لكنه انتهى بالإطعام.

فالتعبير بـ «**يُطْعِمُونَ**» يتناول الإعطاء والمناولة.. والإطعام عـن قصد وإرادة، ونحن في مَقام توضيح ذلك، نقول:

إن الإنسان إذا تخلى عن طعامه، لأي شـخص، وأعطـاه إيـاه، فـإن فعله يكون حسناً وممدوحاً.. فيأخذه ذلك الشخص، ويتصرف فيه كيف يشاء، ولكنه إذا تخلى عنه ليطعمه إياه، فإن قيمة هذا العمل تكون أعلـى من مجرد صرف نظره عنه..

فإذا أطعمه إياه أمام عينيه، فإن قيمته تصبح أعلى وأغلى..

فإذا كان المعطي صائماً، وآثر به على نفسه، فـإن الدرجـة سـتكون أكثر علواً.

خصوصاً إذا كان إعطاؤه للطعام في وقت الإفطار، لا في وقت الصيام..

وخصوصاً إذا كان الصائم قد وضعه أمامه لكي يفطر عليه..

وخصوصاً إذا لم يكن عنده سواه..

وخصوصاً إذا كان سَيُحرَمُ منه ولده الصغير..

وخصوصاً إذا كان في ولده مواصفات وميـزات الحسـن والحسـين [عليهما السلام]..

وخصوصاً إذا كان الآخـذُ سـيأكل الطعـام أمـام أعيـنهم، كمـا هـو المحتمل جداً في الآية..

وهذا يعطي أن الذي أطعم الطعام، يمتلك نفساً، وقلباً، وإنسانية، لا نظير لها. ولا يمكن تحديد قيمتها.

ب: الإطعام وقت الإفطار:

وقد أشرنا قبل قليل إلى أن أولئك الصائمين، قد أعطوا طعامهم الذي كان أمامهم وقت الإفطار.. ونحب أن نشير إلى أمر مفيد هنا، هو:

أن المال حين يكون نقوداً، فإن التخلي عنه يكون أسهل مما لو تحول إلى سلعة، مثل: قميص، ساعة، قلم، بيت، خاتم، سبحة.. إذ إن تجسُّد المال على هذا النحو يعمق العلاقة به. فالصدقة بثمن الخاتم أسهل من الصدقة بالخاتم نفسه.

وذلك لأن للمال مغريات توجب المزيد من التعلق به، فللشكل جاذبيته، وللألفة تأثيرها، وللأُنس به، وللأحداث التي ترتبط به، التي تتحول إلى ذكريات لذيذة، دورها.. ثم لارتباطه بأمور عزيزة كالآباء والأجداد، والأبناء.. وللقِدَم والغموض، دوره.. والأثر الكبير في الارتباط والتعلق به..

فإذا انضم إلى ذلك أو إلى بعضه الحاجة الغريزية الجسدية لهذه السلعة، كما لو كان طعاماً يحتاجه الإنسان لسدّ جوعه. وتدعوه إليه حاجته الطبيعية..

وإذا انضم إلى ذلك أن له روائح، وأن له شكلاً أو طعماً، يشد الإنسان إليه، ويداعب خياله، فإن التعلق به سيزداد، وفقاً لتوافر المعاني، والخصوصيات الكامنة فيه، والاعتبارات التي يوحي بها ذلك المال المتجسد.. ولا بد أن نتصور مدى تعلق الباذلين بالطعام الحاضر، خصوصاً بعد أن مر عليهم ثلاثة أيام بلا طعام.

أما النقود.. فإن مغرياتها تبقى محدودة في حدود قيمتها الكامنة فيها، وفي مستوى القدرة الشرائية لها، لا أزيد..

وهذا الذي ذكرناه: يبين كيف أن إعطائهم الجامع لهذه الخصوصيات، وفي هذا الوقت، ولخصوص الطعام.. يجعلنا نتلمس حقيقة هؤلاء الصفوة من الخلق صلوات الله عليهم..

ج: «يُطْعِمُونَ».. بصيغة المضارع:

صحيح: أن كلمة **«يُطْعِمُونَ»** تفيد أن الجميع ـ حتى الحسنين عليهما السلام، رغم صغر سنهما ـ قد مارس هذا الإطعام بكل شؤونه وحالاته، ولكن التعبير بصيغة المضارع، حيث قال: **«يُطْعِمُونَ»**، لا بصيغة الماضي، فلم يقل: **«أطعموا»**.. إنما جاء ليفهمنا: أن هذا الإطعام يستمر، ويتجدد بإرادة، والتفات، واختيار، ومبادرة منهم..

وهذا الاستمرار الذي شهدت له الحادثة المشار إليها نفسها أيضاً يعطي: أن هذا الإطعام، هو سجية لهم، وطبيعة فيهم، وليست القضية مجرد حدث عابر قد انتهى وانقضى، وقد يكون مجرد أريحية اهتزت، أو مؤثرات توفرت، فأنتجت هذا الحدث، بهذه الميزات، وبتلك المواصفات، حيث صادف كونهم صائمين، وصادف أيضاً أنه حصل ثلاث ليال متوالية، وبهذه الطريقة..

إن هذا الاستعداد، وهذه السجية المؤثرة. وهذا الاستمرار في العطاء، في كل وقت وكل حين، وتجدد العطاء بإرادات مؤثرة وفعلية، وإمكانية المشاهدة له ـ إن كل ذلك ـ هو من خصوصياتهم الفريدة، وخصالهم الحميدة.

لام العهد؟ أم لام الجنس؟:

وعن كلمة «**أل**» في كلمة «**الطعام**» **نقول**: إنه قد يكون المقصود بها العهد.. أي أنهم يطعمون طعامهم المعهود، الذي ارتضوه لأنفسهم، وواسوا به الفقراء..

وقد يكون المقصود به الجنس، أي أن كل طعام يكون لهم، فإنهم يطعمونه للمسكين، واليتيم، والأسير..

ما المراد بـ«الطَّعَامَ»:

ولعل بعضهم يريد أن يقول: إن المقصود بكلمة: «**الطَّعَامَ**» هو القمح والشعير، وأن هذا هو معناها في أصل اللغة، ثم توسع الناس في إطلاقها، على غيرهما، فيكون على عكس كلمة دابة التي هي اسم لكل ما يدب على الأرض، لكنها حين الاستعمال يراد منها الفرس، لأنها هي التي كانت محل الحاجة، وألف الناس إطلاق هذا اللفظ عليها..

ولكن لا مجال لتأكيد هذا الأمر، ولا يصح المصير إليه، فإنه مجرد اجتهاد في اللغة، فالظاهر: ما جرى لكلمة طعام، هو نفس ما جرى لكلمة «**دابة**» وأن المقصود بكلمة «**الطعام**» هو كل ما يطعم.. فيكون القمح والشعير، وسواهما من مصاديقه..

ومما يؤكد ذلك، قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ**﴾[1]. فأطلق الطعام على ما يستخرج من البحر للطعام.. ولا يستخرج منه قمح ولا شعير..

---

(١) سورة المائدة الآية ٩٦.

«عَلى»:

وتواجهنا كلمة «عَلى»، حيث دلت على أن إطعامهم هذا الطعام قد كان برغم وجود المانع والرادع عنه. وهو الحب لذلك الطعام.. وهذا يزيد في أهمية ما فعلوه، لأن القضية لم تقتصر على العطاء بصورة طبيعية ومجردة، بل تجاوزتها إلى التغلب على الموانع والروادع. التي أضيفت إليها.. وهي هذا الحب الجديد للطعام.. الذي أضيف إلى الاشتهاء الطبيعي، وإلى سائر الخصوصيات الآتية في الفقرة التالية.

«على حُبِّه» جملة اعتراضية:

ومن يتأمل الآية يجد: أن عبارة «**عَلى حُبِّه**» جملة اعتراضية، قد جاءت لبيان المزيد من الصعوبة التي يواجهها الباذلون في بذلهم ذاك.. أي أنهم يطعمون الطعام، على الرغم من حبه.

وهذه الجملة الاعتراضية لا بد منها لإفادة معنى الإيثار، الذي يمارسه أناس هم بأمس الحاجة إلى هذا الطعام، وهم يطوون ثلاثة أيام بدونه.

وهناك فرق بين من يطعم الطعام، وهو في غنى عنه، بل هو يملك الخزائن الملأى، وبين أناس لو فقدوا طعامهم، فسوف لا يجدون سواه، وسوف يتسبب ذلك بمشكلة وإحراج شديد لهم.

كما أنه ليس كل من يعطي الطعام يكون دافعه هو الشعور والإحساس الإنساني بحاجة الآخرين، فإن لبذل الطعام دوافع مختلفة غير ذلك أيضاً، ولا حاجة إلى البيان..

حب الطعام المذموم:

وقد يقال: إن ثمة إشكالاً، لا بد من الإجابة عليه وهو: أن الباذلين كان لديهم ميل للطعام، بهدف سد الجوع.. ثم يزول الاشتهاء بتناوله،

وحصول الشبع بذلك..

ولكن الأمر لم يقتصر على الاشتهاء، بل تحدثت الآية عن حب الطعام.. وهذا الحب يحتاج إلى مكونات أخرى تزيد على ما يتطلّبه الاشتهاء.

والمعروف أن حب الطعام مذموم، وقد كانت فدك في يد السيدة الزهراء [عليها السلام]، ولم تدخر طعاماً منها، تواجه به هذه الحالة وأمثالها، بل كانت تتصدق بغلاتها على أهل الحاجة..

والإمام علي [عليه السلام] قد أعلن أكثر من مرة: أنه لا يفكر بهذه الطريقة..

فقد أرسل إلى واليه على البصرة، عثمان بن حنيف، يقول: «بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة، فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان..».

إلى أن قال:

«ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه»..

إلى أن قال:

«لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة، من لا طمع له بالقرص، ولا عهد له بالشبع.. أوَ أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى؟! وأكباد حرى؟!».

إلى أن قال:

«فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة همها علفها،

أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها».

والإمام علي [عليه السلام] والسيدة فاطمة [عليها السلام] هما على رأس الذين نزلت فيهم آية: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾.. وذلك يدل على أن حبهم لهذا الطعام ليس مذموماً.. لأن لهذا الطعام خصوصية جعلتهم يحبونه ـ لا أنهم يشتهونه ـ.

فما هو هذا الحب للطعام، الذي ليس بمذموم يا ترى؟!

وللجواب عن ذلك نقول:

إن حب الشيء تارة يكون لأجل ذاته.. وتارة يكون لأجل أنه موصل إلى أمر محبوب. فالمذموم هو الأول، أما الثاني فهو ممدوح. والذي أريد بهذه الآية الشريفة هو الثاني..

فهم [عليهم السلام] لا يحبون الطعام لأنه شهي ولذيذ. أو لأية خصوصية تزيد الرغبة فيه، كاللون، والرائحة، أو الشكل، فإن طعامهم إنما كان أقراصاً من شعير.. وهو لم يكن شهياً، ولا مثيراً. بل هو أحد مفردات الطعام العادية، التي يتبلّغ بها الفقراء، ليحفظوا بها خط حياتهم، الذي فرض الله عليهم أن يحفظوه. وكان هذا هو طعام أهل البيت [عليهم السلام] المفضل..

فحبهم للطعام، إنما هو بهذا المعنى، فليس هو حب التلذذ والاشتهاء، ليكون مذموماً..

بل هو طعام محبوب لهم، لأنه يحفظ لهم القدرة على إنجاز الواجب والتكليف الإلهي.. ويعطيهم القوة على نيل رضا الله سبحانه..

ولو كان الحب هو لنفس الطعام من حيث هو لذيذ، أو نحو ذلك، فقد كان بإمكانهم الاستفادة من فدك وغيرها للحصول على لذائذ

الأطعمة، وفاخر الألبسة، وفخيم المساكن..

ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾، ولم يقل: على اشتهائه، أو على حاجته. أو نحو ذلك..

وهذا بالذات السبب في أنه تعالى: قد أورد ذلك مورد المدح، مقروناً بقوله: يوفون بالنذر، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً..

ثم أعلن بمكافأتهم عليه كأعظم ما تكون المكافأة.

الضمير في كلمة: «حُبِّهِ»:

وقد ظهر مما تقدم: أن الضمير في كلمة: «حُبِّهِ» راجع إلى الطعام، ويبعد رجوعه إلى لفظ الجلالة، إذ لم يتقدم للفظ الجلالة ذكر في الكلام، مع لزوم نوع من التكرار في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾..

إلا أن يقال: إن حب الله شيء، ووجه الله شيء آخر، فالأول يرتبط بالدافع الطبيعي، والثاني يرتبط بالغاية والهدف الذي يكون الإطعام من أجله..

ولكننا نقول: حتى لو قبلنا بذلك، فإنه لا معنى للتعدية بكلمة: **«على»**، وذلك ظاهر.

كما أن البعض قد قال: إن مرجع الضمير في كلمة «حبه» هو المصدر المفهوم من قوله: **«يطعمون»**، وهو **«الإطعام»**، تماماً كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1] فإن كلمة **«هو»** ترجع إلى العدل المستفاد من كلمة اعدلوا..

ولكن لا مجال لقبول هذا الكلام إن كان منشأ حب الإطعام هو

---

(١) سورة المائدة الآية٨.

ذات الإطعام.. لأن كلمة «على» إن كانت بمعنى مع، أي مع وجود حب الإطعام، فان هذا وإن كان يستبطن بعض المدح، من حيث إن هذه الحاجة الشديدة لم تؤثر على حبهم للإطعام.. ولكنه يستبطن أيضاً شيئاً من الانتقاص من حقهم، لأنهم إنما يطعمون، انسجاماً مع دواعي حب ذات الإطعام.. فليس في ذلك فضيلة متميزة لهم، ولا يوجد جهد في هذا البذل..

كما أنه إذا كان الإطعام مصاحباً لحبه، فليس فيه خلوص، وإخلاص يستحق هذا الثناء، فلا يصح الحصر بكلمة «إنما» في قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ لأن الإطعام ليس لوجه الله فقط، بل هو لأجل وجود دوافع أخرى لديهم، تدعوهم إليه.

وإن كانت كلمة «على» داخلةً على محذوف، ليصير المعنى: على رغم الحب الموجود للإطعام..

فضعفه أوضح وأبين، إذ لا معنى لقولك: أنا أطعم رغم أني أحب أن أطعم.. بل المناسب القول: أنا أطعم رغم أني لا أحب أن أطعم.

هذا كله إذا كان المقصود أن الحب ذات الإطعام هو الداعي، وأما إن كان حب الإطعام لا لذاته، وإنما لأجل تحصيل رضا الله به، أي أنه رغم جوعه، فإنه يحب إطعام هذا الطعام لليتيم، لأنه يرى أن ذلك يرضي الله تعالى، فهذا يكون غاية في المدح لهم، والثناء عليهم.. ولكن بشرط أن تكون كلمة «على» بمعنى مع الدالة على الترقي من الأدنى إلى الأعلى..

هل يحب أهل البيت عليهم السلام الطعام؟!

وعلى تقدير رجوع الضمير إلى الطعام، لا إلى الإطعام، قد يقول قائل: إنه لا معنى لنسبة حب الطعام إلى أهل البيت [عليهم السلام]، فإن

نسبة ذلك إليهم لا تنسجم مع ما يقال من زهدهم.. وتعلقهم بالله وحده..

ولكنه كلام غير دقيق، فإن المقصود بالحب هنا ليس هو حب الطعام الذي يعني التعلق بزينة الدنيا، وملذاتها.. بل هو حب فرضه الجهد في العبادة والنشاط في طلب رضا الله في النهار، على قلة في الطعام، وجشوبة في العيش، وهو حب لا ينشأ من الرغبة بالتلذذ بل منشؤه الحاجة إليه لحفظ الحياة، الذي هو تكليف إلهي شرعي، لابد لهم من امتثاله. فحبهم للطعام لا لذات الطعام، وإنما لغيره.. على طريقة:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

حبب إلي من دنياكم ثلاث:

وبذلك يعلم المراد من الرواية عن رسول الله [صلى الله عليه وآله]: **«حبب إلي من دنياكم الثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»**[1].

فإنه [صلى الله عليه وآله] لم يكن ليحب النساء، والطيب، لولا أن الله سبحانه قد حبب ذلك إليه.. مما يعني أن ثمة تصرفاً إلهياً في الشخصية النبوية، وهو تصرُّف تكويني ـ ربما من خلال اقتضاء الغريزة والفطرة ـ لابد أن وراءه مصلحة كبرى، لبناء حياة البشر، وفق ما يحبه الله تعالى ويريد..

فهذا التحبيب إذن، لا يعني أن له [صلى الله عليه وآله] تعلقاً بتلك الأمور، من حيث زينتها، أو من أجل أنها تحقق له لذة دنيوية، بل هي

---

(١) الحدائق الناضرة ج١ ص٢٦٤ و٢٦٥، وراجع: المهذب البارع ج٣ ص١٧٣، ورسائل المحقق الكركي ج٣ ص٢٢٥.

بمعنى لزوم تلبية الحاجة التكوينية التي فرضتها طبيعة الحياة. وامتثالاً للتكليف الإلهي، واستجابة لما يوجبه حفظ الحياة واستمرارها.

ولعل من مصلحة ذلك أيضاً: أن لا يفهم بعض الناس من عزوف الأنبياء عن النساء معنى الرهبانية، الذي لا ينسجم مع ما يريد الله سبحانه أن تكون عليه حياة الناس في بناء الأسرة وتكافلها، واطراد الحياة الإنسانية، مفعمة بالعاطفة، تنعم بالدفء، وبالحيوية، والسلام، والسلامة النفسية والأخلاقية..

كما أن من ثمرات هذا التصرف الإلهي التمهيد لولادة الزهراء الكبرى، سيدة نساء العالمين صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبنائها الأئمة الميامين الطاهرين..

وإذا كان هذا التصرف الإلهي لن يخرج في مجال فعليته عن حدود الشرع، وهو لا يعدو كونه أمراً يرتبط بالشخص.. ولا يؤثر على حياته العامة، ولا على موقعه كقائد، ومرب، ومعلم، ومرشد، وهاد، ولا يؤثر على مقامه، ولا على سلوكه الإنساني، والإيماني، والشرعي، بل هو يبقى في القمة في ذلك كله..

إذا كان كذلك.. فإن هذا في حد نفسه يكون مثلاً يحتذى، وقدوة تتبع، وأسوة لبني البشر جميعاً.. وهو قاطع للعذر، وملزم بالحجة، لكل من يريد أن يتعدى حدود الله، وينتهك حرمة شرائعه.. بحجة أنه واقع تحت تأثير الغريزة والشهوة، أو ما إلى ذلك..

ويبقى قوله [صلى الله عليه وآله]: وجعلت قرة عيني الصلاة، تجسيداً لطموحه [صلى الله عليه وآله] الأعظم والأهم، الذي يجد فيه غنى الروح، وطمأنينة القلب، ورضا وراحة الوجدان..

«مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً»:

وفي هذه الكلمات مباحث، وخصوصيات عديدة، نأمل أن نتمكن من أن نبين بعضاً منها، بحسب ما تصل إليه أفهامنا، وتتسع له صدور ووقت الإخوة الأكارم.

فنقول:

١ـ تنوين التنكير لماذا؟!:

إن أول ما يواجهنا هنا: أنه تعالى.. قد أورد هذه الكلمات: ﴿**مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً**﴾، منونة بتنوين التنكير، ولم يوردها محلاة بالألف واللام..

وربما يكون السبب في ذلك هو أنه إذا قال: «**المسكين، واليتيم، والأسير**» فقد يوهم ذلك: إرادة خصوص المعهودين لديهم، والمعروفين عندهم، فيكون إطعامهم لهم ناشئاً عن عدة دواع متمازجة، ومتعاضدة في التأثير، وفي الاندفاع إلى الإطعام.. لأن المعرفة بالشخص قد تدعو لإجابة طلبه، وكذا لو كان ذا قرابة مثلاً، أو من قومه، أو من بلده، أو مرتبطاً بذي قرابة، أو بصديق، أو جاراً، أو ما إلى ذلك..

أما تنوين التنكير فهو صريح في أنهم يطعمون أي مسكين، وأي يتيم، وأي أسير كان، ممن لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة.

وذلك يدل على أن اليتم والمسكنة والأسيرية هي المحرك الإنساني، وعلى أن الغاية هي وجه الله. وليس ثمة أية شائبة في هذا الخلوص، وذلك الإخلاص.. فليس في نفوسهم أية آثار لمؤثرات دنيوية أرضية غير إلهية، أو غير إنسانية.

فالدافع إنساني مرتبط بالمشاعر، والهدف إلهي، وقد تناغم هذا الهدف مع ذلك الداعي، فكان هذا الإيثار العظيم..

٢ـ توافق الترتيب البياني مع الواقع الخارجي:

وقد حدثتنا الروايات: عن أن الواقعة التاريخية، قد حدثت وفق الترتيب الذي أورده القرآن، فقد جاء المسكين أولاً، ثم اليتيم، ثم الأسير..

وذلك هو التوفيق والتسديد الإلهي الظاهر.. لكي لا يبقى أي مجال للتفكير في أن ما هو افتراضي، قد لا يكون منسجماً مع حركة الواقع الخارجي، خصوصاً حينما تتوافر الدواعي في الاتجاه المعاكس كما سنبينه..

كما لا يبقى أيضاً مجال للقول: بأن الحديث هنا جارٍ في ما هو مثالي.. وقد لا يتوافق المثالي مع مقتضيات الواقع وشروطه.

بل نقول:

إنه حتى لو لم يكن الترتيب في الآية مطابقاً لما حصل بالفعل، فإن نفس أن يأتي سياقها القرآني على هذا النحو، ستكون له أهدافه وأغراضه التكريمية، أو البيانية لمعان يريد الله لنا أن نتلمسها ونعرفها فيهم [عليهم السلام].. وقد تكون هذه المعاني الغيبية التي يكشفها الله لنا، رحمة بنا، وامتناناً منه تعالى علينا..

وحيث يأتي البيان على سبيل الإخبار عن طبيعة وسجية وديدن هؤلاء الصفوة، فإنه لا بد أن يزيد ارتباطنا بهم، وتعريفنا بحقيقتهم، ليكونوا لنا الأسوة والقدوة والمثل الأعلى.. فكيف، وقد تطابق الواقع الخارجي، مع السجية والطبيعة، فجاء المسكين، ثم اليتيم، ثم الأسير.. ليكون ذلك أدعى في الإقناع، وأوثق في الدلالة..

٣ـ حالتان تصاعديتان تتعاكسان:

وحين نريد أن نبحث الموضوع بعمق، فسنجد أن هناك حالة

تصاعدية في جهة السائلين، تقابلها حالة تصاعدية في ناحية الباذلين..

بمعنى أن الانتقال كان في ناحية السائلين من الأعلى إلى الوسط، ثم إلى الأدنى.

ولكن الانتقال في ناحية الباذلين كان من الأدنى.. وانتهى بالأعلى..

وهذا هو سر عظمة هذا الحدث، وهو أقوى تعبير عن حقيقة هؤلاء الصفوة الأطهار، حيث إنه يؤسس بصورة حية لفهم سرّ كل هذه الكرامة التي اختصهم الله بها، وهذا التشريف العظيم الذي حباهم سبحانه به..

وتوضيح ذلك يكون على النحو التالي:

٤ـ المسكين.. والباذلون في اليوم الأول:

إننا إذا أردنا أن نوضح ذلك، برسم صورة تطبيقية، فسنجد:

أن الذي أتى للصائمين في وقت إفطارهم، في اليوم الأول، هو «مسكين»، فمن هو هذا المسكين، وما هي حالته؟!

إن المسكين هو إنسان بلغ به الفقر أقصى مداه. إلى درجة أنه أسكنه، وجعله عاجزاً.

وقد روى أبو بصير رَحِمَهُ اللهُ عن الإمام الصادق [عليه السلام] أنه قال: **«الفقير الذي لا يسأل، والمسكين أجهد منه، والبائس أجهد منهما»**[1].

وصيغة «مسكين»، تفيد التكثير.. أي يكثر سكونه، لأنه كلما أراد أن يتحرك للحصول على شيء أحس بعجزه، فيسكن..

ومعنى ذلك: أنه قد جرب حظه في الحياة أكثر من مرة، وبذل أكثر

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣ ص٥٧ وتفسير نور الثقلين ج٣ ص٤٩١.

من محاولة للخروج من المأزق، فلم يفلح.

وواضح: أن الإنسان إذا بلغ هذا الحد، فإن أمله يتضاءل ويذوي.. كما أنه يفقد شيئاً من عنفوانه، ومن قوة شخصيته.

إذن، فحالة هذا الشخص تثير العطف الشديد، وتوجد اندفاعاً قوياً لمساعدته، ممن يرى ذله، وعجزه، وحاجته، وانكساره..

وفي المقابل كان الباذلون للطعام، الذي تتحدث عنه الآية الشريفة، قد صاموا يوماً كاملاً، واحتاجوا إلى الطعام بصورة حقيقية وفعلية، وضعفت أجسادهم، ولا سيما أجساد الأطفال الذين في جملتهم، وكانوا صائمين أيضاً..

وهؤلاء الأطفال لا كسائر الأطفال، بل هم خيرة الله سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده..

وقد كان من الطبيعي أن يتنازع أولئك الباذلين عاملان.. أحدهما يدفعهم للبذل، وهو حالة المسكين الصعبة للغاية.. وحالة حاجتهم الذاتية للطعام.. وثانيهما الحاجة العاطفية للاحتفاظ به لأجل طفلين هما الغاية في الكمال، والنبل، والفضل، والصفاء.. ولا شك في أن أحداً على وجه الأرض، لا يملك مواصفاتهما، وميزاتهما.

فإمكانية الاستجابة للعامل الأول تبقى موجودة، وفيها شيء من القوة.. فإذا استجابوا له، فإنهم ـ ولا شك ـ يكونون قد قاموا بعمل عظيم، ولكنه ليس مستحيلاً، بسبب قوة التحريك للعطاء، من خلال الانسجام العاطفي والإنساني، مع حالة المسكين.

ومن جهة أخرى، فقد كان بالإمكان أن يعطوا المسكين بعضاً من طعامهم على سبيل المشاركة، والتسوية بالنفس.. ولكنهم لم يفعلوا ذلك،

بل اندفعوا بالإيثار إلى أقصى مداه، فأعطوه جميع ما أعدوه لإفطارهم. لأنهم أرادوا له أن يجد الفرصة لمراجعة حساباته، واستئناف تحركاته في سبيل عمل يخرجه مما هو فيه..

أضف إلى ذلك، أن هذا العطاء كان بالنسبة للباذلين، في ساعة حرجة جداً. وبالذات في ساعة الإفطار، حيث تلح النفس بالمطالبة بالطعام، وتدعو للاحتفاظ به، إذ لو طلب منهم بذل الطعام، قبل حلول ساعة الإفطار، فإن التخلي عن الطعام يكون أيسر، لعدم وجود هذا الإلحاح على الاحتفاظ به، بفعل قوة الحاجز، مع الإفساح في الأمل بإمكانية الحصول على البديل فيما تبقى من الوقت..

ولكن الطلب قد جاء في الساعة الحرجة والصعبة، وحيث يشتد تعلق النفس بالطعام، فكيف إذا مازج ذلك عامل الحضور والمشاهدة والعيش بالأجواء، حتى لتكاد الأيدي تمتد إليه، فإن التعلق به سيكون ـ بلا شك ـ أقوى، والتخلي عنه أصعب..

ولكن حالة المسكين وضعفه، وشدة حاجته، فيها أيضاً شيء من قوة الدعوة للبذل، ودرجة من التأثير المعاكس في أحوال كهذه..

٥ـ اليتيم والباذلون في اليوم الثاني:

وفي اليوم الثاني.. حيث لم يذق الصائمون طعاماً طيلة يومين كاملين. بل اكتفوا بشرب الماء في الليلة السابقة. قد أصبح واضحاً: أن الحاجة إلى الطعام قد اشتدت، ودواعي الاحتفاظ به قد ازدادت، والحرص عليه قد تنامى وعظم، لا سيما مع وجود صبيين معهم، هما الحسنان بالذات.. وهما سيدا شباب أهل الجنة، وريحانتا رسول الله [صلى الله عليه وآله].

وكان وقت الإفطار قد حضر أيضاً، وطبيعي أن يزداد التطلع للطعام، والبحث عنه، وبعد حضوره يزيد التعلق بما حضر منه.. فكيف إذا وضع أمامهم، وتكاد الأيدي تتحرك باتجاهه، وتمتد إليه.

وإذا بسائل جديد، هو في هذه المرة «يتيم»، وليتمه تأثيره على النفوس. ولكن الاندفاع إلى مساعدته يكون في العادة أضعف من الاندفاع لمساعدة المسكين، لأن احتمالات الحاجة فيه أقل وأضعف. إذ إن يتمه لا يدل على حاجته المادية..

فإن نفس الحالة الظاهرة للمسكين هي حالة حاجة وفقر، وعجز عن إيجاد ما يتبلّغ به، وهي فورية، وحادة، وهي بنفس ظهورها فيه تمثل دعوة لمساعدته بلسان الحال، وهي شاهد صدقه في ما يدعيه، بلسان المقال..

أما اليتيم، فإن هناك شفقة عليه، لأجل يتمه، وحاجته للعاطفة والطمأنينة، لا لأجل حاجة ظاهرة له، تستبطن دعوة بلسان الحال لمساعدته.. إذ لعله كاذب في دعواه الفقر..

وحتى لو كان صادقاً، فإن الفقر الذي يخبر عنه لا يصل في حدته إلى درجة ظهور ذلك في حالته. كما كان الحال بالنسبة إلى المسكين..

بل هو لا يزال في مقتبل العمر، والفرص أمامه، ولم يمارس بعد إمكاناته، وقدراته، بل هو لم يكتشفها بعد. ولعل مشكلته ناشئة من فقد التوجه الصحيح له، بعد أن فقد كافله.. ففرص النجاح أمامه متوفرة، وأمله كبير، وطموحه عارم.

وتحرك العاطفة لأجل فقر اليتيم، ليس بدرجة تحركها لأجل ذل ومسكنة المسكين.. ويتمه، لا يحرك الإنسان ليتخلى له عن طعامه، حتى

في الحالات العادية. فكيف بعد طي يومين من الصيام المتواصل، واشتداد الحاجة للطعام؟!..

وحتى لو أراد أن يتخلى ذلك الصائم له عن شيء، فإنه سيقنع نفسه بأنه لا حاجة لأن يتخلى له عن جميع ما هيأه.. فضلاً عن أن يعطيه إياه ساعة الإفطار، وبعد أن وُضع أمامه، وبعد مضي يومين على الصيام.

وإذا أعطاه شيئاً، فإنما يعطيه طعام نفسه، ولا يعطيه طعام غيره كزوجته، وولده.. فكيف إذا كانت السيدة الزهراء [عليها السلام] هي الزوجة، وكان الولدان الوحيدان له طفلين صغيرين، ثم كانا هما الحسنان بالذات، في ميزاتهما، وفي موقعهما من الدين، ومن الإسلام كله، وليس لهما على وجه الأرض مثيل، لا من الأيتام، ولا من غيرهم. وهما اللذان تتجلى فيهما ميزات الإمامة وخصائصها، بأجلى وأبهى مظاهرها..

وأبواهما كانا أعرف من كل أحد بهما، وبقيمة مزاياهما، وبكرامتهما على الله سبحانه، فهل يمكن أن يخاطرا بحياتهما، لمجرد احتمال حاجة يدّعيها يتيم، ليس هو مثل الحسنين قطعاً، وهي حاجة ـ حتى لو كانت واقعية ـ فليس ثمة ما يدل على أنها تبلغ درجة الإحراج والعسر..

إذن.. فقد ازدادت المثبطات، وتوافرت الموانع عن الإعطاء، سواء فيما يرتبط بالاعتبارات التي تزداد قوة وتنوعاً، في ناحية الباذلين، أم فيما يرتبط بضعف المشجعات في جانب السائلين، حيث تضاءلت وانحسرت وضعفت تلك الخصوصيات التي تثير وتحرك.

ولكن وبرغم ذلك كله، فإن العطاء والبذل، قد بلغ أيضاً أقصى مداه، حيث أعطوا [عليهم السلام] في اليوم الثاني أيضاً جميع ما يملكون، وآثروا اليتيم به على أنفسهم مع شدة الحاجة والخصاصة. وبذلك فقد

أصبح هـذا الإطعـام أعظـم قيمـة، وأشـد أهميـة، إذا لوحظـت جميـع الخصوصيات التي أشرنا إليها..

٦ـ الأسير.. والباذلون: في اليوم الثالث:

ويطوي الصائمون ليلتهم، ولا يقدرون على شـيء إلا علـى شـرب الماء، ويصومون يوماً ثالثاً هو الأشد، والأقسى، والأمض، وقـد أصـبحت الأخطار الجسام تتهدد صفوة الخلق، وصبية هم خيرة الله، وحججه على عباده، بصورة أعظم وأقوى..

ويحين وقت الإفطار، وهو ما يجعل النفوس أيضاً تهفوا وتتطلع إلى الطعام، فكيف إذا كان ذلك بعد ثلاثة أيام من الطوى. ثم يوضـع الطعـام أمامهم، ولا يحول بينهم وبينه شيء..

وقد بلغت خطورة الموقف حداً قاسياً، يدعوهم ليس فقط إلى عدم بذل الطعام، وإنما إلى بذل كل الجهد والتضحية في سبيل الاحتفاظ به..

وإذا بسائل جديد يطرق الباب.. غيـر أن حالـة هـذا السـائل كانـت أخف الحالات وأهونها، فإنها ليس فقط لا تثير شعوراً قوياً بالرغبـة فـي مساعدته، بل ربما تكون المثبطات والموانع عن إعطاء هذا السائل، أكبـر وأظهر..

ولا نريد أن نتحدث عن الحالات، ولا عن الخصوصيات التي كانت في جانب الباذلين، فقد ظهر جانب منها في البيانات السـابقة، بـل نريـد فقط أن نُلمحَ إلى ما كان منها في ناحية السائل.. فنقول:

إنه عدا عن جميع ما لاحظناه من خصوصـيات فـي جانـب اليتـيم والمسكين.. فإن الأسير رجل مكتمل قـوي البنيـة، قـادر علـى مواجهـة الآخرين، حتى بالقتال، وله قدرة على تحمل الصعاب، ومكابدة المشاق..

والزهراء [عليها السلام] في هذا الجانب امرأة، والحسنان [عليهما السلام] أيضاً لم يكونا قد بلغا سن الأقوياء، فيما يعرفه الناس من ذلك..

ومشكلة الأسير تبقى محصورة في مدة أسره، المانع له من بعض ضروب السعي.. وهي مشكلة لها أمد، ولها مخرج. وسينتهي الأمر به إلى الخروج من هذه الحالة، والعودة إلى أهله، وأملاكه، وإلى الذين لديهم أكثر من دافع لمد يد العون له.. بخلاف المسكين الذي ليس لديه ما ينعش به، وبخلاف اليتيم الذي لن يجد مثل كفيله الذي فقده كفيلاً، وحامياً، وراعياً، وحبيباً..

ثم إنه ليس في الأسير أية جهة أخرى ـ سوى ما يدَّعيه من الحاجة ـ تدعو إلى العطف عليه، كما كان الحال بالنسبة ليتم اليتيم..

بل هناك ما يدعو إلى النفور منه، وإلى حرمانه، فإنه مجرد أسير، والأسير في واقع الأمر محارب للإسلام وللمسلمين.. وربما لا يكون قد تخلى عن عدائه لهم، ولا ذهب حقده عليهم.. بل ربما لا يكون قد تخلى عن كفره، أو شركه، أو انحرافه.

وإذا كان قد أسر في ساحة الحرب، فلعله قد قتل بعض الأحبة، والأصفياء، أو شارك في قتلهم..

ولعل اليتيم الذي جاءهم بالأمس قد فقد كافله، وحاميه في الحرب التي شارك فيها هذا الأسير نفسه، أو شارك هو في قتله، أو في الأجواء التي تمكن القتلة من القيام بجريمتهم..

أضف إلى جميع ذلك، أن نهاية هذا الأسير ستكون هي الرجوع إلى قومه، ولعله يعود معهم إلى حرب الإسلام والمسلمين من جديد..

وكل هذا الذي ذكرناه، قد يكون معذراً مقبولاً أمام الوجدان،

وتبريراً معقولاً لرد طلبه عند العرف والعقلاء..

ثم إنه لم يظهر من حال هذا الأسير ما يشي بصدقه فيما يدّعيه من الحاجة.. وحتى لو كان صادقاً، فإن حاجته ليست بمستوى حاجة من طوى ثلاثة أيام بدون طعام، فكيف إذا كان هذا الطاوي هو طفلان صغيران. ثم كانا هما الحسن والحسين، ومعهما الزهراء، وعلي أمير المؤمنين عليهم السلام.

ثم إنه قد كان يمكنهم [عليهم السلام] أن يعطوه بعضاً من ذلك الطعام، ويحتفظوا لأنفسهم بالباقي، أو يحتفظوا بطعام الحسنين عليهما السلام على الأقل..

فكل هذه العوامل التي ذكرناها تدعو إلى الاحتفاظ بالطعام.. تضاف إليها العوامل المضادة والمانعة من العطاء، ومن بينها ما هو قوي، ومتناغم مع العواطف والمشاعر الإنسانية، ومع كثير من النقاط التي سجلناها من ابتداء الحديث إلى هنا..

وبعد هذا كله.. فقد جاءت المفاجأة وأعطى هؤلاء الصفوة ذلك الأسير كل ما لديهم، وعرّضوا أنفسهم للأخطار الجسام. مع أنه قد كان يكفيه بعض ما أعطوه، غير أنهم أرادوا له أن يجد لنفسه قوتاً في أطول زمن يمكنهم أن يمدوه بالقوت فيه..

والبذل في مثل هذه الحالات، وبملاحظة كل تلكم الخصوصيات، هو منتهى الكمال الإنساني، والإيماني، والروحي، وهو الحد الذي لا يصل إليه بشر. إلا إذا كان ذلك البشر هو الرسول الأعظم [صلى الله عليه وآله] رغم أن عطاءهم في ظاهر الأمر، كان بضعة أقراصٍ من شعير.. لكن الحقيقة هي أن في هذه الأقراص، كل حياتهم، وكل وجودهم، وكل الطهر، والإيمان والإخلاص..

٧ـ السائلون.. هل هم مسلمون؟!:

وقد يحاول البعض أن يدعي: أن المسكين، واليتيم، والأسير، كانوا من المسلمين.

ونقول:

إنه لا مبرر لهذا التخصيص، ولا دليل يثبته، بل إن الأمور التي ركزت الآيات عليها ترجع إلى شعور إنساني فياض، ونبيل، لا يفرق بين مسلم وغيره، فإن لكل كبد حرّى أجر، ومن خلال هذا الشعور الإنساني يتحرك الإنسان في الاتجاه الصحيح، يرفده بالدفقات الروحية وبالمشاعر الإنسانية حتى يبلغ به إلى الهدف الأقصى، وهو أن يصبح عمله كله لله سبحانه..

هذا كله فضلاً عن أن بعض الروايات قد أشارت إلى أن الأسير الذي سأل هؤلاء الصفوة فأعطوه.. قد أسره المسلمون أنفسهم، ولم نجد في تاريخ الإسلام أن أحد المسلمين قد أسره الرسول [صلى الله عليه وآله] مع المشركين حتى احتاج إلى زيارة بيوت الناس للاستجداء..

٨ـ الترتيب هنا عكسه في آيات أخرى:

وبعد.. فإن هذه الآية قد ذكرت المسكين أولاً، ثم اليتيم، ثم الأسير.. ولكننا نجد أنه تعالى حين يعدد أصناف المستحقين للزكاة والخمس.. رتبهم بطريقة مختلفة، فهو يقدم الفقراء، أو اليتامى مثلاً على المساكين.. فما هو السبب يا ترى؟!

وقد يمكن الجواب عن هذا: بأن النظر في تلك الآيات المباركة يحتاج إلى إثبات أن هذا الصنف مستحق لهذا القسط من الخمس.. أو الزكاة، أو الصدقات. وليس ثمة أي اختلاف في ناحية المقدار فيما بين جميع الأصناف. وقد جيء بالعناوين لمجرد أن تكون مشيرةً إلى

موضوعاتها، ليتعلق الحكم بها.

ولكن الأمر هنا ليس كذلك، إذ إن لنفس هذه العناوين دوراً في إفهام الخصوصيات المطلوبة في المعنى الذي هو بصدد بيانه والتأكيد عليه، وهو ذلك المعنى الإنساني الإلهي العظيم، الذي ألمحنا إلى بعض جوانبه..

٩ـ الإكرام أم الإطعام؟:

وقد ركزت هذه الآيات على إطعام اليتيم، ولكنه تعالى في آيات أخرى قد تحدث عن إكرامه..

ثم إنه تعالى حين تحدث عن إطعامه أخّره بالذكر عن المسكين. ولكنه حين تحدث عن إكرامه قدمه بالذكر على المسكين، فقال: **﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾**[2].

فالدعُّ هو الدفع.. وعدم التقبُّل.. وهذا يعتبر عدواناً على من يفترض في الإنسان المتوازن أن يبادر إلى الترحيب به وإكرامه..

وعدم الحض على طعام المسكين يأتي في المرتبة التالية.. لأن الحالة الظاهرة في المسكين هي حاجته لما يزيل حالة السكون الناشئة عن شدة حاجته..

أما اليتيم فإنه بحاجة إلى المعالجة الروحية، وإلى أن يخرج من

---

(١) سورة الفجر الآية ١٨.

(٢) سورة الماعون الآية ٢.

دائرة الصدمة، والخوف من المستقبل، وأن يشعر بأنه ليس وحده في هذه الحياة، بل الجميع معه، وإلى جانبه..

فلا بد من ذكره أولاً، لأن سلامة الحالة النفسية، هي الأهم.. وبها يكون قوام وسلامة شخصيته.. فكيف إذا كان هناك دعٍّ له، وممارسة درجة من العدوان عليه.

أما حين تكون القضية مجرد قضية الحاجة إلى المال.. فإن الأولوية إنما تكون لمن تشتد حاجته للمال.. والمسكين هو الحالة الأصعب بالنسبة لليتيم، والأسير..

١٠ـ قصة الإطعام.. وهدف السورة:

هذه السورة تتحدث عن النشأة الإنسانية، ومسيرتها إلى غاياتها في ظل الهداية الإلهية، لتتجلى من ثم أنوار أشرف المخلوقات، من سماء الكرامة والمجد، لتضيء هذه الحياة بأنواع الهدايات إلى صراط الله العزيز الحميد..

وقد ذكر الله سبحانه ذلك، تارة بطريقة البيان لمنازل كرامتهم، وتارة أخرى بأسلوب التجسيد الحي، الذي تتجلى فيه كمالاتهم، وإنسانيتهم، موقفاً وسلوكاً، وطريقة حياة..

فجاءت قصة إطعامهم اليتيم والمسكين والأسير، لتجسد أمام عين الإنسان تلك المضامين. لكي يحس بها، ويتلمسها، ويتمازج لديه المحسوس بالمعقول، ليكون ذلك أوقع في النفس، وأشد في الإقناع، وأرسخ في اليقين..

تبدل السياق:

ثم تبدل السياق، من الحديث بصيغة الغائب: يوفون، يخافون،

يطعمون.. إلى صيغة المخاطب: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾.

ولكن طريقة التغيير في السياق، قد جاءت فريدة ومتميزة، إذ إنه لم يذكر هنا أي نحو من الأنحاء التي يتم بها الانتقال من الغيبة إلى الخطاب!!

فهل يريد أن يقول: إن لسان حالهم هو هذا: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾؟!.

أم أنه يريد أن يقول: إنهم كانوا يقولون للسائلين هذه الكلمات؟!..

فإن كان سبحانه وتعالى، قد قال ذلك على سبيل أن هذا هو لسان حالهم، فنقول: إن ذلك يحتاج إلى أن يقترن بشاهد يبينه، فإذا قال الراوي، مثلاً: إن لسان حال الإمام الحسين [عليه السلام] هو:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني

فشاهد ذلك هو تضحيته عليه السلام، بأخوته وبولده، حتى الطفل الرضيع، وصبره على آلام الجراح..

وفي واقعة إطعام الطعام ـ تجد أن هناك ما يشهد للسان الحال هذا، فإن حياتهم [عليهم السلام] كلها لله سبحانه، وفي سبيله.. كما أن نفس المفردات والخصوصيات التي قررناها في شرحنا لحال الباذلين، ولحال السائلين تشهد بذلك أيضاً.

وإن كان المراد بالآيات هو أنهم [عليهم السلام] كانوا يقولون ـ فعلاً ـ للسائلين هذه الكلمات: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾، فقد يكون الوجه في ذلك هو أنهم [عليهم السلام] كانوا يريدون للسائلين أن يطمئنوا إلى أنهم سيعاملونهم بما يحفظ لهم ماء وجههم وكرامتهم، إذ إنهم لا يريدون منهم جزاء، بل هم لا يريدون منهم حتى الشكر، ولو

بأدنى حالاته، وأقل مستوياته..

ولكن.. أن يصدر هذا القول منهم، لكل سائل أتاهم، فذلك قد يكون غير مألوف.

والذي نراه هو: أن من الممكن أن يكونوا قد قالوا لهم ذلك، حين رأوا علامات الدهشة والخجل ترتسم على وجوههم، وهم يرون هذا الإيثار العظيم من هؤلاء الصفوة، فتأتي هذه الكلمات لكي تطمئنهم إلى أنهم غير مطالبين برد هذا الجميل، لأنهم إنما يطعمونهم لوجه الله تعالى..

إن الإحسان حسن في حد ذاته، ولكن شرط أن لا يشعر السائل بالمن والأذى.. لأن السائل شديد الحساسية تجاه من يعطيه، حتى إنه قد يفسر احترامه له على أنه حركات تهدف إلى تذكيره بما أعطاه.

فإعلامه بأنه لا منة لأحد عليه، إحسان آخر إليه، فكيف إذا بلغ ذلك حداً جعله يشعر بأنه هو المتفضل على من أعطوه، لأنه كان سبباً في نيلهم الثواب والفضل عند الله تعالى، فإن ذلك سوف يؤنسه، ويدخل السرور والبهجة على قلبه..

ولأجل ذلك كان يهتم الأئمة [عليهم السلام] بالتزام سرّية العطاء، حتى إن الإمام السجاد [عليه السلام] كان يعول مئة أهل بيت، يحمل لهم ليلاً أجربة الدقيق على ظهره، ولم يعرفوه حتى مات[1].

---

(١) راجع: سفينة البحار ج٦ ص٢٤٥ عن مناقب ابن شهرآشوب ج٣ ص٢٩٣، والكافي ج١ ص٤٦٨، والعلل ج١ ص٢٣٢ والخصال ص٥١٧ والوسائل ج٩ ص٣٩٧ و٤٠٢ وغيرها من المصادر.

فالأئمة [عليهم السلام] يريدون بذلك أن يصونوا السائل عن أن يفكر بطريقة خاطئة.

أسئلة تحتاج إلى جواب:

هناك عدة أسئلة وجهها أخ كريم، نذكرها، ثم نجيب عليها، والأسئلة هي التالية:

السؤال الأول:

إن مجتمع المسلمين آنئذ كان لا يزال صغيراً ومحدوداً، وكان النبي صلى الله عليه وآله قد آخى بيّن المسلمين على الحق، والمواساة..

ومن الواضح: أن من أجلى مظاهر ذلك هو المواساة بالمال، حيث يبادر كل منهم لمعونة أخيه، بمجرد رؤيته لعجزه، أو لضعفه، أو حاجته..

وكان النبي صلى الله عليه وآله يحث الناس باستمرار على التكافل والتعاون، وقضاء حاجات بعضهم البعض، ولم يكن صلى الله عليه وآله، ليرضى أن يكون في حضرته محتاج. أو ليسمح بنشوء حالة من هذا القبيل..

لا سيما وأنه مظهر يوجب الشك والترديد في واقعية وصدقية التوجيهات الإسلامية، مثل ما ورد عنهم عليهم السلام: لو مثل لي الفقر رجلاً لقتلته..[1].

وقوله: «ما آمن بالله واليوم الآخر، من بات شبعاناً وجاره جائع..»[2].

---

(١) شرح إحقاق الحق ج٣٢ هامش ص٢١٣ عن كتاب علي إمام المتقين ج٢ ص٢٣ النظام السياسي في الإسلام ص٢٤٧.

(٢) بحار الأنوار ج٧٤ ص١٩١، وسائل الشيعة (الإسلامية) ج١٢ ص١٥٣.

السؤال الثاني:

لو أن المسلمين لم يقوموا بواجبهم، تجاه إخوانهم.. فإن المفروض: أن يتكفلهم النظام الإسلامي المتمثل برسول الله صلى الله عليه وآله، فينفق عليهم من أموال الدولة.. تماماً، كما نقل عن الإمام علي عليه السلام، حين رأى رجلاً من أهل الكتاب يسأل الناس، فقال: «**ألم يكن في بيت مال المسلمين ما يكفي هذا وأمثاله؟!**»..

السؤال الثالث:

وسؤال يطرح نفسه أيضاً: وهو أنه كيف يكون الذي جاءهم في المرة الثالثة أسيراً، ويكون طليقاً يدور على البيوت، حتى بعد دخول الليل؟! ألا يحتمل أن يبادر إلى الفتك ببعض المسلمين؟! أو إلى الغدر بهم، في بعض مجالات حياتهم ثم الهرب؟!..

وقد سجل لنا التاريخ: أن العباس كان موثقاً بعد أسره؟! ولم ينم النبي صلى الله عليه وآله، لأنه كان يسمع أنين العباس في وثاقه. فلما أرخوا من وثاقه، وسكن أنينه، نام صلى الله عليه وآله..

السؤال الرابع:

أنه إذا كان أسيراً، فلماذا يكون هو المسؤول عن تحصيل لقمة عيشه؟! أليس من المفترض أن يكون المسؤول عنه هو النظام الذي أسره؟!.. فيتولى هو إطعامه، والإنفاق عليه، وتأمين مختلف حاجاته، ومنها الملبس، والمسكن، وغير ذلك؟!..

السؤال الخامس:

لماذا أتاهم واحد من هؤلاء في كل ليلة؟! ثم لم يرجع إليهم أحد منهم في الليلة التالية، والتي بعدها؟!..

جواب السؤال الأول:

نجيب بما يلي:

أولاً: إن المسلمين في تلك الفترة كانوا قلة قليلة، ولم يكن لديهم مصادر للتوسع في العيش، ثم العود بالفضل على إخوانهم، وليس فيهم أغنياء بالمستوى الذي يسمح باستئصال جذور الفقر والحاجة في مجتمعهم..

وكانت مسؤولياتهم أكبر من قدراتهم، وقد أضافت الحروب أعباء أخرى أثقلت كواهلهم، بما كانت تحتاج إليه من نفقات، مع ما توجبه من توقف عن العمل.. ثم ما تحمله لهم من مشكلات اجتماعية، واختلال علاقات، بالإضافة إلى فقد بعض العوائل للكافل والمعين، وابتلاء بعض المقاتلين بإعاقات بدنية، أو نقص بعض الأعضاء، وما إلى ذلك..

ثانياً: إن التاريخ يحدثنا عن فترات من القحط الشديد، كان الناس يبتلون بها آنئذ، وكان ذلك يضر بالحالة العامة، ويزيد من صعوبة حصول الناس على ما يتبلغون به، بل يذكرون أن النبي صلى الله عليه وآله نفسه كان يشد الحجر على بطنه من شدة الجوع..[1] ولعل قضية هؤلاء قد حصلت في هذه الفترة..

جواب السؤال الثاني:

نجيب بما يلي:

بأن تكفل النظام الإسلامي للمحتاجين، والاستشهاد بقول أمير

---

(١) بحار الأنوار ج١٢ ص٢٨ وج١٦ ص٢٢٧ مناقب أمير المؤمنين ج١ ص٥٨.

المؤمنين عليه السلام، يدل على ما نقول، إذ إن فعل أمير المؤمنين عليه السلام قد أظهر: أن بيت مال المسلمين، كان هو الذي يتكفل بمعالجة مثل هذه الحالات..

وكان النبي صلى الله عليه وآله، هو سيد المسلمين، وهو أولى الناس بالعمل بهذا المفهوم الإسلامي الرصين، فلما رأيناه لم يفعل ذلك علمنا: أن بيت مال المسلمين كان في تلك الفترة عاجزاً حتى عن معالجة مثل هذه الحالة، بسبب عدم وجود المال فيه.. حسبما أشرنا إليه..

جواب السؤال الثالث:

نجيب بما يلي:

أن الأسير إذا كان قادراً على العمل، وعلى السعي بنفسه، فما الذي يمنع من أن يفسح له آسره المجال لطلب لقمة عيشه بنفسه، فيخفف من درجة أسره من أجل ذلك..

فإذا أعطاه قسطاً من الحرية، فإن ذلك يفرض عليه أن يعطي في مقابل ما حصل عليه من حرية محدودة، امتيازاً للطرف الآخر على شكل مال يقدمه له، أو عمل يقوم به، أو أي شيء آخر..

ويكون إيكال أمر معيشته إليه في هذه الحالة هو أدنى ما يمكن أن يقوم به لنفسه، ولكن لا يصح أن يعد ذلك في جملة ما يتوجب عليه تقديمه، مقابل ذلك القسط من الحرية. وإلا فقد كان يمكن لآسره أن يحتفظ به في غياهب السجون، وليس لأحد أن يلومه في ذلك..

جواب السؤال الرابع:

نجيب بما يلي:

إنه ليس من العدل أن يقاتل الأسير أهل الحق، ويعتدي على

كرامتهم، وأرواحهم، ويسعى في إبطال دين الله، وإلى أن يسلبهم الحق الذي جعله الله تعالى لهم، في العيش بكرامة، في ظل رعاية الله، ورفض حكم الطاغوت، والتحرر من هيمنة الباطل وأهله..

نعم.. ليس من العدل أن يفعل هو ذلك، ثم يُكلِّف هؤلاء المظلومون، المعتدى عليهم، بالإنفاق عليه، وبذل أموالهم في سبيله، لمجرد أنهم استطاعوا أن يبطلوا كيده، وأن يمنعوه من مواصلة العدوان.. خصوصاً، إذا كان لا يوجد ما يضمن عدم معاودته الكرة عليهم، بمجرد امتلاكه عناصر القدرة على ذلك، وارتفاع الموانع..

ومع غض النظر عن هذا وذاك، نقول: إن الواجب هو الإنفاق على الأسير، حيث تتوفر القدرة على ذلك.. أما مع العجز، فإن إعطاء بعض الحرية، ليتولى هو بنفسه شؤون نفسه، لا بد أن يعتبر من أعظم الإحسان إليه، ومن مظاهر التفضل عليه..

إن الحديث عن مسؤولية النظام الذي أسره عنه، غير دقيق، **وذلك لما يلي:**

أ: إنه لم يكن هناك أي مبرر لنشوء بيت مال للمسلمين، في تلك الظروف الصعبة التي ألمحنا إليها..

ب: إن الإسلام يرى: أن للآسر حقاً في الأسير، وفي فدائه، ما دام أنه هو الذي تمكن من أسره.. خصوصاً في ذلك الزمان الذي كان قتل الأعداء وأسرهم مستنداً إلى فعل الأشخاص مباشرة، وهو نتيجة جهدهم، وتضحياتهم، وبطولاتهم..

وحتى في هذه الأيام، فإن المفروض هو إيجاد صيغة تسمح لكل من شارك في الحروب المشروعة بأن يستفيد من غنائمها، على أن

تتناسب تلك الصيغة مع المستجدات في سياسات الحروب.. ولهذا البحث مجال آخر..

جواب السؤال الخامس:

وأما بالنسبة للسؤال الخامس، فإننا نقول:

قد يكون السبب في عدم عودتهم لطلب المعونة من أهل البيت الطاهر في اليوم التالي، هو اكتفاؤهم بما أعطوهم إياه لأكثر من يوم.. أو يكون السبب هو وقوفهم على الواقع الصعب الذي كان يعيشه أولئك الصفوة.. وقد يكون السبب غير ذلك..

* * *

الفصل التاسع:

{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً}

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾.

«إِنَّمَا»:

ثم إنه تعالى قد بين أن الغاية التي كان يتوخاها أولئك الأبرار من إطعام الطعام محصورة في أنها وجه الله سبحانه.. وذلك من خلال كلمة «إِنَّمَا» الدالة على الحصر.

«نُطْعِمُكُم»:

وقد جاء التعبير بـ «**نُطْعِمُكُم**»، ولم يقل: «**نعطيكم**»، لأن اللذة الحقيقية للباذلين وأنسهم، إنما يكونَ في أن يأكل السائلون هذا الطعام دونهم.. وليست لذتهم في مجرد البذل والأخذ، لأنهم أرادوا أن يكون أكل السائل لذلك الطعام بديلاً عن أكلهم هم له.

«لِوَجْهِ الله»:

وقد قال تعالى: «**لوَجْه الله**»، ولم يقل: «**نطعمكم لله**»، لأنه يريد أن يفهمنا: أن المقصود هوَ جعل الشيء باتجاه الله، بمعنى إحداث صلة له به تعالى، ليكون مقرباً إليه. وبإحداث هذه الصلة.. يصبح ذلك الفعل متصلاً بالمطلق واللامتناهي. وبالباقي غير الزائل، فيكتسب منه صفة الإطلاق والبقاء. ولعل هذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

ولو قال: «نطعمكم لله»، فإن هذا المعنى الدقيق، سوف يضيع، إذ ليس المراد أننا نطعمكم لأجله سبحانه، وإكراماً له، ومحبة به..

بل المراد: أن نجعل الطعام متصلاً به، مكتسباً منه صفة البقاء واللاانتهاء، واللامحدودية..

وثمة فهم آخر لقوله تعالى: ﴿لِوَجْهِ اللهِ﴾، وهو أن يكون المراد: أن الإطعام قد كان لأجل الحصول على إقبال الله تعالى عليهم بوجهه الكريم الرحيم، وبكل أسمائه وصفاته.

بمعنى أن الله سبحانه يقبل بوجهه، أي بألطافه ورحماته، ونعمه، وخيراته، ورعايته، وعنايته على المطعم، والعامل.. ولذلك قال سبحانه: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾**.. أي ستجدونه تعالى مقبلاً عليكم بألطافه التي تعرفكم إياه، بنحو من أنحاء التعريف، فإن وجه الشيء، هو ما يعرف الشيء به، ويستدل به عليه، قال تعالى: **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾**.. لأن عمل الخير متصل به تعالى.. باق ببقائه.. لأن الهالك هو ما ليس فيه جهة إلهية تمنحه البقاء.

لماذا الحصر بـ«إنَّمَا»؟!:

وقد سأل سائل عن سبب اختيار كلمة «إِنَّمَا» لإفادة الحصر، دون الحصر بما وإلا.. فلم يقل: ما نطعمكم إلا لوجه الله تعالى..

ونقول في الجواب:

هناك إجابتان على هذا السؤال، هما:

الأولى: أن الحصر بـ «إِنَّمَا» هو الراجح، بل المتعين هنا، وقد يمكن تقريب رجحانه، بالقول: إن كلمة «إِنَّمَا» صريحة في إثبات حصر الإطعام بوجه الله، من بداية الكلام إلى نهايته.

وأما الحصر بما وإلا، فهو يبدأ بالنفي للإطعام. ثم يعود إلى حصره، وإثباته في دائرة وجه الله سبحانه..

ومن الواضح: أن السائل متلهف لسماع كلمة الإيجاب، فلا يحسن استقباله بالنفي لأحب شيء إلى قلبه، وهو الإطعام. فإن ذلك سوف يثير رعشة خوف في القلب ولو للحظة.. ولا يريدون [عليهم السلام] لهذه الرعشة أن تكون. لمزيد من الرأفة منهم، والرحمة بالسائل..

والحفاظ على مشاعر السائلين، ولو بهذا المقدار، يعتبر إحساناً آخر بالقول إليهم، يضاف إلى الإحسان بالفعل.. وسيزيد ذلك في سرورهم، خصوصاً إذا كان هذا قد قيل للسائلين فعلاً، وليس هو مجرد لسان حال يحكيه الله سبحانه لنا عنهم.

الثانية: إن الحصر بواسطة «**إِنَّمَا**» يأتي نصاً في المطلوب.. أما الحصر بواسطة ما وإلا، فإنه لا يحسم الاحتمالات التي تثير مخاوف السائل حتى بعد إكمال عناصر الحصر..

فإنك إذا قلت له: لا أطعمك إلا في هذه الحالة.. فقد يفهم السامع من ذلك: أنه سيُحْرَم من الطعام، ويُمْنَع منه في سائر الحالات..

ولكن إذا قلت: سوف أطعمك على كل حال، لكن نيتي وهدفي هو كذا وكذا، فالهدف من الإطعام هو مورد الحصر.. وليس نفس الإطعام.

القيد التوضيحي:

وهنا سؤال هو: هل إن قولهم: ﴿**لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾ قيد توضيحي أو احترازي؟!، قد يقال: إنه توضيحي لأنه إذا كان الإطعام سينتج للمعطين اتصالاً بمصدر النعم والألطاف، وسيوجب لهم نيل أعظم المكافآت، وهي مكافآت باقية، نامية، زاكية، لأنها متصلة بالمنعم الباقي،

وبالمطلق، واللامتناهي، وإذا كان ما ينفقه الناس من خير يوف إليهم، فلا يبقى مورد للجزاء من قبل السائل الآخذ، لأن الجزاء قد حصل، وهو جزاء واف «**يوف إليكم**»، فالمطالبة بجزاء آخر، تكون مطالبة جزافية، بل وظالمة أيضاً.

وكأنك قلت: «إنما نطعمكم لا نريد الجزاء»، ثم قدمت الدليل القاطع على ذلك، وهذا الدليل هو أن معرفتك بالله راسخة وعميقة، وقد أصبحت أعمالك خالصة له.. ومن كان كذلك، فلا يعقل أن يريد جزاء أو شكوراً من غيره تعالى..

وهذا المستوى من إزالة الشوائب، ودفع الأوهام، يجعل العمل أكثر صفاء، ويجعل العطاء طيباً..

بل إن الأمر بالنسبة إلى الشكور أبين وأظهر، إلى حد أنه قد يقال: إن الذي ينبغي أن يقدم الشكر هو المعطي، لأن السائل قد هيأ له فرصة لنيل أعظم الكرامات، وأسنى العطايا الإلهية، وأفضلها.. فينبغي عليه أن يكافئه، وأن يشكره..

وقد ظهر بذلك: أنه ليس هناك موضوع للشكر ولا للجزاء، لتتعلق به الإرادة. إلا على سبيل الطموح والطلب لأمر لا مبرر للطموح إليه، ولا معنى لطلبه والسعي إليه، لانتفاء الاستحقاق للجزاء، وعدم وجود مورد للشكر..

ومن جهة أخرى، فإنه قد يدخل في وهم الناس: أن الناس في إطلاقهم للتعميمات لا يلتزمون جانب الدقة، ولا يراعون الحدود، بل يكتفون بالصدق العرفي، ولا يلتفتون إلى الأفراد القليلة التي تخرج عن طريقة الأعم الأغلب، بل يلحقونها بالعدم، ويعتبرون أنها غير موجودة.

فيأتي هذا القيد هنا ليؤكد على: أن عملهم قد كان لوجه الله في كل مراتبه وحالاته، وأن ذلك متحقق في جميع أفراده مئة بالمئة، ولم يشذ عنه ولو مفردة واحدة..

لماذا قال: «لاَ نُرِيدُ»؟:

ثم إنه تعالى قد نفى هنا إرادة الجزاء، وإرادة الشكر.. ولم ينف نفس الجزاء، والشكر. فلم يقل: إنما نطعمكم لوجه الله، لا للجزاء، ولا للشكر.. بل قال: ﴿لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾..

ولعل سبب ذلك أنه لو قال: نطعمكم لا للجزاء ولا للشكر.. قد يفهم منه: وجود استحقاق للجزاء ومبرر للشكر، لكنهم صرفوا النظر عنه.

ومن شأن هذا أن يحمّل السائل منّةً جديدة لهم عليه، وأن يزيد في إحراجه..

ولكنه حين قال: لا نريد، فإن ذلك قد يفهم منه: أنه بصدد الاستدلال لهم على انتفاء تلك الإرادة، إذ إن كون العمل لوجه الله، قد أسقط استحقاقهم للجزاء وللشكر من أساسه. فنفي الإرادة إنما هو بسبب انتفاء متعلقها، وهو الاستحقاق.

ولو قال: إننا نفعل ذلك، لكن ليس لأجل الجزاء، فإن ذلك معناه أن الجزاء ثابت لنا، ونحن نستحقه، لكننا لا نقصده حين الإعطاء، مع أن الهدف هو أن لا يلوّح للسائلين حتى بهذا الأمر.. حسبما أوضحناه.

«لاَ نُرِيدُ» مرة أخرى:

وثمة إشارة أخرى هنا، وهي أنهم يقولون: «لاَ نُرِيدُ» ولا يقولون: **«لا نطلب منكم جزاء»**.

ولعل سببه هو أنك إذا قلت: لا أطلب منك جزاءً ولا شكوراً.

فذلك يختزن احتمالين:

أحدهما: أنك تستحق الجزاء والشكر، ولكنك لا تطلبهما منه. ولعله لو أعطاك الجزاء من عند نفسه، فلا تكون منزعجاً، بل قد تكون مسروراً.

الثاني: أنك لا تريد ذلك، بسبب عدم الاستحقاق، فهو من قبيل القضية السالبة بانتفاء موضوعها. وحيث إن هذا النوع من القضايا مما لا ضرورة لإجراء الكلام على وفقه، فينحصر الأمر في الاحتمال الأول..

«لاَ نُرِيدُ» مرة ثالثة:

وهنا أيضاً سؤال آخر في الآية، وهو أنه لماذا قال تعالى: ﴿**لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾..

ولم يقل: لا تجازوني ولا تشكروني، ألا يكون ذلك أوقع وأشد في رفض الجزاء والشكر، وفي تطمين السائلين إلى سلامة النوايا؟!..

ويمكن أن يجاب: بأن هذا التعبير **«لا تجازوني، ولا تشكروني»** يستبطن تعليماً سيئاً، وخطأ جسيماً.. لأن المفروض بالإنسان هو أن يعيش المعاني الإنسانية في داخل ذاته، وأن يشعر مع الآخرين، ويشاركهم في قضاياهم..

وقولك له: أريد منك أن تكون غير شكور وغير شاعر بالامتنان تجاه من يحسن إليك، يماثل قولك له: أريد أن لا تكون إنساناً، يشعر بقيمة الإحسان.

فكأنك تقول له: انقض أحكام عقلك، وفطرتك، وأخلاقك، ولا تصغ لقوله تعالى:

﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾!!

فهل يعقل هذا؟!..

«إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ»:

والناس حين يسخون ويبذلون أموالهم للمسكين، أو اليتيم، أو الأسير، قد يفكرون، أو يفكر بعضهم: أن يكون هذا المسكين، أو ذلك اليتيم، وحتى الأسير عوناً وسنداً، وعضداً لهم في يوم مّا، ولو بأن يؤيدهم في موقف، أو يرد عنهم، ولو بكلمة.. أو يُحسِّن صورتهم أمام الآخرين.. وقد يصبح الأسير أقل تحمساً للعودة إلى مناجزتهم الحرب في مستقبل الأيام. لا لأجل القناعة الفكرية بما هم عليه، بل لأجل هذا الإحساس بالمديونية للباذلين..

ولكن هذه الآيات الشريفة، قد أظهرت أن هؤلاء الباذلين لا يريدون ممن يبذلون له، ما هم أحوج إليه منه، جزاءً، ولو بهذا المقدار، بل حتى ولو في حد الشكر.. وسيأتي توضيح ذلك إن شاء الله تعالى..

بل إن الأهم في هذا البيان القرآني، والهدي الإلهي، هو أنه تعالى يريد أن يبين لنا كيف يريد الإسلام أن يصنع قلب الإنسان، فهو يريده رؤوفاً، رحيماً، عطوفاً، ودوداً، فياضاً بالحب، زاخراً بالمشاعر الإنسانية، عامراً بالإيمان بالله، مؤثراً له على كل شيء في هذا الوجود.

إن الإسلام يريد أن يغرس ذلك في كيان الإنسان، وفي عمق وجوده، ليصير هو العنصر الفاعل والحي في تكوينه الداخلي. إذ إن إنسانية الإنسان لا تُفْرَضُ عليه قسراً، كما أنها لا تأتيه مجاناً.. وبلا طلب وسعي وجهد.. بل هي تحتاج في الحصول على كثير من ميزاتها وخصائصها إلى المبادرة والاختيار منه، وإلى جهد، وعمل، وكد، وتعب، وبذل.. وعطاء..

كما أن ما يكون كامناً في فطرة الإنسان، وما يفيضه الله عليه ابتداءً،

يحتاج أيضاً إلى حراسة وحفظ، وتهيئة الظروف الموضوعية لبقائه، قوياً وسالماً، وفاعلاً ومتنامياً.

فإذا قصر في ذلك كله، فقد لا يحصل على شيء جديد.. وقد يخسر أيضاً أو يشوّه ما أعطاه الله إياه ابتداء، أو باقتضاء الفطرة، وربما نجده يحاول أن يسقطها، أو أن يبعدها عن دائرة التأثير في أكثر من موقع، وفقاً لما روي عن رسول الله [صلى الله عليه وآله]: كل مولود يولد على الفطرة إلا أن أبويه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه.

أما الحيوان فلا دور له في الحصول على خصائصه الحيوانية، ولا في تنشئتها وترشيدها، ولا في حفظها، وحراستها، أو خسرانها، وتشويهها.

لا رياء ولا سمعة:

وعلى كل حال، فإنه حين لا يسعى الإنسان للجزاء ولا للشكر، فإن الرياء لن يجد طريقه إليه، وسيكون عمله لله، ولله فقط، ولا مجال بعد لأن يتخذ من عطائه وبذله ذريعة لإظهار شخصيته، واكتساب السمعة عن هذا الطريق. لأن هذا يدخل تحت عنوان الجزاء. كما أنه لا يسعى لأن يعترف المبذول له بالفضل، وأن يلهج بالحمد والثناء عليه، لأن ذلك يدخل في الشكر، الذي لا يريده ذلك الباذل..

وقد قلنا: إن قوله تعالى: **﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾** قيد توضيحي لقوله: **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾**.. لأن إرادة الجزاء والشكور تمنع من أن يكون الإطعام خالصاً لوجه الله تعالى.

«مِنكُمْ»:

وأما لماذا قال تعالى: **﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾**؟!، وقد كان يمكن أن

يقول: لا نريد جزاءً.

فجوابه: أنهم [عليهم السلام] يريدون الجزاء، ولكن لا من السّائلين، بل من الله سبحانه. وقد صرحوا بذلك حين قالوا: **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾**..

فإرادة الجزاء والشكر من الناس غير محبذة، بل هي نقص أحياناً، ولكن طلبها من الله سبحانه عين الكمال، لأنه إنما يطلب ـ في واقع الأمر ـ رضا الله سبحانه، ويسعى للفوز بكرامته، وألطافه، وحبه، ورعايته، ورفعة شأنه لديه.

«جَزَاءً» لماذا؟!

ونلاحظ هنا: أن كلمة **«جَزَاءً»** تختزن الإشارة إلى عدة أمور، هي:

١. تنوين التنكير:

إن كلمة **«جَزَاءً»** قد جاءت مع تنوين التنكير لتفيد: التعميم لكل أفراد أو أنواع الجزاء، على سبيل البدل، فجميع أفراد ومقادير وأنواع الجزاء غير مرادة، فلا نطلب منه قليلاً ولا كثيراً، ولا عظيماً، ولا حقيراً، ولا نوعاً دون نوع، ولا فرداً منه دون آخر..

٢. الجزاء هو مقتضى العدل والحق..

والجزاء أمر يحكم به العقل، وتقضي به الفطرة، كما ألمح إليه قوله تعالى: **﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾**، فطرح الآية لهذا السؤال، كأن فيه إرجاعاً إلى الوجدان وإلى الفطرة الإنسانية، مما يعني أن هذا السؤال لو طرح على ملحد لأجاب بنفس ما يجيب به المؤمن الموحد..

٣. تقديم الجزاء، لماذا؟!

وأما لماذا قدم ذكر الجزاء على الشكر، فلعله لأجل أن الجزاء هو

الإتيان بما يعادل الفعل الذي في مقابله.. فإذا أعطاك منة، فالجزاء لا بد أن يكون منة.

وهذا هو أول ما يطلبه الباذل، ويطالب به، ويسعى إليه، ولذا كان المناسب أن يبدأ به قبل أن يذكر الشكر.

أيهما أصعب؟!

وقد يقال: لعل تقديم الجزاء، لأجل أن إعطاء البديل والجزاء، قد يكون أصعب من تقديم الشكر، الذي هو خفيف المؤونة..

ولكننا نقول:

إن ذلك غير دقيق.. فإن الشكر ليس مجرد تحريك اللسان بكلمات الثناء والعرفان بالجميل، بل هو أمر قد يكون أصعب على بعض النفوس، من إعطاء المقابل مهما كان عظيماً.. لأن الشكر يمثل أحياناً اعترافاً بالأخذ، ويدعو إلى إظهار الشعور بالامتنان، لمن قد لا يحب المبذول له أن يقوم به تجاه بعض الباذلين..

وربما يبلغ الأمر حداً يجعل إعطاء الجزاء والخروج من حالة الشعور بالمديونية، أيسر على النفس من إبقاء هذا الشعور.

الجزاء مرتبط بالشكر وعكسه:

والجزاء له صفة مادية، وهو أمر يتطلبه العدل والحق. أما الشكر فطابعه معنوي أخلاقي، تفرضه إنسانية الإنسان، ويدعوه إليه خلقه، ومشاعره، وحالته النفسية..

فإذا أعطى الجزاء والمقابل، فذلك لا يعفيه من شكره، من الناحية الأخلاقية، ولا يزيل حالة الشعور بالامتنان..

ومعنى ذلك: أن نفي الجزاء بقوله: ﴿**لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً**﴾.. لا يعني أنه لا يطلب الشكر، ولذا احتاج إلى التصريح بأنهم كما لا يريدون الجزاء، كذلك هم لا يريدون الشكر أيضاً.

ولكن لو طلب الباذل الشكر، فذلك معناه أنه لا يريد الجزاء والمقابل..

ولذلك نجد العقلاء لا يستسيغون من الباذل الذي يطلب الشكر، أن يطلب الجزاء بعد ذلك.. بل هم يقبحون طلبه هذا.. ولكنهم لا يقبحون طلب الشكر بعد الحصول على الجزاء.

الشكور:

قلنا: إن الجزاء هو مقتضى الحق والعدل.. والعدل مرحلة لا بد من إنجازها، ليتوصل من خلالها إلى ما هو أرقى، وأسمى منها..

غير أن العدل يمثل الخط الذي لا بد من الالتزام به، ليتمكن الإنسان من الخروج من دائرة الخطر والهلاك.

لكن درجات الصعود على السلم للوصول إلى الغايات السامية، تحتاج إلى جهد، وعمل آخر يتمكن الإنسان من خلاله من الصعود عليها، درجة إثر درجة، ولهذا صح تشريع الجهاد، وصح طلب الإيثار على النفس، الذي مدحه الله سبحانه بقوله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾..

وذلك لأن إعطاء الإنسان ماله لغيره، يحتاج إلى دافع قوي، حتى لو كان المعطي غير محتاج إلى ذلك المال..

أما كان هو محتاجاً له.. فإن إعطاءه للغير يحتاج إلى دافع أقوى وأشد، ليقدم حاجة غيره، على حاجة نفسه. وهذا هو الإيثار الذي

أشارت إليه الآية المباركة..

فاذا كانت حاجته إليه ماسة جداً، فإن بذله للغير يصبح في غاية الصعوبة.

فإذا طلب منه أن يبذله لغيره، حتى في هذه الحال، فذلك يعطينا: أن الهدف ليس هو العدل، بل ما هو أسمى من العدل. ألا وهو بناء إنسانية الإنسان، وصياغة مشاعره لتكون مشاعر نبيلة وطاهرة. ثم السمو بفكره وبطموحاته، وفتح الآفاق الرحبة أمامه، بالإضافة إلى تربية وجدانه، ورفع مستوى إحساسه النبيل، وشحنه بالعاطفة الفياضة، بالخير والعطاء.

لماذا «شُكُوراً» ؟!:

ولعلك تسأل لماذا قال: **«ولاَ شُكُوراً»**. ولم يقل: **«ولا شكراً»**..

وقد يجاب عن ذلك، بأن الشكر مصدر يدل على أصل طبيعة الشكر، التي قد تتجسد بأي فرد كان. أما الشكور فهو مصدر أيضاً، كالدخول والخروج، فلا فرق بينه وبين الشكر في المعنى.

فنفيه بأي منهما إنما يكون نفياً للطبيعة. ونفي الطبيعة إنما يتحقق بانتفاء جميع أصنافها وأفرادها.

ولعل اختيار هذه الصيغة دون تلك، من أجل تحقيق التناسب اللفظي بين الآيات..

ونقول:

إن هذا، إنما يفرض في صورة ما، إذا قبلنا ما قاله المفسرون، من أن كلمة شكور مصدر. وقد جاء على غير قياس، مثل: قعود.

وأما إذا قلنا: إنها جمع شكر، مثل: برد، وبرود، فهي جمع للمصدر، الذي هو الشكر. فالمعنى: أننا لا نريد منكم أي نوع من أنواع الشكر،

فيصير نفي إرادة الشكور من الباذلين، أشد من نفي إرادة الشكر، لأن النفي يكون متوجهاً لجميع أنواع الشكر..

وهذا أدل على المراد، وأوفق بالمقصود..

وهو المناسب لمقام الامتنان عليهم من موقع الفيض والعطاء، والربوبية لهم، والألوهية المستغنية بذاتها وبصفاتها..

وبذلك يعلم أنه لا مجال لتخيل: أن نفي الجمع لا يستلزم نفي الفرد، وأن قوله: «**لا نريد شكوراً**».. يجامع قوله: «**نريد شكراً واحداً، أو شكرين**»..

وبتوضيح آخر نقول: إنه يمكن التعدد في أصناف الشكر كمّاً وكيفاً، فهناك شكر قلبي، وعرفان بالجميل، وشعور بالإمتنان، وهناك شكر لساني، وهناك أيضاً شكر عملي..

أما الجزاء فهو نوع واحد، يؤخذ فيه المكافأة بالمثل، وبنفس المقدار..

واختلاف أشكال وكيفيات المقابلة بالمثل، إنما هو بتراض من الطرفين. أما الزائد من الجزاء، فهو تفضل وتكرم. والناقص بخس للحق.

والجزاء تارة يلاحظ فيه الأخذ بالمقابل. ففي مثله يلاحظ مقدار ما يعطى، ومقدار ما يؤخذ. وأخرى يلاحظ فيه الجزاء المقرر، ففي مثله قد يقرر جاعل الجزاء أن يكون الجزاء أكثر من المماثل والمساوي، فيجعل الحسنة بعشرة، أو بسبع مئة، بل يضاعف ذلك لمن يشاء..

ففي مثل هذا المورد، يكون التفضل في أصل الجعل، وبعد الجعل يصبح حقاً وجزاء لمن جعل له، يطالب به، ويَسأل ويُسأل عنه. قال تعالى: ﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾.

ولكنه حق نشأ عن التفضل، لا عن العدل. أما بعد الجعل فيصير موضوعاً للعدل أيضاً.

وقد يكون السبب في جعل الزائد هو الإغراء بعمل الخير، وصرف الهمم إليه، أو غير ذلك..

والحاصل: أنه إذا كان هناك عطاء تفضلي، فمرة تُطْلَب المجازاة عليه، بأن يُعطي لفاعله ما يماثله، ومرة يطلب الشكر عليه.

والشكر قد يختلف ويتفاوت، كماً، وكيفاً في مراتبه وحالاته..

فإذا أريد نفيه، فلا بد من نفيه بجميع مراتبه وحالاته تلك، سواء في ذلك الأفراد الظاهرة، أم الأفراد الخفية التي قد لا تخطر على بال، فقد تنفي الشكر اللساني، لكن لا تنفي الشكر القلبي، الذي يراه الناس غير قابل للنفي، إما لخفائه، وعدم الالتفات إليه، أو لأنهم يرونه غير قابل للنفي من حيث إنه من مقتضيات خلق وطبع الإنسان، أو لأنه لا يجوز رفضه وردّه.

فإذا قال: لا أريد أن تشكرني على الإحسان، فإنما يرون أنه يقصد الشكر اللساني عادة، أو الشكر بواسطة الفعل، ولا يقصد نفي الشعور بالامتنان والتفضل. لأنه غير قابل للإزالة..

أو لأنه ليس من حقه رفضه وردُّه، إذ لا بد أن يكون الإنسان شكوراً، لأن ذلك من مكونات شخصيته الإنسانية، التي لا بد من تأكيد وجودها في شخصيته المتوازنة في مزاياها، فلا يصح أن تطلب من الإنسان أن لا يكون شكوراً، لأن ذلك يستبطن الطلب منه أن لا تكون لديه مشاعر إنسانية نبيلة، وهو نهي عن التحلي بالفضائل الأخلاقية.

والنهي عن مثل هذا وإزالته من نفس الطرف الآخر معناه إحداث

خلل إنساني وأخلاقي لديه..

فاتضح: أنه إنما يصح أن يقال: لا نريد بعض أصناف أو أفراد الشكور، أي لا نريد الأصناف والأفراد القابلة للنفي، والتي لا يستلزم نفيها إساءة للأخلاق وللإنسانية.

ولا يصح نفي إرادة طبيعة الشكر فيه، من حيث هي إرادة للطبيعة، لأن نفيها يستلزم نفي بعض الأفراد والأصناف التي يكون التعرض لها بالنفي مباشرة أو بالواسطة يمثل اساءة للأخلاق وللإنسانية، لأنها تختزن في داخلها قيمة لا بد من حفظها.

❁ ❁ ❁

الفصل العاشر:

{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً}

قال تعالى:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾.

«إنا نخاف»:

وتأتي كلمة **«إنَّا»** لتوكيد وجود الخوف لدى هؤلاء الصفوة من يـوم بعينه. وقد زادوا في تأكيد ذلك حين ذكروا مبررات هذا الخـوف، وهـو أنه يوم عبوس قمطرير، كما سيأتي..

وقد يقال: إنه لا مبرر للخوف من ذلك اليوم.. فقد قال تعـالى: **﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[1]..

ويمكن أن يجاب:

أولاً: بأن خوفهم هذا في الدنيا هو الذي جعلهم يأمنون في الآخرة.

ثانياً: إن المراد بالخوف، الاحتياط والحذر، وإعداد العـدة لمواجهـة أخطار ذلك اليوم بما يناسبها.

ومن مفردات وسائل الوقاية: إطعام اليتيم، والأسـير، والمسـكين.. إذ فرق بين خوف إنسان من الغرق حين يُلقى في البحـر، وهـو لا يعـرف السباحة، ولا يملك ما يعينه على التخلص.. وبين خـوف إنسـان يعـرف السباحة، وقد أعد العدة لمواجهة أي احتمال. فيقال: إنه قد أعـد العـدة،

---

(١) سورة يونس الآية٦٢.

لأنه يخاف من البحر..

«نخاف يوماً.. و.. نخاف من ربّنا»:

ويلاحظ هنا: أنه قد قال في سياق الآيات السابقة: **﴿يَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾**..

لكنه قال في هذه الآية: **﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً﴾**..

فكان الخوف هناك من نفس اليوم.. والخوف هنا من الرب، فما الفرق؟!

ولماذا قال: **﴿مِنْ رَبِّنَا﴾**. ولم يقل: من «**إلهنا**». أو من «**الله**»؟.

ولماذا قال: **﴿نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾**. ولم يقل: «**نخاف ربنا**»؟.

ويمكن أن يقال في الجواب عن هذه الأسئلة:

ألف: بالنسبة إلى قوله: **﴿يَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾**..

نقول: إن الله سبحانه حين كان يتحدث عن الأبرار، قال: «**يَخَافُونَ**»، أما هنا فإنهم هم الذين يخبرون عن أنفسهم، ويقولون: **﴿نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾**. فهم يشيرون إلى ربوبيته تعالى لهم، تعبيراً عن وعيهم للحقائق، وعميق معرفتهم بها. وعن المحبة له تعالى، وصدق الإيمان به، وطلب رعايته وألطافه، ليتكاملوا بها..

كما أن جهرهم بذلك سوف يعرف الناس بدرجة اليقين التي وصلوا إليها، حتى كأنهم يرون ذلك اليوم وكأن العبوس فيه ظاهر لهم، يرونه كما يرى الإنسان وجه جليسه.. كما قال الإمام علي [عليه السلام]: «لو

كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[1].

لقد كان لا بد لهم أن يلهجوا بذكر الله، وأن يدلّوا عليه، وعلى رعايته، وحبه، وحكمته، وتدبيره، وعنايته، وإشرافه، ومراقبته، وتوجيهه، وتسديده لهم على صراط تكاملهم في إنسانيتهم وأخلاقهم.

إن الله ليس هو منشأ خوفهم من حيث هو ربّ، بل منشأ الخوف هو نفس اليوم المرتبط بالله سبحانه، من جهة أنه سبحانه هو الجاعل لذلك اليوم، والمعد له. والمقرر والحاكم بالعذاب والثواب فيه..

وإنما جعل الله سبحانه ذلك اليوم، بهذه المواصفات من حيث هو ربّ، حافظ، ومدبر، وعطوف، ورؤف، ورحيم، وحكيم، وعادل، وفق ما تقتضيه حكمة الخلق، والتكليف، والأمر، والنهي.. فحكمة الله ورحمته، وعدله، وعلمه، وتدبيره، قد اقتضت وجود هذا اليوم، وذلك رحمة بالبشر، وحفظاً للحياة، وضبطاً لحركتها، وإذكاء للطموح فيها..

ب: ونجيب على السؤال الثاني، فنقول:

قد اتضح أن هذا اليوم هو من قبل ربنا، لكن لا من حيث إنه يريد الانتقام منا، وإنما هو من موقع ربوبيته لنا، وحبه، وتدبيره، واهتمامه بحفظنا، ولأنه يريد لنا أن ننمو ونتكامل، وأن ننال الخيرات كلها، ونصل إلى منازل الكرامة، وأن يبعد عنا الشرور والأسواء، ويمنع من فساد الحياة. وذلك كله يوضح لنا السبب في أنه اختار كلمة **«رَبَّنَا»** دون كلمة: **«إلهنا»**.

---

(١) منتهى المطلب للعلامة الحلي (الطبعة الجديدة، مجمع البحوث الإسلامية ـ ايران ـ مشهد) ج٣ ص٤٤ ومناقب ابن شهر آشوب ج١ ص٣١٧ ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص١٦٣.

فالربّ إذن قد جعل نظام الحياة بحيث ينشأ عن الأعمال في الدنيا عقوبة ومثوبة، يجدهما الإنسان في مستقبل حياته، ولا يمكنه أن يتجاوز تلك العقوبة، أو أن يتخلص منها إلا بتصحيح مساره بالتوبة، وبالعمل الصالح. لأن المحاسب والمراقب هو علام الغيوب، وأقرب إليه من حبل الوريد. وهذا من أهم أسباب ضبط حركة الإنسان، وسوقه نحو تصحيح سلوكه..

ج: ونجيب على السؤال الثالث: أنه تعالى قال: ﴿**نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً**﴾.. ولم يقتصر على قوله: ﴿**نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا**﴾، ليشير إلى أن هذا النظام الذي جعله الله لنا لنتكامل به ومعه، ولينقلنا من حسن إلى أحسن، وليحمينا من الانحراف ـ إن هذا النظام هو الذي يختزن في داخله هذا اليوم العبوس، لأن ذلك هو الذي يجعل النظام فاعلاً ومؤثراً، ومربياً فعلاً.

والخلاصة:

إنه لم يقل: «من إلهنا»، لأنه يريد أن يشير إلى الربوبية، فهم لا يخافون من الله من حيث كونه إلهاً، فرداً، صمداً.. إلخ.. وإنما يخافون الألوهية من جهة ما تقتضيه من أفعال ربوبية، فيها تدبير وحكمة، وجعل نظام، فيه مثوبة وعقوبة.

فاليوم الآتي من جهة الربوبية ـ بحسب ما تقتضيه من تدبير لأمرهم وإصلاح لشأنهم ـ هو الذي يخافونه..

«إِنَّا نَخَافُ..» هل هي تعليل؟!

قد يقال: إن قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمَاً**﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ**﴾، كأنه قال: لماذا جعلتم غاية الإطعام هي وجه الله؟! فجاء الجواب: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ**﴾، ﴿**إِنَّا نَخَافُ**﴾.. إلخ..

وقد يقال: هي تعليل لقوله: ﴿**لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾.. أي أن السبب في أننا لا نريد جزاء، هو أنا نخاف ذلك اليوم العبوس.

وقد يقال: إنها جملة مستقلة، ليس فيها تعليل، لا لهذه الفقرة، ولا لتلك. بل هي تقول: **هناك أمران:**

أحدهما: الداعي، والمحرك..

والآخر: الهدف.

ونوضح ذلك بأن نقول: إن لدينا شعوراً إنسانياً.. هو الإحساس بحاجة اليتيم.. وقد دفعنا هذا الشعور إلى الإطعام، وقد جعلنا له هدفاً هو الحصول على رضا الله سبحانه.. لأن الصفات الإنسانية، كالكرم والشجاعة وغيرها.. إنما تكون فضيلة بملاحظة هذين الأمرين.. وهما الداعي والهدف.. فإذا فقدتهما، فإن وجد ضدهما، أصبحت رذيلة.. وإن لم يوجد ذلك الضد، فإنها لا تكون فضيلة ولا رذيلة..

فإذا كان الداعي والمحرك لإعطاء المال مثلاً، هو الشعور بحاجة الآخرين، والتألم لهم.. ثم يجعل هدفه وهمه وجهده، هو رضا الله، والوصول إليه سبحانه، وتكون وسيلته إليه هو هذا الإطعام مثلاً ـ فإن ذلك يكون فضيلة بلا ريب، حيث قد اجتمع فيه نبل الداعي مع جلال الغاية..

وأما إن كان المحرك للإعطاء هو الحقد والاستدراج، وكان الهدف مثلاً هو إذلال الآخرين أو استعبادهم، أو إيقاعهم في فخ منصوب لهم. فالفعل يكون رذيلة، وأي رذيلة..

وثمة صورة أخرى، هي أن يعطي الإنسان طعامه، لأنه قد صرف النظر عنه لعدم حاجته إليه.. أو يكون هدفه هو التخلص من ثقله، أو من نفقة حمله. أو يبدله لمجرد الحصول على ثمنه، فلا يكون الإطعام في

مثل هذا الحال، فضيلة ولا رذيلة.

وأما إن كان المحرك للإعطاء، هو الحس الإنساني، كالشعور بآلام الآخرين، من دون أن يربط ذلك بالله سبحانه، فإنه يستحق المدح الدنيوي، بمعنى مدح كماله في صفاته البشرية، ويكون عمله استجابة لهذا الكمال، ولكنه لا يستحق ثواباً في الآخرة، لأنه قد بقي بلا هدف، وبدون امتداد، فلا يوجد في ذلك العمل أية خصوصية من شأنها أن تصله بالباقي، والدائم تبارك وتعالى..

وفي جميع الأحوال نقول:

إن الإسلام قد اهتم بتوجيه الإنسان نحو الأسمى، والأنمى، والأبقى، والأزكى، في مسيرة التكافل الإنساني. ولكنه جعل لصلة الرحم وجهة عبادية وإلهية، ومنطلقاً إنسانياً، واعتمدها كوسيلة بناء، بدلاً من أن تكون منطلقة من العصبية العمياء، وجعل للعطاء والإطعام، وجهة عبادية، ووجهة إصلاحية، ودوافع إنسانية، تجعله أكثر ملاءمة، وتأثيراً إيجابياً في المسيرة السليمة لحياة الإنسان، بدلاً من أن يكون البذل بهدف التسلط، والإذلال، والإفساد.

وهذا الخوف من الله، إشفاقاً من ذلك اليوم، وحذراً منه، هو بمثابة صمام أمان، يجعل الإنسان مهتماً بضبط حركته، ومراقبتها، للاطمئنان إلى أنها في الصراط المستقيم، فهو يراقب الله، من موقع إدراكه لربوبيته التي هي تعني الإدراك لحكمته، ومحبته، ورعايته، وعلمه، ورحمته، ولطفه.

والأبرار إنما يريدون أن يتكاملوا في ظل هذه الرعاية الإلهية، والتربية الربانية.

كما أن قول الأبرار: «لِوَجْهِ اللهِ» قد جاء ليضبط حركة الإطعام،

ويجعلها تتمحض بالدواعي والحوافز الإنسانية، التي لا تتقاذفها الغايات الدنيوية المنحطة، بل يضبطها هدف وغاية واحدة، لا بد من توجيه السلوك والعمل إليها، وهي وجه الله تعالى..

وكل هذا الذي ذكرناه يوضح كيف أن هذه الآية لا تريد تعليل الإطعام لوجه الله بالخوف، بل الإطعام لوجه الله يسير جنباً إلى جنب مع الخوف المنتج للحذر والانضباط.. لأن علة الإطعام لوجه الله هي أن الله سبحانه أهل لأن يعبد ويتقرب إليه بالصالحات.

وبذلك يصبح لدينا قاعدتان شاملتان، أصيلتان في معناهما.. وهذا هو ما يناسب مقام الأبرار، ويسانخ واقعهم وتفكيرهم.

«يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً»:

ويأتي التساؤل الحائر: عن السبب في ذكر تفاصيل صفات هذا اليوم. وقد كان بالإمكان أن يقول: **«إنا نخاف من عقاب ربنا»**.

وقد يمكن الإجابة عن ذلك، بأن ذكر هذه التفاصيل مطلوب.. لأن أصل العقوبة للمتمرد أمر تحكم به العقول، ويقرُّه الوجدان.

وليس الأمر هنا من موارد العقوبة، فلا يصح أن يقال: إنا نخاف من عقاب ربنا، لأن عدم إطعام السائلين ليس فيه تمرد على المولى، ولا هتك لحرمته، بل الآية تتعرض لأمر سام وجليل، يفوق في أهميته موضوع الطاعة والانقياد للأوامر والزواجر. فإن هذا الإنفاق إنما يطلب ليكون وسيلة لنيل المقامات والمراتب السامية عند الله.. ودوافعه مشاعر إنسانية، وغاياته الاتصال بالله سبحانه..

«عَبُوساً»:

وكلمة «عَبُوساً» هي صيغة مبالغة، أي شديد العبوس، أو كثيره..

فالشدة تشير إلى شدة التكرُّه له، وعمق النفرة، وعظيم الخوف منـه، كما أنها تشير إلى وجود أمر عظيم يدفع إلى التشدد في العبوس فيه.

أو تكون بمعنى كثير العبوس، وفي ذلك إشارة إلى تعدد المناشـىء الموجبة لظهور هذا الأثر المكروه في وجه ذلك اليوم..

«يَوْمًا عَبُوسًا»:

واليوم مـن حيـث هـو زمـان ولحظـات لا يوصـف بـالعبوس ولا بالبشاشة.. وإنما نسب إليه العبوس، ووصف بهذا الوصـف علـى سبيل الكناية والمجاز، فهو كوصف السماء بالكآبة والتجهم، في قول الشاعر:

قـال السماء كئيبة وتجهّمـا قلت ابتسم، يكفي التجهم في السما..

فإذا كان الإنسان يرى في هذا اليوم أموراً يكرههـا، ومصـائب وآلام ينفر منها، فإنه ينسب ذلك إلى اليوم الذي احتواها، وكان ظرفاً لها.

فكأنه ينظر إلى صفحة هذا الزمان، فيشبهها بالوجه، فيرى فيها تلـك الشدائد، فيشبهها بالتجاعيد المستكرهة. التي يعبر عنها بـالعبوس، الـذي يشير إلى وجود خلفيات ونوايا مستكرهة لدى العابس، فيخاف منه.

وبذلك يظهر عدم صحة قولهم:

إن المراد: هو أنهم يخافون يوماً يكون الإنسـان فيـه عابسـاً بسـبب الشدائد..

رؤية واضحة:

وهذه الآية تشير إلى شدة وضوح أمر يوم القيامة للأبرار، حتى كأنه حاضر لهم، يرون وجهه رأي العين، ويميزون بـين قسـماته، ويـدركون حالاته. تماماً كما قال أمير المؤمنين [عليه السلام]: لو كشف لـي الغطـاء

ما ازددت يقيناً.

مع أن يوم القيامة هو من الأمور الغيبية، التي لا يسهل اليقين بها، فضلاً عن أن يصبح كأنه يراها رأي العين، إذ إن ما لا يكون من الأمور الحسية، ولا الفطرية، ولا من الأحكام العقلية، بل هو من الأمور السمعية، يكون اليقين به صعباً، فضلاً عن أن يصبح كأنه مشاهد بالعيان، فإذا بلغ اليقين إلى هذا الحد.. فذلك أقصى درجات الإيمان والمعرفة، وهو يعبر عن الأدوار الصعبة، التي قطعها أولئك الأبرار، حتى بلغوا هذه المراتب، فإن للمعرفة دورها في صفاء الإيمان، وفي رهافة الشعور، وفي دقة الإدراك، وصحة اليقين..

الحديث عن الشدائد لماذا؟!:

ويلاحظ: أن الحديث هنا قد جاء عن الخوف من ذلك اليوم العبوس القمطرير، لا عن المثوبات العظيمة للمطعمين، فلم يقل: نطعمكم رغبة في الجنة، أو في الثواب الجزيل، والأجر الجميل مثلاً.

وربما يكون السبب في ذلك:

أنهم لا يريدون جعل عملهم تجاه اليتيم، والأسير، والمسكين، ذريعة للمثوبة، بحيث تكون المثوبة جزاء له، لأن إيكال المثوبة إلى فضل الله سبحانه هو الأمثل والأولى..

وذلك لأن المهم عندهم هو الحصول على رضا الله سبحانه.. لا الحصول على المكافآت والنعم لأنفسهم. فإن ذلك قد يشير إلى شيء من الاهتمام منهم بالذات، وحب اكتساب المنافع لأنفسهم كأشخاص. مع أن رضا الله أعظم النعم.. فقد قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ

﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وأول خطوة على طريق الوصول والحصول على هـذا الرضـا هـو الابتعاد عن مواقع سخطه سبحانه.

«قَمْطَرِيراً»:

القمطرير هو الأمر الشديد.. فكلمـة عبـوس أشـارت إلـى الشـكل، وكلمة قمطرير أشارت إلى المضمون..

وقد فسر بعضهم **«قَمْطَرِيراً»** بشديد العبوس..

ولكن ذلك غير دقيق، فإن كلمة **«عبوس»** صيغة مبالغة تفيد كثرة أو شدة العبوس، فما معنى تكرار نفس هذا المعنى بكلمة **«قَمْطَرِيراً»**؟!

فالأولى حملها على معنى تأسيسي، تكون قادرة علـى تأديتـه، إذ لا معنى للتكرار والإعادة من دون إفادة.

وفسر القمطرير بالملتف أيضاً..

ولعله من جهة أن الالتفاف يستبطن شـدة وتقوِّيـاً للأشـياء بعضـها بالبعض الآخر..

وهذا المعنى ينسجم مع مـا قلنـاه، مـن أن المـراد بهـا الشـدة فـي مضمون وحقيقة ذلك اليوم، سواء أكان منشأ الشـدة هـو تعقيـد الأمـور وتشابكها، أم كان منشؤها شيئاً آخر.

الإيمان بالغيب:

وواضح أن الإيمان بالغيب شيء، والإيمـان بـالمجهول، والغـامض،

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٢.

والمبهم، والغائم، شيء آخر..

فإن الغيب واقع يقيني، يفرض نفسه على الواقع الحياتي.. والإيمان بالحقائق الغيبية واجب ومطلوب في الإسلام. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

فنلاحظ: أن ثمة ارتكازاً في البيان القرآني إلى الغيب لينطلق منه إلى الواقع الحياتي، مبتدأ من ممارسة الإنسان للعبادة الصلاتية التي تصل العبد بالله، وبصفاته، وعلمه، وحكمته، وتدبيره، وبملائكته ورسله من جهة، ثم بالآخرة وبكل تداعياتها، وكل ما يرتبط بها من جهة أخرى..

ثم انطلق ليبني الحياة في علاقاتها، وفي مرافقها وحاجاتها، على أساس الاستفادة الصحيحة مما مكنه الله منه، وهيأه له.. حين قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

فليس الغيب مجرد حالة خوف من مجهول مبهم، وغامض، ومخيف.. بل هو غيب ظاهر ومكشوف لنا إلى حد أن الإمام علياً [عليه السلام] يقول: «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**».

وعن أولياء الله المتقين يقول الإمام علي [عليه السلام]: «**وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون..**»[2].

إنه غيب لا خوف معه، بل يشعر الإنسان معه بالأمن والسلام، والسكينة، والراحة، والسعادة..

غيب ليس فيه قهر وخضوع عشوائي ظالم، بل هو استسلام على

---

(١) سورة البقرة الآية٣.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص١٦١ خطبة رقم ١٩٣ ط دار المعرفة ، والبحار ج٦٤ ص٣١٥.

أساس الوضوح والرؤية، والإحساس.. في العقل، وفي الفطرة، والوجدان..

إنه غيب مجسد في الكعبة المشرفة، وبالحجر الأسود، الذي أودعه الله ميثاق الخلائق. وقد جسده الله جنات وأنهاراً، وفواكه، وأشجاراً.. وكأساً دهاقاً، وحوضاً، وصراطاً، وميزاناً.. وما إلى ذلك.

وجسده أيضاً زقوماً وضريعاً، وزمهريراً وناراً، ويوماً عبوساً قمطريراً. أخبرك الله به، ووصفه لك نبيه الناطق عنه.

وهو مرحلة قد تجاوزت ما تحكم به الفطرة، وتهدي إليه العقول، ويقرره الوجدان.

إنه غيب لا بد لك من احتضانه في قلبك، وفي عمق حناياك، ثم الحنو عليه. والتفاعل معه، والاستفادة منه.. وليس هو من المجهول، لأن المجهول لا يمكن احتضانه، ولا الفناء فيه، ولا الانسجام ولا التفاعل معه.. أو عقد القلب عليه.

إن علينا أن لا نخطئ في فهم معنى الإيمان، فليس الإيمان هو الشعور بالخوف من مجهول، ثم الاستسلام لهذا الخوف.. بل الإيمان سلام، وأمن، وسكينة ورضا..

وبعد ما تقدم نقول:

إنه لا حاجة إلى التذكير بأن الخضوع والاستسلام للدليل، ثم تبنيه والالتزام به، وعقد القلب عليه، يسمى إيماناً.. لما في ذلك من سكون قهري، واستسلام لما تقضي به الفطرة، وما يحكم به العقل.. ثم يبدأ بالتنامي والرقي إلى أن يبلغ مراحل، هي الأصفى والأنقى، والأجلى والأسمى، وذلك حين يصبح سكينة وطمأنينة للنفس والروح، ويترك

آثاره في المشاعر والأحاسيس. وتتولد من خلال ذلك في النفس حالات الخوف والرجاء، ويوجد حالة رقابة ذاتية، وتنشأ عنه المواقف والممارسات، والإقدام والإحجام، على أساس مبدأ التكامل، وكل ذلك يتم في ظل الرعاية الربوبية بما تمثله من تدبير يرتكز إلى العلم، والحكمة، والقدرة، و.. و..

وهذا هو الإيمان الحقيقي الذي عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

وهو الإيمان الذي أمر الله به المؤمنين حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(٢) سورة النساء الآية ١٣٦.

الفصل الحادي عشر:

{فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً}

قال تعالى:

﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾.

«فَوَقَاهُمُ اللهُ»:

هناك عدة نقاط لا بد من الإشارة إليها، وهي التالية:

ألف ـ إن الوقاية هي جعل ما يمنع من وصول ما يكره وصوله إلى شيء مّا..

وقد اختير التعبير بالوقاية هنا، ربما ليشير تعالى به إلى أن شر ذلك اليوم سوف لا يتعرض له أحد بما يوجب بطلانه وإزالته، بل هو يبقى قائماً مستمراً، وفاعلاً ومؤثراً.. وإنما يكون التعامل معه بطريقة إيجاد المانع من تأثيره.. وليس بالاستهداف المباشر له، للقضاء عليه، أو إسقاطه عن التأثير..

وهذا معناه: أن وجود ذلك الشر مستند إلى مقتضيات، وأن موجبات وجوده قائمة، فلا يصح التعرض له مع بقاء تلك الموجبات..

ب ـ إن التصرف الإلهي ليس في ذات أولئك الأبرار، حيث لم يبعدهم تعالى عن الشر بصورة قاهرة، وإنما جعل لهم ما يقيهم ويحفظهم منه.. ومعنى هذا أن تواجدهم في مواقعهم على حالة الحفظ والوقاية هو الآخر مطلوب ومحبوب..

ولعل من أسباب مطلوبيته إظهار فضلهم وكرامتهم، وسرور المؤمنين

بهم وطمأنينتهم لوجودهم، وعذاب الحسرة لغيرهم، وهم يرون ذلك.

ج ـ إن هذه الوقاية هي فعل الله سبحانه بهم، من موقع ألوهيته، أي أنه يقي من النار، أو يعاقب بها بما هو مالك، وقادر، وعالم، وحكيم، وعادل، الخ..

أما جهة الربوبية، فإنها تمثل التدبير، والتفضل، والرحمة، والكرم، والهداية، والمحبة والحكمة. وهي قد أسهمت في تربيتهم، ورعايتهم في دور تكاملهم، وترشيد قدراتهم، وإعدادهم بصورة أهلتهم للأعمال الصالحة التي استحقوا بسببها ومن خلالها هذا التكريم والتشريف الإلهي..

د ـ لقد جاء تعالى بصيغة الماضي، فقال: ﴿وَقَاهُمُ﴾ ولم يقل: سيقيهم الله، ربما للإشارة إلى أن هذا الأمر هو من الأمور المقضية التي لا شك في حصولها، إلى حد أنه يمكن الإخبار عن حصولها وتحققها بالفعل.

يضاف إلى ذلك: أن الزمان لا معنى له بالنسبة لما يختص بالذات الإلهية، فإن كل شيء حاضر لديه تعالى خارج دائرة الزمان.. وإن لم نستطع نحن أن نتعقل ذلك، فإن عجز عقولنا عن إدراك الذات الإلهية، وصفاتها، وغير ذلك مما يرتبط بها، إنما هو بسبب قصور عقولنا، لا لأجل أن تلك الأمور ليس لها عينية وثبوت في الواقع..

هـ ـ قد جاء التعبير بالفاء، وبصيغة الإخبار عن أمر حاصل ﴿فَوَقَاهُمُ﴾.. ربما لكي لا يكون التعبير بصيغة يفهم منها السامع: أنها وعد بأمر مستقبلي، لأن البشر قد يتخوفون من تبدل مقتضيات الوفاء بالوعود، أو من حصول موانع من ذلك..

فجاءت الفاء لتربط الحدث الذي هو إخبار عن حصول، بالحالة التي يعيشها الأبرار، وبالعمل الذي أنجزوه بصورة مباشرة، حتى لا يبقى الإنسان في حالة انتظار وتوقع، فإن سياق إنشاء الكلام ـ بسبب الفرق بين ثم والفاء، أو بين الفاء وبين أي تعبير آخر ـ يشير إلى الفصل والتراخي..

و ـ ويرد هنا سؤال هو: أن الآية قد ذكرت: أن الله هو الذي يقي الأبرار من شر ذلك اليوم.. مع أن الآية السابقة قالت: إن اليوم الذي يخافون منه، إنما هو من قبل الله تعالى.. فكيف يكون اليوم من جهته، ثم يكون هو الواقي منه؟! أليس الأولى هو: أن يلغي ذلك اليوم من أساسه، بدلاً من أن يوجده ثم يقي منه؟..

والجواب: أن وجود هذا اليوم ليس لأجل أن يخاف منه الأبرار، فإن غير الأبرار أيضاً لهم دور في وجود ذلك اليوم، وسوف ينالهم منه ما يناسب أعمالهم، ولن يقيهم الله سبحانه شره.. فلا ضير، ولا محذور، في أن يكون ذلك اليوم من قبل الله.. وهو الذي يقي منه الأبرار.

ز ـ إن أعمال الأبرار هي التي جعلتهم أهلاً للكرامة الإلهية، وبها تكون لهم الوقاية والرعاية. ولولا أعمالهم فلا وقاية لهم. فالوقاية سنة إلهية، والله يجري الأمور بأسبابها، لكن سببية هذه الأسباب مجعولة من قبله سبحانه، وإثارة هذه الأسباب وتحريكها إنما يكون بفعلنا نحن، وقد جعلت النار وخلقت لمعالجة الذنوب، وخلقت الجنة للثواب على الطاعات.. وقد روي عنهم [عليهم السلام]: اتقوا النار ولو بشق تمرة..

الوقاية والتفضل:

ولكن اعتبار الوقاية نتيجة للعمل. وجزاء عليه..لا يعني عدم وجود أي تفضل إلهي.. بل التفضل قد يكون في نفس مقدار الجزاء، وذلك

حين يقرر أن الحسنة بسبع مئة، وأن الله يضاعف لمن يشاء.. وأن ذلك يصير حقاً لهم بعد تحقق الجعل..

كما أنه قد يكون هناك تفضل زائد على أصل الجزاء، بعد تقريره، وجعله.. وهو ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1]..

التقوى.. حذر واستعداد:

وبمناسبة حديثنا عن الوقاية، نشير إلى أن البعض قد يتخيل: أن التقوى معناها الخوف والفزع من الله تعالى، فمعناها قريب من معنى الخشية..

ولكن الظاهر هو أن التقوى مأخوذة من طلب الوقاية، فهي أقرب إلى معنى الحذر الذي يدعو إلى التماس الحرز والواقي..

بين صيغتين:

هذا.. وقد قال تعالى هنا: ﴿فَوَقَاهُمُ﴾، ﴿جَزَاهُمْ﴾، بصيغة الماضي.. وقال قبل ذلك: ﴿يَشْرَبُونَ﴾، ﴿يطعمُونَ﴾، ﴿نُطعِمُكُمْ﴾، ﴿يَخَافُونَ﴾، بصيغة المضارع. وما ذلك.. إلا لأنه سبحانه حين استعمل صيغة المضارع، أراد أن يبين: أن هذه سجية فيهم، وأنه أمر مستمر ومتجدد، لكنه حين استعمل صيغة الماضي، فهو إنما كان يتحدث عن الجزاء، فجاء بما يفيد التحقق والحصول والثبوت، لأن من آثار ونتائج الأفعال، دوامها وبقاؤها وثباتها.

«فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ»:

قال في مجمع البيان: «أصل الشر الظهور، فهو ظهور الضرر، ومنه

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١.

شررت الثوب إذا أظهرته للشمس، أو الريح... إلى أن قال: ومنه شرر النار لظهوره بتطايره». أي وانفصاله..

وقد يذكر للشر تفاسير أخرى، هي إما تطبيقات ومصاديق، أو إشارات إلى لوازم هذا المعنى.. ككونه الاسم الجامع للرذائل، والخطايا، والسوء، والفساد، والظلم، والشر، وأيضاً: إبليس، والفقر، والحمى..

وإذا أردنا أن نسوق الكلام هنا وفق ما قاله الشيخ الطبرسي.. فنقول: إن الفطرة، والعقل، والهداية الشرعية، وسائر الهدايات الإلهية، ورعاية الله سبحانه، وتدبيره وألطافه الربوبية، نعم ـ إن ذلك كله يفرض على هذا الإنسان أن يسير باتجاه معين، وفي ضمن نطاق النظام التكويني، والفطري، والتشريعي، والعقلي. ويفرض حالة من التناسق في الخلق، والوجود، وفي الحياة، ليصل الإنسان إلى كماله، وليتمكن من تحقيق ذاته، فأي خروج عن هذا، سوف يكون نشازاً، له بروزه وظهوره المميز..

ويمكن تقريب هذا الأمر بمثال هو: أنك لو جسدت إنساناً في تمثال، فإذا أنقصت منه بعض أعضائه الظاهرة، مثل يده، أو أنفه، أو شفته، أو عينه، فإن ذلك سيكون هو النقطة الأظهر فيه، وستنصب الأنظار عليها بشكل لافت وغير عادي. وسوف يستتبع ذلك أذى للنفس، وانفعالات خاصة لدى الناظر، وشعوراً مختلفاً، ولعله يؤذي مشاعره، وقد لا يلتفت إلى أية ناحية جمالية مميزة أخرى موجودة في ذلك التمثال. لأن هذا النقص نشاز، لا بد أن يظهر، وأن ينشر آثار النقص الظاهرة فيه في كل اتجاه، بخلاف ما لو كان التمثال تاماً، فإنك قد لا تلتفت، لا إلى أذنه، ولا إلى عينه، ولا.. ولا.. إلخ..

فلو كان هناك إنسان عابد، زاهد، عالم، تقي إلخ.. ولكنه حسود فإنك ستجد أن هذا النقص هو الذي يلفت نظر الناس، وستكون له

تأثيرات سلبية على علاقتهم به، ونظرتهم إليه، تفوق تأثيرات صفات الإيجاب فيه، ولسوف ينقص ذلك من تلذذهم بصفات الإيجاب. بل ربما يكون وجود صفات الكمال فيه هو الموجب لزيادة ألمهم وتأذيهم بصفات النقص..

وبما أن شرور ذلك اليوم، قد أنتجتها أعمال الناس.. واختلالات في سلوكهم، ونقائص وتشوهات في شخصيتهم الإنسانية والإيمانية.

فإن ظهور النقص الذي في شخصية الإنسان على حركاته، وأفعاله، كان هو الذي كان هو السبب في تسرب الشر إلى حياته في الآخرة، وهو الذي أوجد هذا الشر..

أما الأبرار فليس فيهم أي خلل أو نقص، ولا يوجد في حياتهم أية ثغرة يمكن للشر أن يتسرب منها إليهم، فهم في وقاية حقيقية منه..

فالشر إذن لا يُمنَع ولا يُكَفُّ عنهم.. بل هم في حصن حصين منه، وليس فيهم منفذ يستطيع الشر أن ينفذ منه إليهم.

«وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً»:

وقد فسروا كلمة **«لقَّاهم»** بلاقاهم.. مع أن كلمة **«لقَّاهم»** إنما تعني: أنه جعلهم يتلقون النضرة بصورة متتابعة وتدريجية، ومرة بعد أخرى، والتلقي هو التقبل والأخذ، باختيار وسابق إرادة..

فالنضرة لم تعرض عليهم عروضاً عابراً.. بل بقيت فيهم واستمرت..

أما كلمة **«لاقاه»**، فإنما تعني حصول مواجهة بين هذا وذاك، ولو صدفة، ولا تعني التدرج، ولا التوالي والتعاقب.. وكذا الحال بالنسبة لتلقاه فإنها قاصرة عن إفادة المراد، لأن معناها: تلقاهم بالنضرة وبالسرور، مع أن المراد: أنهم هم الذين يتلقون النضرة والسرور، ليحل بهم، ويكون فيهم.

كما أن «لقّاه».. معناها جعله يتلقى شيئاً آخر، أما «لاقاه»، فمعناها أنه هو نفسه قد التقى معه.

أضف إلى ما تقدم: أن «لاقاه» تحتاج في تعديها إلى النضرة، إلى توسيط حرف الجر، فتقول: لاقاهم بالنضرة، أما كلمة «لقّاه» فتتعدى بنفسها فتقول: لقاهم نضرة..

بقي أن نشير إلى أن كلمة «لقّاهم» بمعنى جعل فيهم أهلية التلقي، مع فعلية إفاضة النضرة والسرور عليهم، وليس المراد بها مجرد جعل الأهلية، ولذلك لم يقل: وأهّلتهم للنضرة والسرور، كما لم يقل: وأعطيتهم نضرة وسروراً، أو سررتهم ونضّرتهم.

وقد قلنا: إن نفس عملهم في الدنيا هو الذي أوجب لهم هذا الجزاء، وهذا اللطف الإلهي في الآخرة، وتسبب باللطف والكرامة لهم، والعناية بهم، بصورة تدريجية ومستمرة، مما يدل على وجود إرادة إلهية مستمرة الفيض عليهم.

وإن إحساسهم ببقاء هذا الرضا، وبقاء اللطف، هو نعيم آخر لهم. إذ هناك فرق بين أن يعمل الإنسان عملاً، ويأخذ أجرته، وتنتهي العلاقة به، وبين أن يوجب ذلك العمل علاقة مستمرة. وما نحن فيه من هذا القبيل، ففيه لذة الشعور المستمر بهذه العلاقة، فالله سبحانه لا يريد أن يدخلنا الجنة لكي نتنعم بها، ثم ينفذ ذلك النعيم، وينقطع عنا، إذ إن لذة إحساسنا بدوامه هي الأتم، وهي الأهم.

«نَضْرَةً»:

والنضرة تحتاج ـ بحسب طبيعتها ـ إلى بقاء واستمرار، لأن النضرة هي: الحسن، والرونق، واللطف، والإشراق. والناضر هو الناعم الذي له

بريق في صفائه..

وهذه نعمة حباهم وكرمهم الله تعالى بها.. وهي تكون تامة، نامية، زاكية، إذا استمرت..

وقد جاءت كلمة «نَضْرَة» منكَّرة، ليثير أكثر من سؤال حول حقيقة هذه النضرة، وأفق ومدى ذلك السرور.. فهي نضرة تحير العقول في أوصافها، وسرور لا يمكن وصفه أيضاً. وفي هذا لذة الطمأنينة وهي لذة لا حدود لها، بل هي تصل إلى درجة الرضا والإشباع.

لماذا بدأ بالنضرة؟!:

ويبقى سؤال هو: لماذا قدم ذكر النضرة، التي قدمنا تفسيرها على السرور؟..

ويمكن أن نجيب: بأن النضرة تعبر عن تغير حقيقي في الذات، إلى حالات لها درجة من الثبات، فهي ليست كالسرور الذي هو مجرد انفعال نفسي، ليس من طبيعته البقاء والثبات، بل هو قد يزول وينتهي.

كما أن النضرة هي من أسباب ومبادئ حدوث الطمأنينة والرضا، وهي علامة من علامات النشاط، وظهور الحيوية، وتبلور الإحساس بكمونها في واقع الذات..

وذلك بطبيعة الحال سبب من أسباب السرور، لأنه يعطي الإيحاء والإشارة إلى أن وجود هذه الحالة، إنما هو من خلال اللطف، ومن مظاهر وتجليات الرضا الإلهي والكرامة الربانية، وذلك مثار اعتزاز، وسبب لتباهي أهل الجنة، وهم ينافسون أهل النار، ويجعلون منه سبيلاً لإثبات الحق، وإبطال الباطل، وزيادة حسرة وعذاب أهل النار، الذين كانوا يَستضعفون، ويُذلون ويَحتقرون المؤمنين في الدنيا، فها هم يرون

الآن نعيمهم وعزّهم، فيؤذيهم ذلك ويكون خزيهم، وعذابهم الشديد نعيماً وشافياً لصدور أهل الإيمان في الجنة، لأنهم يحبون أن يروا عواقب هتك حرمات الله، والتمرد عليه سبحانه..

وقد حدثنا القرآن عن حوارات هامة فيما بين أهل الجنة وأهل النار، لربما نوفق إلى الإلماح إليها في مقام آخر، يلاحظ فيها أن الكفار يكذبون في الآخرة في بعض الأحيان، ويحاولون التملص والتخلص مما هم فيه بلطائف الحيل.

مما يعني: أن حرية القول وحرية التصرف تبقى للناس، حتى وهم يعذبون أو ينعّمون.

وخلاصة القول: إن النضرة وسام ظاهر في أهل الإيمان، يزيد من بهجتهم.. ويزيد من حسرة أهل النار، ومن عذابهم وألمهم. وهي تحمل معها موجبات السرور بلطف الله بالأبرار، وبكرامته لهم، وعطفه عليهم.

ما خافوا منه.. وما لقّاهم إياه:

وقد يمكن القول بوجود سنخية من نوع مّا بين ما خاف الأبرار منه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ أي شديد العبوس الظاهر في الوجه، وبين ما لقّاهم الله تعالى إياه، وهو النضرة، التي هي الرواء، والرونق، والبهاء الثابت والمستمر، والحيوية الدائمة المتجددة..

كما أن الشدة والصعوبة في المضمون المعبر عنه بالقمطرير. يقابله سرور وابتهاج نابع من الداخل، ومن أعماق النفس، طافح على الجوارح، ظاهر في التصرفات والحركات.

«وَسُرُوراً»:

وقد قيل: إن السرور هو اعتقاد وصول المنافع في المستقبل..

ونقول: إن السرور ليس مجرد اعتقاد، بل هو حالة انفعالية، وارتياح وانبساط، وتلذذ قلبي وروحي، يطفح حتى تظهر آثاره على الجوارح، حركة وسلوكاً. وتقابلها حالة الكبت، والانكماش، والأسى..

وحالة السرور هذه تحتاج دائماً إلى متعلق، حيث يسر الإنسان بولده، أو بماله، أو بشفاء مريض، أو بكرامة الله له.. وهذا يعني أن هذا السرور باق ببقاء متعلقه، الذي يختزن المنشأ والمقتضي له، وهو سبب حدوثه..

فإكرامك إنساناً وخدمتك له ساعة، سيكونان سبباً في سروره طيلة هذه الساعة، فإذا أكرمته يوماً، فسروره يبقى يوماً أيضاً.. وهكذا.. لأن السرور دائر مدار الوجود الفعلي لمتعلقه، ومنشئه، وبواعثه.

ولذلك نلاحظ: أن التعبير في الآية الشريفة هنا قد جاء بالتلقي، الظاهر في إرادة التجدد المستمر، والحدوث مرة بعد أخرى.

وبذلك يتضح: أن تفسير السرور باعتقاد وصول المنافع في المستقبل غير دقيق من جهتين:

الأولى: أن السرور ليس مجرد اعتقاد، بل هو انفعال حقيقي، وابتهاج فعلي، ولذة قلبية حاضرة.

الثانية: أنه ليس سروراً بأمر سيحصل، بل هو سرور بأمر حاضر، قد حصل بالفعل، فالسرور يدور مداره وجوداً وعدماً، لأنه باق ببقائه..

وإرادة بقاء هذا السرور تستلزم بقاء ما يوجبه..

والذي يوجبه في مورد الآية هو أن من سجية الأبرار إطعام الطعام على حبه مسكيناً، ويتيماً، وأسيراً، لوجه الله.. ومن سجيتهم الوفاء بالنذر، ومن سجيتهم الخوف من ذلك اليوم العبوس القمطرير.. و.. و.. الخ..

فإذا كان هذا هو حالهم المستمر، فإن نتيجته نضرة مستمرة ومتجددة،

وسرور مستمر ومتجدد أيضاً خصوصاً.. إذا كان مصدر هذا العطاء وهذه الكرامة هو الله سبحانه، الذي لا حدود لكرمه، ولا نهاية لعطائه: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1].

وقد قلنا: إن تنوين التنكير في كلمتي «نَضْرَةً» و «وَسُرُوراً» إنما هو لإفهام الإنسان أنه لا حدود لعطاء الله سبحانه.. فإذا كان يتخيل الأمور محدودة، ويتطلب ما هو محدود، فإن الله سبحانه حين يريد أن يكرم الإنسان، فإنما يكرمه بما يناسب ذاته المقدسة، وإن لم يستطع الإنسان نفسه إدراك حجم، ونوع، وحالات، وخصائص، ومزايا ذلك الإكرام الذي يختاره الله له، ويخصه به.

* * *

(١) سورة هود الآية١٠٨.

المحتويات

الفصل الثاني

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾

الفصل الثالث

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾

الفصل الرابع

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً﴾

الفصل الخامس

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾

الفصل السادس
﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾

الفصل السابع
﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾

الفصل الثامن

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾

الفصل التاسع

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾

الفصل العاشر

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾

الفصل الحادي عشر

﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾